مجلد ٣ — عدد ١٢ سبتمبر ١٩٤٦

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة



— لتحسين الإنتاج في العمل



نظام **كاردكس** اختراع أمريكي فريد يتيح ترتيب بطاقات الأعمال ترتيباً أفقياً وليس رأسياً كالنظام العتيق ، وهو لذلك يضمن بطريقة عجيبة سرعة ترتيب تلك البطاقات وتسجيل البيانات فيها . وترى الطرف الأسفل لكل بطاقة — وهو الفهرس — ظاهراً بأكمله ، فيسهل عليك إيجاد البطاقة التي تبحث عنها في الحال وهنالك إشارات ملونة تتحرك على هذا الطرف الظاهر ، فتلفت النظر إلى الموضوعات التي تستدعي إجراء خاصاً . وهكذا يعطي نظام **كاردكس** لرجل الأعمال صورة منظمة سريعة عن حالة أعماله .

وفي أنحاء القطر المصري ، يستعمل رجال الأعمال نظام **كاردكس** في تسجيل أهم العمليات التجارية مثل الجرد ، والبيع ، والشراء ، والانتاج وغيرها من الأعمال . فاستعمال **كاردكس** يمكن صاحب العمل من « الرقابة » ... وامتلاك زمام عمله إذ يكون أمامه في كل لحظة رسم بياني للأمور يرشده فيما يتخذ من قرارات .

فنظام **كاردكس** يزيد من كفاية عمالك ، فيساعد على زيادة إنتاجك كما ساعد الشركات الأمريكية .

انتاج مصانع الآلة الكاتبة رمنجتون راند



الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية — قسم الآلات وأثاث وأدوات المكاتب

القاهرة — الاسكندرية — بورسعيد

المركز الرئيسي بالقاهرة : ٥ شارع قنطرة الدكة



كتاب يعد فتحا جديدًا فى الأدب
أرض البشر
للكاتب الطيار انطوان دى سانت اكسوبرى
رائد من الرعيل الأول
للطيارين ينظر إلى الكون خلال
تجربته نظرة الشاعر الفيلسوف،
يصلنا بالآفاق الشاسعة
ويضعنا فى صميم الخطر
وفى صميم العمل ...
انطوان دى سانت اكسوبرى
أرض البشر
تعريب مصطفى كامل فوده
دار الكاتب المصرى
تعريب مصطفى كامل فوده
طبعة مزينة بالصور
٢٥
والبريد
٢٠ مليمًا



رجل الأقدار
فى هذا الكتاب الفذ، لمؤلفه الفذ، يبدو نابليون عظيما فى
رفعته، عظيما فى محنته، يثير الاهتمام اليوم، كما أثاره قبل اليوم،
ويثيره بعد اليوم: شخصية ضخمة يتعدل فيها الرأى كل يوم.
فنابليون السائس، ونابليون القائد، ونابليون المفكر، قد
كان إلى ذلك رباً من أرباب القلم، ومالكا قديراً لناصية الكلم.
فى هذا الكتاب يحدثنا نابليون عن نفسه، ويعيش فى حاضرنا
كما عاش فى حاضره، ويعرض صور عصره حية متحركة.
نابليون الواسع العلم، المحدق بالعالم، المحيط بتاريخه، وهو
ما يزال غض الإهاب، فى شرخ الشباب.
نابليون الذى وضع أذنه دائماً على قلب الجماهير شأن
الطبيب الفاحص، لا المحب الواله، فعرف اتجاهها،
وسيرها فى اتجاهه.
نابليون الذى تفوق فى أعماله الحربية بصفاته
الذهنية، وكان سلاحه النظر، والحساب،
والتصميم، والفصاحة، ومعرفة الناس.
نابليون الذى اعتز بلقب عضو
المعهد أكثر مما اعتز بلقب الفاتح.
هل كان رجل جلاد، مبيداً
للعباد، عاملا لشخصه، بانياً لمجده؟
اميل لودفيج
نابليون
دار الكاتب المصرى
ثمن الجزء ٤٥ والبريد ٣٦ مليمًا



سترى فى هذا الكتاب كيف جلا لودڤيج شخصيته ، ومجّد إنسانيته ، وقدم صورة منوعة بديعة لعبقريته .
ستقرأ قصة حقيقية لقاهر الثورة ، وماحى الفوضى ، وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتلمس من المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .
ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودڤيج عنه ، وذكره هو عن نفسه ، فى ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألمانى ، وعبارة رصينة توائم أسلوب المؤلف الألمعى ، بقلم مترجم إيفيچينيا وإجمنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ، وسودرمان ، وهانس أندرسن .
نابليون
لإميل لودڤيج
ترجمه عن الألمانية
محمود ابراهيم الدسوقى
طبعة فاخرة مزينة بالصور فى جزءين



يحيى الخشاب
حكايات فارسيه
دار الكاتب المصرى
SCRIBE
حكايات فارسية
كتاب يحمل الى قراء العربية
عبيرا رقيقا حسن الموقع فى
النفس من هذه الحياة الفارسيه
الممتازة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة
٢٠ ص
البريد ١٦ مليما

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein





شوال ١٣٦٥ — سبتمبر ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ١٢

الأدب المظلم

ليست حياة الناس كلها ورداً ، وليست حياة الناس كلها شوكاً . وقد أنبأنا شاعرنا القديم منذ عشرة قرون بأن العاقل يشقى بعقله فى النعيم ، وبأن الجاهل يسعد بجهله فى الشقاء . ومعنى هذا أن الحياة شوك بالقياس إلى العاقل الذى يحلل ويعلل ، ويحصى ويستقصى ، ويحاول أن يرد كل شىء إلى علته ، ويستخرج من كل شىء نتيجته ، وأن الحياة ورد بالقياس إلى الجاهل الذى يأخذها كما تساق إليه لا يحاول لها فهما ولا تأويلا . وتستطيع أن تعرض هذه القضية عرضاً آخر فتقول : ليست الحياة كلها مشرقة كما يشرق النهار ، وليست الحياة كلها مظلمة كما يدلهم الليل . وأكبر الظن أنها تظلم وتدلهم حين يريد العاقل أن يحياها عن بصيرة وفهم ، وأنها تشرق وتضىء حين يريد الجاهل أن يقبلها كما تهدى إليه . وأكبر الظن كذلك أن إشراقها بالقياس إلى الجاهل نفسه لا يخلو من ظلمة تغشاها بين حين وحين فتخفى معالمها وتشوه محاسنها وترد صاحبها على جهله إلى الحيرة حينا وإلى القنوط حينا آخر ؛ وأن ظلمتها بالقياس إلى العاقل لا تخلو من ضوء ضئيل نحيل ينفذ إليها أو ينفذ منها كما ينفذ السهم فتشرق له بعض جوانبها لحظات تقصر أو تطول .

وليس فى ذلك شىء من الغرابة ؛ فضوء الشمس يحجبه السحاب ، وظلمة الليل يجلوها ضوء القمر أو تخترقها أشعة النجوم . والناس كلهم يعلمون أن حياتهم مزاج من الخير والشر ، ومن السرور والحزن ، ومن الرجاء واليأس ، ومن الابتهاج والابتئاس . تختلف حظوظهم من هـذه النقائض باختلاف

الطباع والأمزجة ، وباختلاف البيئة والظروف ، وباختلاف هذه المزايا التى ركبت فى نفوسهم والتى تعكس لهم الحياة نقية صافية حينا ، وكدرة قاتمة حينا آخر . ولكنهم بعد ذلك يختلفون ، أو قل إن أدباءهم وفلاسفتهم يختلفون حين يريدون أن يصوروا لهم هذه الحياة فيما يحدثون من فلسفة ، وفيما ينشئون من أدب . فبعضهم لا يصور من الحياة إلا صفوها وعفوها ، وما يشيع فيها من نقاء وجمال . وبعضهم لا يصور من الحياة إلا شرها ونكرها وما يجثم عليها من فساد وضلال . وبعضهم يتوسط بين ذلك فيصورها شائقة رائقة حينا ، ويصورها قاتمة بغيضة حينا آخر . وليس فى شىء من هذا كله جديد ؛ فمن الكتّاب من يتفاءل دائما ، ومنهم من يتشاءم دائما ، ومنهم من يأخذ من التفاؤل والتشاؤم بطرف . ولكن الجديد هو أن من الأوربيين من يلوّنون هذه الآداب المتباينة ألواناً مختلفة ، ويسمونها بهذه الألوان ؛ فالأدب الخالص للتشاؤم أدب أسود ، والأدب الخالص للتفاؤل ، والأدب الملائم بين التفاؤل والتشاؤم ، يأخذان ما يريد الكاتب أو المتحدث أن يسبغ عليهما من الألوان حين يريد العبث أو الدعابة . وهذا كله لا يزيد على أن يكون نحواً من أنحاء التحذق ، وفنًّا من فنون الإغراب .

ولأمر ما لا يكاد الأوربيون فى هذه الأيام يحفلون بأدب التفاؤل ، ولا بالأدب الذى يتوسط بين التفاؤل والتشاؤم ، وإنما يعنون العناية كلها بالأدب الأسود الذى يخاص للتشاؤم ، ويصور الحياة فى أبشع صورها وأقبح مناظرها ، لا يخفى ولا يحاول أن يخفى من ذلك شيئاً ، بل يجتهد فى إظهار الخفى وتوضيح الغامض ، واستكشاف مالا يهتدى الإنسان إليه من سيئات الحياة ، ومن ضعة الحظ الذى كتب للإنسان فى هذه الحياة . وأكبر الظن أن المحن التى امتحنت بها أوربا فى هذا القرن ، والخطوب التى صُبَّت على الإنسانية فى الحربين العالميتين ، وما تكشفت عنه نفوس الأفراد والجماعات من أثرة لاحدَّ لها ، وضعة لا سبيل إلى وصفها ، وضعف أمام الأحداث ، وتخاذل أمام الكوارث كل ذلك قد أظهر الإنسانية على سيئاتها ، وكشف لها مخازيها ، وعلّمها أنها ليست من الرفعة والسمو ولا من الطهر والنقاء بحيث كانت تظن حين كانت حياتها مطمئنة راضية

وهذه الظاهرة التى نراها الآن فى أوربا ، ظاهرة الإقبال على التشاؤم ،

والإنتاج للآثار القاتمة ، والإعجاب بالأدب الأسود هذه الظاهرة نفسها ليست جديدة ، وإنما هى شئ ألفته الإنسانية منذ أقدم عصورها ؛ فهى متفائلة مبتهجة حين تكون حياتها راضية مطمئنة ، وهى متشائمة مبتئسة حين تعصف بها الخطوب ويشيع فى حياتها القلق والخوف . وقد نستطيع أن نسجل فى هذا الحديث السريع بعض الظروف التى بدت فيها هذه الظاهرة قوية جامحة توشك ان تكتسح كل شئ ، وتوشك أن تسبغ على الأدب بنوع خاص هذه الظلمة القاتمة ، وهذا السواد المخيف .

والأدب اليونانى بالطبع قد سبق إلى الخضوع لهذه الظاهرة فى القرن الخامس قبل المسيح حين اضطربت حياة العالم المتحضر فى ذلك الوقت بالاصطدام بين اليونان والفرس ، وحين اضطربت حياة اليونان أنفسهم بالاصطدام بين الأتينيين والأسبارتيين . وليس من شك فى أن الهول الذى انتشر فى بلاد اليونان بحكم هذه الحروب المتصلة قد حمل العقل اليونانى قبل كل شئ على أن يفكر فى الحياة ، ويحاول أن يعلل ما فيها من خير وشر ، ومن نعيم وبؤس . وهو لم يكد يعرض لهذا الموضوع حتى ثارت أمامه هذه المشكلات الإنسانية الخالدة التى تتصل بالعلاقة بين الإنسان والآلهة ، بل بين الإنسان والقضاء الذى يسيطر على حياته ويصرفها كما يشاء هو لا كما يشاء الإنسان . وليست المأساة اليونانية وآياتها الخالدة إلا مظهراً من مظاهر هذه الحيرة ، التى سيطرت على العقل اليونانى حين صوَّر لنفسه هذه المشكلات ، وأراد أن يجد منها مخرجاً ويلتمس لها حلا .

وكان الجواب الأول الذى ألقاه العقل على الإنسان وصوَّرته المأساة أروع تصوير ، هو أن هناك قوة قاهرة ماكرة ليس لأحدعليها سلطان ، لا من الناس ، ولا من الآلهة أنفسهم ، وهذه القوة هى القضاء المحتوم الذى لا يستطيع أحد لأحكامه نقضاً ولا تغييراً . وكل ما فى الأمر أن فى الوجود طبقتين تمتازان من جهة ، وتتشابهان من جهة أخرى : إحداهما طبقة الآلهة التى لا تخضع لغير القضاء ، والتى تمتاز بشئ من القوة وظاهر من الحرية . والثانية هى الإنسان الذى لا يخضع للقضاء وحده أو قل لا يخضع للقضاء مباشرة ، وإنما يخضع له من طريق الآلهة الذين ينفذون فيه الأمر ويمضون فيه الإرادة المحتومة . فالأقدار مثلاً قد كتبت على أو يدبوس أنه سيقتل أباه ، وسيتزوج أمه ، وسيكون

له منها ابنان يقتل كل منهما صاحبه فى موقعة حاسمة، وابنتان تموت إحداهما فى سبيل أداء الواجبات الدينية لأحد أخويها حين يدركه الموت وتأبى الدولة إلا أن تتركه بالعراء نهباً لسباع الطير. وحظ الآلهة من القدرة إنما هو إنفاذ هذا القضاء، تسخر الإنسان له تسخيراً، تنصح له قليلا وتضلله كثيرا وتعبث به دائما. فهى توحى إلى لايوس ملك ثيبة أن سيكون له ابن يرديه، وهى تلقى فى رُوعه أنه إن استطاع أن يتخاص من هذا الابن حين يولد فقد يفلت من هذا القضاء المحتوم. وما تزال تغريه بذلك وتزينه فى قلبه حتى يدفع بالصبى حين يولد إلى أحد الرعاة ليقتله. وقد عاد الراعى إليه فأنبأه بأنه أنفذ إرادته، فيطمئن الملك وينعم بحياة قوامها الغرور؛ لأن الراعى لم ينفذ أمره ولم يصدُقه الخبر. ألقت الآلهة فى رُوعه حب الصبى والعطف عليه فلم يقتله، وإنما تركه فى حيث استطاع راع آخر أن ينقذه ويكفل له الحياة.

وكذلك عبثت الآلهة بالملك فغرّته وأملَتْ له، وعبثت بالراعى فزينت فى قلبه الحب والرحمة، وأتاحت للصبى أن ينشأ وينمو ويبلغ أشده ويصبح قادراً آخر الأمر على أن يقتل أباه ويستأثر بعرشه، ويتزوج من أمه وينفذ حكم القضاء. فحكم القضاء إذن ضرورة محتومة لا يفلت من سلطانها أحد، وليس الآلهة أنفسهم إلا أدوات لإنفاذ هذا الحكم مهما يظهر من سلطانهم على الناس ومداورتهم لهم، ولكنهم على كل حال يستمتعون بظاهر من الحرية يتيح لهم هذه المداورة.

وقد استطاع العقل اليونانى فى هذا الطور من أطواره أن يمنح الإنسان شيئاً من الحرية الظاهرة، لاأقول فى تغيير حكم القضاء، ولا أقول فى التخاص من سلطان الآلهة، وإنما أقول فى الثبات لهذا القضاء، والحزم أمام سلطان الآلهة. فأويدبوس لايغير من الضرورة المحتومة شيئا لأنه لا يستطيع تغييرها. وهو ينخدع بوحى الآلهة، فيفر من منفاه معتقداً أنه سيظفر بالحرية كل الحريه نتيجة لهذه المغامرة. وهو يحل اللغز الذى يلقيه عليه ذلك الكائن الغريب أمام مدينة ثيبة، ويظفر بالعرش، ويتخذ الملكة لنفسه زوجاً، ويرى أنه قد ظفر بالسعادة كل السعادة، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن الآلهة إنما سلكت به هذه الطرق كلها لتنفذ على يده حكم القضاء فتضطره إلى قتل أبيه، ثم لتنفذ فيه هو حكم القضاء فتضطره إلى أن يتزوج أمه ويعقب منها الولد.

فحريته إذن أمام القضاء وأمام الآلهة ليست شيئا ، ولكن له مع ذلك نصيباً من الحرية فهو يثبت للكارثة ، قد فقأ عينيه ، ونفى نفسه من الأرض ، ولكنه لا يتهم نفسه بشئ ولا يلومها على شئ ، فهو لم يأثم ، وإنما كتب القضاء عليه الإثم وضللته الآلهة حتى تورط فيه . ولو خير لاختار ، ولو عرف أن هذا الشخص الذى لقيه فى الطريق هو أبوه لما قتله ، ولو عرف أن هذه الملكة التى أهدت إليه نفسها وعرش زوجها هى أمه لما تزوجها . وإذاً فهو مجبر لامختار ، وإذن فهو لا يحتمل تبعة ولا يستحق لوما ، وهو فى حقيقة الأمر لا يعاقب نفسه حين يفقأ عينيه ويهاجر من وطنه ، وإنما ينفذ حكم القضاء ، ويخضع لسلطان الضرورة . لم يكن يملك إلا هذا ، ولكنه على ذلك ينكره ويثور عليه ، ويرى نفسه بريئاً أمام الآلهة وأمام القضاء

وكذلك نرى الإنسان يعرف نفسه أولاً ويعرف ضعفه ثانياً ، ويعرف أن هذا الضعف لا يأتيه من عند نفسه ، وإنما يأتيه من عند هذا السلطان الأعلى الذى يتحكم فيه ويصرف أمره كما يريد ، لا يستشيره ولا يستأمره ، وإنما يسخره لما يريد تسخيرا . والمهم بعد ذلك هو أن الإنسان يحقق هذا كله ، ويصارح القضاء بأنه غير ملوم .

ومهما يكن من شئ فقد ألقيت المسألة الخطيرة ، مسألة الصلة بين الإنسان وبين الآلهة ، بل مسألة الصلة بين الإنسان وبين القضاء . والذى يحدث بالقياس إلى أوديبوس هو بعينه الذى يحدث بالقياس إلى غيره من أبطال المأساة ، فهم جميعاً يُمْتَحنون لا فى قدرتهم على الخير ولا فى ترجيحهم بين الحسنة والسيئة ، وإنما يمتحنون فى احتمالهم للمكروه ، وإذعانهم لحكم القضاء ، وثباتهم لما ينزل بهم من الملمات ؛ فمنهم من يذعن فى غير اعتراض ، ومنهم من يذعن فى شئ من المقاومة ، ومنهم من يودُّ لو يثور ، فإذا أعجزته الثورة احتفظ بحريته كاملة بينه وبين نفسه ، وحمَّل الآلهة والقضاء تبعة ما يتورط فيه من شر ، وما يجرى على يديه من أحداث .

فالمأساة إذن فى حقيقة الأمر ليست إلاّ لوناً من ألوان التشاؤم حين ينظر الإنسان إلى الصلة بينه وبين هذه القوة المتسلطة التى تحكم لا معقِّب لحكمها . ومع ذلك فهذا اللون من ألوان التشاؤم ليس سواداً كله ، بل فيه شئ قليل أو كثير من الإشراق ؛ لأن فيه شيئاً قليلا أو كثيراً من الأمل الذى يأتى من

معرفة الإنسان نفسه، ومن شجاعته عند البأس، وقدرته على المقاومة، وصبره على المكروه صبراً يأتيه من إرادته لا من شيء آخر. ومن هنا كانت المأساة اليونانية تصويراً لبؤس الإنسان من جهة، ولبطولته من جهة أخرى.

وقد يخيل إلى الناس أن المأساة اليونانية هي وحدها الأدب الأسود في الحياة العقلية اليونانية. ولكن شيئاً من التفكير اليسير يُظهرنا على أن السواد كان يجلل الأدب اليوناني كله في ذلك العصر المجيد الذي أورث الإنسانية هذا التراث الخالد العظيم.

ففلسفة السفسطائيين في القرن الخامس قبل المسيح لم تكن إلاّ نوعاً من التشاؤم؛ لأنها كانت تنكر الحقائق، وتقيم أمر الحياة كله على التخييل والخداع. لم يكن المهم عند الفلاسفة السفسطائيين أن يعرفوا الحق لأنهم يئسوا من معرفة الحق، وإنما كان المهم أن يَلبسوا الحق بالباطل، ويخدعوا نظراءهم من الناس. وواضح جداً أن الفلسفة التي تقوم على اليأس ليست من الإشراق ولا من السطوع في شيء.

والملهاة اليونانية التي كانت تملأ الملاعب ضحكا وتخرج النظارة عن أطوارهم، لم تكن في حقيقة الأمر مشرقة ولا ناصعة، وإنما كان إشراقها تكلفاً ونصوعها خداعا؛ فهي كانت تُضحك النظارة من أنفسهم، وتعبث أمامهم بما كانوا يكبرون من القيم، وهي كانت تظفر منهم بالرضا وتضطرهم إلى الإعجاب. ومعنى ذلك أنها كانت تكشف لهم عما في حياتهم الفردية والاجتماعية من السخف الذي لا يستحق منهم إعجابا ولا إكبارا، وإنما يستحق منهم سخرية واستهزاء. فأرستوفان حين كان يُضحك الشعب من حكومة الشعب، وحين كان يعبث بفلسفة الفلاسفة وسياسة الساسة وأدب الأدباء، إنما كان يسخر ويحمل الأتينيين على أن يسخروا معه من هذه القيم الفلسفية والسياسية والأدبية التي كانوا يقدرونها ويكبرونها خارج الملعب صادقين فيما بينهم وبين أنفسهم أو كاذبين. لم يكن أرستوفان يزيد على أن يثبت للأتينيين أن ما كانوا يزهون به على المدن اليونانية ويزينون به حياتهم لم يكن إلا سخفاً وباطلا. ومن هنا نفهم ما يقال في تاريخ الفلسفة من أن سقراط وتلاميذه إنما أنفقوا جهودهم الهائلة الخصبة ليقاوموا هذه النزعات السفسطائية التي تؤيس الإنسان من نفسه، وتفسد الصلة بينه وبين آلهته، وتدفعه إلى نوع من الفوضى لا ينتج له إلا العبث والشك

والاستهانة بكل شئ والانتقاض على كل سلطان . وليس يعنيني أن أبين الآن ما أتيح لسقراط وتلاميذه من الفوز بقدر ما يعنيني أن ألاحظ أن الجهود التى بذلها سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس لرد الإنسان إلى شئ من النظام والاستواء ، ولتنظيم الصلة بينه وبين هذه القوة العليا التى تدبر أمره هذه الجهود نفسها قد انتهت إلى الإخفاق . وقد يكون الأدب اليونانى فى عصر سقراط وتلاميذه بعيداً عن التشاؤم . ولكن الشئ المحقق هو أن هذا العصر قد انتهى آخر الأمر إلى تشاؤم الرواقيين والأبيقوريين وأصحاب الشك ، وعادت القضية الإنسانية سيرتها الأولى ، ووقف الإنسان من الآلهة موقفه القديم الذى كان يملؤه اليأس ، ويشيع فيه الإذعان الخالص أو الإذعان الذى تشوبه المقاومة أو الذى كان يدفع إلى الثورة الصريحة التى دفع إليها أبيقور وتلاميذه ، والتى أورثت الإنسانية فى العصر القديم أروع نماذج الأدب الأسود ، ذلك الذى يقطع الصلة بين الإنسان وبين آلهته ، والذى يعلّم الإنسان ألاّ يؤمن إلاّ بنفسه ، ولا يعتمد إلاّ عليها ، ولا يأمل إلاّ فيها ، والذى يعلّم الإنسان كيف يبرئ نفسه من الوهم ، ويخلصها من خوف الآلهة ، ويعصمها من رهبة الموت ، ويزهدها فى لذات الحياة ، ويأخذها بأن تنظر إلى حقائق الأشياء كما هى فى غير خداع ولا انخداع . والذين يقرءون « طبيعة الأشياء » للشاعر اللاتينى العظيم لوكريس يتبينون أن سقراط وأصحابه لم يقهروا الأدب الأسود إلا وقتاً قصيرا ، وأن هذا الأدب الأسود لم يلبث أن استأنف فوزه وانتصاره وتسلطه فى أشكال مختلفة متباينة على عقول الخاصة والعامة جميعاً . وواضح جداً أنى هنا لا أستقصى ولا أتعمق ، وإنما أكتفى بالإشارة والإجمال عن التلميح والتفصيل .

وقد يكون من الخير أن أتجاوز اليونانيين والرومانيين وأدبيهما العظيمين ، إلى أدب شرقى ما أظن أنه قد كان أقل منهما تصويراً لهذا الموقف الخطير ، موقف الإنسان العاقل من هذه المشكلة المعقدة ، مشكلة الصلة بينه وبين القضاء — وهو الأدب اليهودى . ويكفى أن يستمتع القارئ بالنظر فى سفر أيوب ليرى كيف ألقيت المسألة ، وكيف عرضت المشكلة ، وكيف ثار حولها الشك ، وكيف اقترحت لها الحلول ، وكيف انتهى أمرها بالإذعان لقضاء الله الذى لا يستطيع الإنسان أن ينفذ إلى أسراره ، ولا أن يتعمق حكمته البالغة

وليس أدبنا العربى بأقل من هذه الآداب القديمة حظاً من الوقوف عند هذه

المشكلة والتأثر بها فيما أنتج الأدباء من الشعر والنثر ، وفيما أنتج الفلاسفة من الكتب والفصول . وكما ن الاضطراب الذى تعرضت له الأمة اليونانية فى القرن الخامس قد أنتج فيها الأدب الأسود الأول ، وكما أن الاضطراب الذى نشأ عن حروب الإسكندر وخلفائه وعن حروب الرومان قد أنتج الأدب الأسود الثانى عند أولئك وهؤلاء ، وكما أن المحن التى صُبّت على بنى إسرائيل قد أنتجت لهم الأدب الأسود فى عصرهم القديم ، فكذلك الاضطرابات التى تعرضت لها الأمة العربية بعد الفتوح بحكم الفتن والثورات قد أنتجت لها أدبها الأسود منذ القرن الأول للهجرة ، وظلت تنتجه لها إلى أن مات أبو العلاء[1].

فشعر الشيعة المضطهدين ، وشعر الخوارج الثائرين ، لا يروق لأنه يظهر الحياة جميلة خلابة ، ولا يعجب لأنه يظهر لنا محاسن هذا العالم ، وإنما يؤثر فى النفس لأنه يبين لنا أن هذه الحياة بعيدة كل البعد عن أن ترضى أو تسر ، قريبة كل القرب من أن تسخط وتسوء ؛ لأن الظلم عليها غالب والفساد فيها شائع ، ولأنها قد فقدت شيئاً خطيراً لاتطيب الحياة إلاّ به ولا تستقيم إلاّ عليه ، وهو العدل الذى يعطى كل ذى حق حقه ، ويسوى بين الناس فى مواجهة الحياة واحتمال خطوبها ، والاستمتاع بما فيها من نعيم ولذة ، والشقاء بما فيها من بؤس وألم . فالشيعة يطلبون العدل الذى يرد السلطان إلى مستحقيه من أهل البيت ، والذى يمكن الأئمة أن يملأوا الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً . وشعر الشيعة فى ذلك الوقت إنما يكتسب سواده وإظلامه من تصوير هذا الظلم الذى صُبّ على المختارين من أهل البيت ، فحرمهم الاستمتاع بحقهم ، وحرم الناس ما كانوا وحدهم قادرين على أن يشيعوه بينهم من العدل ، وعلى أن يسوسوهم سياسة تحملهم على الجادة ، وتسلك بهم السبيل الواضحة إلى نعيم الدنيا والآخرة جميعاً .

وشعر الخوارج بل أدب الخوارج كله ، لايعجب ولا يروق إلاّ لأنه يصور ماينقص حياة الناس من إقرار العدل فى الأرض ، وتحقيق المساواة بين المسلمين . وهم حين يتغنون بلاءهم فى الحرب ، وجهادهم لأصحاب السلطان ، وسفكهم لدماء المصانعين للحكام ، وبيعهم أنفسهم لله يجاهدون فى سبيله فيقتلون و يقْتلون ،

---

(١) وأنا أحب دائماً أن أختم العصر الذهبى للأدب العربى فى الشرق بموت أبى العلاء . قد أكون مخطئاً فى ذلك أو مصيبا ، ولكنه موقف دفعت إليه ، ولعلى أن أبين ذات يوم مذهبى فيه .

لايصورون حياة ناصعة رائعة ، ولا عيشاً ناعماً سعيداً . والذين يؤثرون منهم القعود ، ويحاولون الاعتذار عن أنفسهم من إيثار العافية ، لايحبون الحياة لأنها خير فى نفسها ، ولا لأنها تتيح لهم نعيما يستحق أن يحرصوا عليه ، وإنما يؤثرون الحياة لأنهم يرونها وسيلة إلى دفع شر لايدفعه الموت ، وإلى تحقيق قليل من الخير قد لايعينهم الموت على تحقيقه . فهذا القاعد يؤثر الحياة بأن له بنات عاجزات يخاف عليهن البؤس والشقاء ، ويريد أن يعصمهن من الذل والابتذال . وهذا القاعد الآخر يؤثر الحياة لأنه يمتحن بها نفسه ويعوّدها احتمال المكروه ، والصبر على الفتنة ، والنفاذ من الخطوب . وهو يراها عبئاً ثقيلاً يتقرب إلى الله باحتماله ، ويتنقل بهذا العبء بين أحياء العرب فى البادية ، وبين مدنهم فى الحاضرة ، لعله أن يذيع فيهم كلمة الحق ، ولعله أن يحمل بعضهم على الخروج . فالحياة الواقعة بغيضة إلى الشيعة لأنها قائمة على الظلم. والحياة الواقعة بغيضة إلى الخوارج لأنها قائمة على الظلم أيضاً . وأولئك وهؤلاء ، وغير أولئك وهؤلاء ، يفكرون ويقدّرون ، ويلتمسون للظلم علله ، لعلهم يستطيعون أن يزيلوها فيتاح لهم إزالة الظلم . ويلتمسون إلى العدل سبله لعلهم يستطيعون أن يسلكوها فيتاح لهم تحقيق العدل . وهم حين يفكرون ويقدّرون يُلقون على أنفسهم هذه المسألة الخالدة : ما موقف الإنسان من القضاء والقدر ؟ أحرٌّ هو فمن حقه ومن الحق عليه أن يحتمل التبعات ، ويخوض إلى الحق والخير والعدل غمرات النضال والجهاد والموت ؟ أمجبر هو فينبغى له أن يستسلم وأن يذعن ، وأن يستقبل الحياة لا راضياً عنها ولا ساخطاً عليها ؛ لأنها لا تستحق رضا ولا سخطاً ، ولأن الرضا والسخط لا قيمة لهما إذا لم يصدرا عن إرادة حرة تستطيع أن تختار وأن تغير من شؤون الحياة مالا تحب ؟

وكذلك أُلقيت هذه المسألة على العقل الإسلامى ، وشقى بها الناس قبل أن يتجاوز القرن الأول للهجرة ثلثيه .

فأما مسألة العدل ، فقد أُلقيت على العقل الإسلامى فى أيام النبى نفسه . وكان الإسلام هو الذى ألقى هذه المسألة حين دعا إلى إنصاف الضعيف من القوى ، وإلى تحقيق المساواة بين المسلمين لاينبغى أن يتفاضلوا إلاّ بالتقوى . وقد عرض القرآن وعرضت سيرة النبى على المسلمين صورة رائعة للعدل حببته إلى نفوسهم ، وزينته فى قلوبهم ، ودفعت فريقاً منهم إلى الغلو فى طلبه ،

وإلى التشدد فى تحقيقه ؛ فوجد بينهم من أغضب النبى نفسه حين ألح عليه فى تحقيق العدل ، حتى قال له النبى : ويحك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ! ووجد بينهم من خاصم الخلفاء وأنكر سيرتهم وأذاقهم معارضة مؤذية ، ولقى منهم مقاومة مؤذية . فسعد بن عبادة ينفى نفسه من وطنه ويموت غريباً ؛ لأنه يرى أن الجماعة لم تعدل حين جعلت الخلافة إلى المهاجرين . وأبو ذر يُضطر إلى أن يعيش وقتاً من حياته غريباً ، وإلى أن يموت غريباً ؛ لأنه ينكر سيرة عثمان وعمّاله فى أموال المسلمين .

وكذلك عرف المسلمون منذ القرن الأول للهجرة المشكلتين الخطيرتين اللتين شقى بهما الإنسان دائماً : مشكلة العدل الاجتماعى من جهة ، ومشكلة الصلة بين الإنسان وبين القضاء والقدر من جهة أخرى . وظهر أثر هاتين المشكلتين فى مقدار عظيم من الأدب الإسلامى ، حتى أصبح من الممكن أن نقول إن المسلمين قد عرفوا هذا الأدب الأسود قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة .

على أن هناك أدباً أسود آخر يستحق شيئاً غير قليل من العناية ؛ لأن مؤرخى الآداب العربية لم ينظروا إليه إلاّ هذه النظرة اليسيرة السريعة التى لا تحقق شيئاً ولا تتعمق شيئاً . فهذه الأزمة العنيفة التى ثارت بين الشعراء التقليديين فى العراق ، والتى أنتجت لنا هذا الهجاء الرائع المروّع بين الفحول الثلاثة ومن شايعهم من الشعراء . ما مصدرها ؟ وما غايتها ؟ وما طبيعتها ؟ أكانت لهواً سخيفاً يرجع كما يقول المؤرخون إلى هذه الخصومات السخيفة بين حيين من أحياء تميم ؟ أمن الحق أن الهجاء قد ثار بين الفرزدق وجرير لهذا السبب اليسير البسيط الذى يذكره المؤرخون ؟ أمن الطبيعى أن تثار خصومة غير ذات خطر بين حيين من أحياء العرب فى البادية فتنشأ عنها هذه الأزمة الهجائية التى انتشرت فى بادية العراق وأمصاره ، كما تنتشر النار فى الحطب الجزل ، والتى فرضت نفسها على جميع البيئات العربية فى جميع أقطار الدولة ، ثم فرضت نفسها ، وما زالت تفرض نفسها ، على الأدب العربى كله إلى اليوم وإلى آخر الدهر ؟

ألا يمكن أن يكون هذا الهجاء ظاهرة لما كان فى الحياة العربية فى ذلك الوقت من اضطراب خطير مصدره الانتقال من حياة جاهلية ساذجة إلى حياة إسلامية معقدة ، ومصدره أيضاً كل هذه المشكلات التى واجهها العرب حين أديل لهم من الفرس والروم ، وفتحت عليهم أقطار الدنيا ، وأتيح لهم سلطان

لم يكونوا يحلمون به ، وثراء لم يكونوا يستطيعون أن يحققوه فى أنفسهم ، ثم نظروا فإذا هذا السلطان تحتكره قلة ضئيلة من دون سائر العرب على ما كان لبعض قبائلها وأحيائها من سابقة فى الشرف والمجد ؛ ونظروا فإذا هذا الثراء الضخم يتاح لفريق دون فريق ، وإذا جماعة منهم ينعمون حتى يبطرهم النعيم ، وإذا جماعات أخرى منهم تحرم حتى يضطرها الحرمان إلى البؤس والاستجداء ، وإذا الحفيظة تملأ الصدور ، وإذا الغيظ يستأثر بالنفوس ، وإذا الحسد يفسد الصلات ، وإذا التنافس يجعل بعض الأصدقاء لبعضهم عدوًّا ، وإذا الحياة مظلمة يسبغ الحرمان عليها سواداً حالكاً بالقياس إلى بعض الناس ، ويسبغ الخوف عليها ظلمة قاتمة بالقياس إلى بعضهم الآخر ، وإذا بعض الناس يتتبع مثالب بعض ويحصى عليهم السيئات ، وإذا بعضهم الآخر يكيل لهم صاعاً بصاع ، وإذا الشرّ يشيع بين هذه الأحياء العربية ؛ لأن الله أخرجهم بالإسلام من الظلمات إلى النور ، ولكن الزمن لم يكد يتقدم حتى غشيتهم ظلمات جديدة من الفتن وما استتبعت من ظلم وعسف ، ومن تنافس حول أعراض الحياة ؟

وليس من الضرورى أن يكون الشعراء والذين كانوا يستمعون لهم حين ينشدون ، محققين لهذه المعانى كلها فى أنفسهم تحقيق الشاعر بها المسجل لها ، وإنما يكفى أن تكون هذه الحقائق واقعة فى نفسها مؤثرة فى نفوس الناس لتؤثر فى نظرتهم إلى أنفسهم أولاً ، وفى نظرتهم إلى الناس ثانياً ، وفى نظرتهم إلى الحياة كلها آخر الأمر . ولأمر ما يحرص العرب على أن يستقصى بعضهم مثالب بعض ، وعلى أن يحصى بعضهم على بعض السيئات ، وعلى أن يذكروا القديم ليحيوا منه ما يسوء الخصم ويسر الصديق ، فى نفس الوقت الذى بلغ فيه التنافس فى السياسة والسلطان وفى المال والثراء أقصى غاياته وأبعد آماده .

والشىء المحقق هو أن الفرزدق حين يهجو جريراً بهذه الخصلة أو تلك من الخصال البغيضة ، لا يريد شخص جرير وحده ، وإنما ينصب جريراً مثلا لقومه أولاً ، ولجميع الذين يتصفون بهذه الخصلة من الناس بعد ذلك . فهو لا ينحو نحو الفرد ، وإنما ينحو نحو الجماعة ونحو الجماعة فى أوسع حدودها . وتستطيع أن تقول مثل ذلك فى جرير حين يهجو الفرزدق ، وفى غير هذين الشاعرين من الهجائين فى ذلك الوقت . فهجاؤهم نوع من النقد العام ، ومن الاستقصاء لما كان فى الأخلاق من نقص ، ولما كان فى النظام الاجتماعى من عيب . وليس أدل على

ذلك من أن هذا الهجاء قد وجد صداه فى النفوس العربية كلها ، فتهالك العرب على روايته وحفظه واختصموا فى تقديره وفى تفضيل بعض الهجائين على بعض. وعنيت السياسة العليا للدولة بهذا الهجاء ، فآثر بعض الخلفاء وعمّالهم جريرا، وآثر بعضهم الفرزدق . واستطاع عبد الملك أن يؤثر جريراً على الفرزدق ، وأن يؤثر الأخطل على جرير . وليس لهذا كله معنى إلاّ أن تكون هناك صلة بين هذا الهجاء وبين حقائق السياسة التى كانت تدير فى قصور الخلفاء والأمراء .

فهذه العيوب التى يحصيها بعض الهجائين على بعض عيوبٌ اجتماعية لا فردية فى أكثر الأحيان . وهذه القصائد التى تفيض بهذا الهجاء ليست إلا صوراً قاتمة لحياة العرب فى العراق كما كان يراها الهجاءون . من هذه الصور ما يسوء ويملأ القلوب حزناً ، ومن هذه الصور ما يثير السخرية ويدفع إلى الضحك العريض . وقد رايت فى أول هذا الحديث أن الأدب الأسود ليس كله حزناً ، وأن من الملاهى المضحكة ما هو أشدُّ سواداً من المأساة . فالهجاء إذن فى ذلك العصر قد كان فنًّا من فنون الأدب الأسود ابتكره العرب الإسلاميون ابتكاراً قبل أن ينتصف القرن الأول . ولم يكن هؤلاء الهجاءون من الشيعة ، ولا من الخوارج ، وإنما كانوا من الجماعة المحافظة . وإذن فقد كان الأدب الأسود غالباً على حياة العرب أيام بنى أمية ، على عكس ما يقدّر الذين يؤرخون الآداب العربية .

وما أريد أن أتجاوز العراق إلى الحجاز ، ولا أن أسأل عن لون الأدب الحجازى فى ذلك الوقت ؛ فقد بينت فى غير هذا الحديث أنه لم يكن صافياً ولا ناصعاً ، وأن غزل الغَزِلين ولهو اللاهين إنما كان نوعاً من التسلى عن الهم ، والتعزى عن الخطوب ، والاستعانة بالحب الواقعى أو العذرى على نسيان ما كان أهل الحجاز يشقَوْن به من فراغ فى الطبقة الغنية وحرمان فى طبقة الفقراء . ومعنى ذلك أن أدب الحجاز لم يكن أقل سواداً من ادب العراق .

ولم يكد القرن الثانى يتقدم حتى انتهت هذه الاضطرابات إلى غايتها ، فكانت الثورة ، وأُديل لبنى العباس من بنى أمية ، وأُديل للفرس من العرب . فهل محّى هذا كله على آثار الأدب الأسود وأنشأ مكانه أدباً أبيض ناصعاً جميلا ؟ مسألة فيها نظر ، وأحسبها تنتهى بنا إلى شك مريب ؛ فقد نشأ جيل جديد من الشعراء

والكتّاب ، استقبلوا فنوناً جديدة من الشعر والنثر . ولكن أكانت نفوس هؤلاء الأدباء مشرقة ؟ أكانت آثارهم صوراً لهذه النفوس المشرقة ؟ لقد لها أهل العراق فى القرن الثانى كما لها أهل الحجاز فى القرن الأول . وأكاد أعتقد أن لهو أهل العراق لم يكن أقل سواداً من لهو أهل الحجاز ؛ فقد خيبت الثورة آمال كثير من المثقفين الذين كانوا ينتظرون منها خيراً كثيراً . ومن أجل ذلك وجدت الدولة العباسية الجديدة مقاومة من أنصارها بعد أن ظفرت بخصومها، مقاومة بالسيف أحياناً وباللسان دائماً . فالمنصور يقتل أبا مسلم ، ويمكر بعلى ابن عبد الله حتى يقتله . والشيعة العلويون يعارضون الدولة الجديدة بسيوفهم وألسنتهم كما كانوا يعارضون الدولة القديمة . والخوارج ماضون فى ثورتهم يظهرون ليستخفوا ويستخفون ليظهروا . والمطالبة بالعدل ما زالت قائمة ، والنظر فى المشكلات الفلسفية يزداد قوة وتعمقاً وانتشاراً . وبشار يهجو المنصور والمهدى . وابن المقفع يترجم الكتب فى التخويف من السلطان ، وينتهى أمره إلى موت شنيع . والزندقة تشيع فى أمصار العراق ، والدولة تنصب لهذه الزندقة وأصحابها حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، وكثير من المثقفين الممتازين يقدّمون وُقوداً لهذه الحرب . وأظن أن شيئاً من هذا كله ليس من شأنه أن يدعو إلى إشراق النفوس ولا إلى إنتاج الأدب المشرق . ونظرة سريعة إلى الأدب الذى كان ينشأ فى ذلك الوقت تظهرنا على أنه لم يكن فى جملته صفواً ولا عفواً ولا رائقاً ؛ لأن حياة الأدباء لم تكن صافية ولا رائقة ؛ فقد قُتل بشار وقُتل ابن المقفع وقتل غيرهما وسُجن آخرون . فإذا رأيت ابن المقفع يخوِّف من السلطان ، وإذا رأيت بشاراً يهجو السلطان ، ويسخر من الرعية ، وينكر الدين ، أو يفضل النار على الطين والشيطان على الإنسان ، وإذا رأيت أبا العتاهية يزهِّد فى الحياة ويبغِّضها إلى الناس ، وإذا رأيت أصحاب المجون يسرفون على أنفسهم ويسخرون من كل شىء فى غير تحفظ ولا احتياط — إذا رأيت هذا كله فسل نفسك : أكانت الحياة رائقة تنتج أدباً رائقاً ، أم كانت قاتمة تنتج أدباً قاتماً شديد الإظلام ؟

وما ينبغى أن تخدعنا ظواهر الأمور عن حقائقها ؛ فنحن نرى فى الشعر مدحاً للخلفاء والوزراء وقادة الدولة وسادتها ، فنستنبط من هذا المدح ، كما تعود مؤرخو الآداب أن يستنبطوا ، أن الأدباء كانوا راضين عن الخلفاء والوزراء ،

وعن القادة والسادة ، وأنهم كانوا يهدون إليهم المدح مخلصين . ونحن نقرر فى الوقت نفسه أن المدح كان يشترى بالمـال ، وأن الشعراء كانوا يتنافسون فى إرضاء القادرين على منح الجوائز الضخمة . ثم نحن لا نلائم بين هاتين الحقيقتين الواقعتين، أو لا ننتهى من هذه الملاءمة إلى غايتها ، فنقرر حقيقة واقعة ثالثة وهى أن كثرة هذا المدح لم تكن إلا رياء ووسيلة إلى كسب الحياة ، وإلى كسب ما يحتاج إليه الأحياء من ألوان الترف والنعيم . وليس أدل على ذلك ، إن احتاج ذلك إلى دليل، من أن بشاراً كان يمدح الخلفاء والسادة ليأخذ جوائزهم ، وكان يهجوهم إذا خلا إلى نفسه وإلى شياطينه .

ونحن نرى فى شعر الشعراء فى ذلك العصر لهواً وعبثاً ومجوناً ، فنستنبط من هذا كله متعجلين أن الحياة كانت رائقـة شائقة وجميـلة خلابة ، وننسى أن الإسراف فى العبث والغلو فى المجون والإغراق فى اللذات ، كل ذلك لا يدل إلا على اختلال الموازين وفساد القيم ، وانحراف الناس عن الجادة ، وحاجتهم إلى أن ينسوا أنفسهم ويتسـلوا عن همهم . وأقل ما يمكن أن تدل عليـه موجة الاستهتار التى اكتسحت بيئات الأدباء فى البصرة والـكوفة وبغداد ، هو أن هؤلاء الأدباء كانوا قد انتهوا إلى لون من ازدراء التقاليد والاستخفاف بالسنن الموروثة والاكتفاء أو الاستعانة بانتهاز الفرص على احتمال الحياة .

ونحن إذا استقصينا الشعر الذى كان يقال فى ذلك العصر رأيناه ينحل إلى مدح يصوِّر الرياء فى جملته ، وإلى هجاء يصور ما فى الحياة من خلال تستحق المقت ، وإلى مجون يصور الحاجة إلى الهرب من هذه الحياة والتخفف من أثقالها ، ثم إلى زهد يصور النظر إلى الحياة على أنها جِدٌّ ولـكنه جد يشيع اليأس فى النفوس ، ويدفع العاقل إلى أن ينسى حاضره ويتسلى عن يومه ليفـكر فى غده ، وليستعد لما يهيأ له بعد الموت .

ومع هذا كله فقد أخذ العقل الإسلامى يظهر عناية شديدة بالمشكلة الفلسفية الـكبرى ، مشكلة الاختيار والجبر ، وما تستتبع من مشكلة الأمل واليأس ؛ كما أخذ العقل الإنسانى يتعمق النظر فى شؤون الحياة اليومية على اختلاف فروعها ، فينكر أكثرها ، ولا يكاد يعرف منها إلا القليل . ونـكاد نحس منذ هذا العصر أن التشاؤم قد أخذ يتصور مذهباً مستقلا له عماده الفلسفى ، وله فى الوقت نفسه وسائله الأدبية . فلم يكن بشار متفائلا ، بل لم يكن بشار من التفاؤل فى شىء ،

وإنما كان ساخطاً متشائماً ، يقيم سخطه وتشاؤمه على إخفاقه فى إرضاء عقله حين التمس إرضاء هذا العقل فى مذاهب الفلاسفة والمتكلمين ، فلما لم يظفر بشئ صار إلى هذا الشك البغيض .

وكل ما فى الأمر أن التشاؤم يكون باسماً أحياناً ، وعابساً أحياناً أخرى ، وقد يتحول ابتسامه إلى ضحك شيطانى عريض ، وقد يتحول عبوسه إلى يأس من كل شىء وقنوط حتى من رَوْح الله ، يختلف هذا كله باختلاف المزاج والطبع والبيئة . وقد كان تشاؤم بشار هادئاً باسماً أحياناً ، وشيطانيًّا مقهقهاً فى أكثر الأحيان. وليس لهو بشار وتصويره لهذا اللهو فيما روى لنا من شعره إلا مظهراً لهذا التشاؤم . وأحسب أن العابثين من أصحاب بشار كانوا يذهبون مذهبه حين يحسون الإخفاق فى إرضاء العقل ، وينتهون إلى الشك فيستهزئون بكل شىء ، ويسخرون من كل شىء ، وينتهزون فرص الحياة . وما أرى إلا أن حماداً ، ومطيعاً ، ووالبة وأمثالهم من أصحاب الخلاعة والمجون ، قد تعرضوا لنفس الأزمة الفلسفية التى تعرّض لها بشار ، وخرجوا منها على نفس النحو الذى نحاه بشار حين خرج من أزمته . ومن شباب هذا العصر من تعرّض لمثل ما تعرض له بشار ، ولكنه لم يخرج من أزمته إلى اللهو والمجون والشك ، وإنما خرج منها إلى الجد ، فعنى بفنون من الحياة يستطيع العقل أن ينتج فيها دون أن يتعرض لمحنة ، أو يواجه هذه المشكلات التى لا حل لها . والمؤرخون يحدثوننا عن فقهاء وزهاد عاصروا بشاراً وأصحابه ، وسلكوا معهم طريقهم الفلسفية ، وكادوا يتعرضون لليأس ، فشغلوا أنفسهم بالفقه والزهد والنسك عن مواطن الزلل هذه .

ثم يتقدم القرن الثالث وإذا أمور المسلمين تزداد تعقداً ، ويشتد فيها الحرج ، وينتشر فيها الاضطراب . ثقافة ممتازة تتغلغل إلى بعض طبقات الشعب ، وثراء ضخم يزداد انحصاره فى أيدى قلة ضئيلة مستأثرة بالحكم ، وضعف للسلطان السياسى ، وتعمق لمشكلات الفلسفة ، وشعور واسع عميق بهذا التفاوت المنكر بين الطبقات ، ثم تبرم بهذا التفاوت ، ثم إنكار له ، ثم ثورة عليه ، وإذا ثورة الزنج توشك أن تثلّ عرش الخلافة ، وأصحاب الأقاليم ينتهزون هذا الضعف فيستقلون بأقاليمهم ، والأدباء يرون هذا كله ويفكرون فيه ويتأثرون به ، ومنهم من شارك فى بعضه ، وإذا هم يصورون هذا فيما يقولون

من شعر وما يكتبون من نثر . وقد يكون ابن الرومى مضطرب الأعصاب ، فاسد المزاج ، قد خُلق مهيأ للتشاؤم ، ولكن الشىء الذى ليس فيه شك هو أن الحياة من حوله لم تكن تصده عن التشاؤم وتغريه بالتفاؤل ، وآية ذلك أنه أنفق حياته متشائماً ، وأن حياته هذه المظلمة قد انتهت به إلى أن يموت مسموماً . وقد يكون ابن المعتز قوى الأعصاب ، معتدل المزاج ، قد خلق مهيأ للتفاؤل ، وحاول أن يتفاءل ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه أنه لم يجد فى الحياة من حوله ما يغريه بالتفاؤل العميق ، وإنما وجد مايسليه عن هموم الحياة وأحزانها ، فتسلى بالشعر والعلم والأدب وشىء من الترف . ثم بدا له ذات يوم أن يواجه الحياة كما تعود بنو أبيه أن يواجهوها ؛ فلم يكد يفعل حتى أدركته حرفة الأدب وقُتل قبل أن تتم له البيعة بالخلافة .

ولا يكاد القرن الرابع يُظل العالم الاسلامى الشرقى ، حتى يكون الكتاب قد بلغ أجله ، وحتى تصبح حياة المسلمين فى الشرق شراً كلها ، لا يتفاءل فيها إلا خفاف العقول ، أو الذين انتهى بهم الشك الفلسفى إلى أقصاه . فأما الذين لهم حظ من عقل راجح وبصيرة نافذة فمتشائمون ؛ لأن كل شىء يضطرهم إلى أن يتشاءموا . لم تكد ثورة الزنج تخمد حتى ثارت فى أعقابها ثورة القرامطة ، وإذا اللهب ينتشر فى الشرق العربى كله . وفى الوقت نفسه تنشأ دولة الشيعة فى شمال إفريقية ، ويكاد الشرق الأعجمى ينفصل عن الخلافة انفصالا . وما ينبغى أن نطيل فيما لا يحتاج إلى الإطالة . فقد كان كل شىء فى ذلك العصر يمهد لنشأة الشاعر المتشائم العظيم أبى الطيب المتنبى الذى لم يتشاءم بعقله ولسانه فحسب ، وإنما همّ أن يتشاءم بسيفه فلم يفلح ، وهو على كل حال مؤسس التشاؤم الفلسفى المنظم فى الشعر العربى . أسسه قبل أن يبلغ العشرين ، وأتم بناءه قبل أن يدركه الموت . نظر إلى الحياة اليومية فضاق بما كان يملؤها من فساد ، وضاق بالنظام السياسى والاجتماعى الذى كان يعرّض الناس لهذا الفساد ، ثم احتقر الناس لأنهم قبلوا هذا النظام أو أذعنوا له ، ثم سمت همته المتشائمة إلى ما هو فوق الناس وفوق نُظهمم السياسية والاجتماعية ، وإذا هو يسأل عن الموت ، ويسأل عن الحياة ، ويسأل عن الحرية ، ويسأل عن الجبر ، وإذا هو ينكر الحياة إنكاراً ويراها شراً قد أكره الإنسان عليه إكراهاً .

فلم يكن أبو العلاء إذن تلميذاً للمتنبى فى فنه الشعرى وحده ، وإنما كان

تلميذاً له فى تشاؤمه الفلسفى قبل كل شئ . وقد بينت فى غير هذا الحديث أن أكثر أصول الفلسفة العلائية المظلمة قد سبق إليه المتنبى ، فألمّ به إلمامات قصيرة دون أن يحاول تفصيله أو تنفيذه . وجاء أبو العلاء بعد موت المتنبى بعشر ، سنين فلم يكد يفقه الشعر حتى قرأ المتنبى وتأثر به ، وجعل يلقى على نفسه الأسئلة التى كان يلقيها المتنبى على نفسه . وقد أحاطت بأبى العلاء ظروفه المعروفة ، فقاوم التشاؤم ما وجد إلى مقاومته سبيلا ، ولكنه لم يبلغ الثلاثين حتى خطا الخطوات العقلية والعملية التى لم يتح للمتنبى أن يخطوها ، وإذا هو يتخذ من التشاؤم عقيدة وسيرة فى وقت واحد ، وإذا هو يذهب فى تشاؤمه نفس المذهب الذى يذهبه كفكا المتشائم الأوربى الحديث فيما كتب بين الحربين العالميتين ؛ فيرى أن نفسه سجينة فى جسمه ، وأن جسمه سجين فى الأرض ، أو قل فى العالم . فأبو العلاء يحدثنا بأن الإنسان لا يستطيع أن يأبق من ملك الله ، فيخرج من أرضه وسمائه . فنفسه سجينة فى جسمه إذن ، وجسمه سجين فى هذا العالم المحدود مهما تتسع أرجاؤه وتبعد آفاقه . فما يمنع أن يجعل هذا السجن الفلسفى حقيقة عملية واقعة ، وأن يلزم نفسه سجناً ضيقاً لا يعدوه ، وأن يعيش فى هذا السجن هذه العيشة الغليظة التى يضطر إليها السجناء .

هذا الشعور العلائى هو الذى وجده كفكا وصوره فى كثير من آثاره تصويراً مشابهاً أشد المشابهة لتصوير أبى العلاء فى اللزوميات ، وفى الفصول والغايات ، ولكنه لم يلزم نفسه داراً ضيقة محدودة كما فعل أبو العلاء .

فأنت ترى من هذا كله أن التشاؤم الفلسفى فى الأدب بعيد كل البعد عن أن يكون ظاهرة موقوتة بعصر من العصور ، أو مقصورة على جيل من الأجيال ، أو محصورة فى أمة من الأمم . وأنت ترى أيضاً أن ما يسميه الأوربيون الآن أدباً أسود ليس له من الجِدّة والطرافة هذا الحظ الذى يتصوره بعض الكتاب الغربيين ؛ فقد تشاءم اليونان ، وتشاءم الرومان ، وتشاءم اليهود ، وتشاءم العرب . ولست أشك فى أنك لا تكاد تدرس أدباً من الآداب على اختلافها وعلى اختلاف العصور والبيئات والأجيال إلاّ رأيت فيه ظلاً من التشاؤم قويًّا أو ضعيفاً ، ممدوداً أو مقبوضا ، يختلف هذا كله باختلاف ما لأصحاب هذا الأدب من تعمق للثقافة ، ومحاولة لحل المشكلات الفلسفية الخالدة . ومصدر هذا فيما يظهر أن الفطرة الإنسانية مركبة من عناصر مختلفة يمتاز منها عنصران

متناقضان : أحدهما طموح لا حدّ له يدفعه إلى أمام ، والآخر قصور لا حد له يردّه إلى وراء أو يقفه فى مكان لا يعدوه ؛ فهو دائماً موضوع للنزاع بين هذين العنصرين . فإن كان غافلا أو محدود الثقافة قبل الحياة كما هى ، فاندفع حين تدفعه الظروف ، ورجع أدراجه حين تضطره إلى الرجوع ، ووقف مكانه حين تكرهه على الوقوف . وإن كان ذكىّ القلب ، نافذ البصيرة ، دقيق الحس ، بحث واستقصى ، وساءل عن مكانه من هذين العنصرين اللذين يتجاذبانه ، وساءل كذلك عن حريته أو عن حظه من الحرية التى تتيح له إن أراد أن يستجيب للعنصر الذى يقوده إلى أمام ، أو أن يستسلم للعنصر الذى يردّه إلى وراء ، أو أن يثور على العنصرين جميعاً فيمضى كيف يشاء وحيث يشاء . ولا يكاد يسأل عن هذا الحظ من الحرية حتى يدركه التشاؤم ؛ لأنه يرى أن هذه الحرية محدودة بحدود لا سبيل إلى تجاوزها ، منها ما يأتى من الطبيعة ، ومنها ما يأتى من الجماعة . وهو قد يحاول الثورة على هذه الحدود أو تلك ، ولكنه يرَدّ آخر الأمر مخذولا مدحوراً .

وقد لاحظ أبو العلاء كما لاحظ المتشائمون من قبله ومن بعده أنه دفع إلى الوجود دون أن يُستأمر أو يستشار ، وأنه يدفع إلى الموت دون أن يستأمر أو يستشار أيضاً . فسأل نفسه وسأل غيره ، كما سأل المتشائمون من قبله ومن بعده : لماذا دفع إلى الحياة ؟ ولماذا يدفع إلى الموت ؟ وما الذى يراد منه بين الحياة والموت ؟ وما الذى يراد به بعد أن يموت ؟ وهو لم يتلق على هذه الأسئلة جواباً يرضى عقله ويشفى حاجته إلى الوضوح ، فوقف موقف الحائر الذى يضيق بكل شىء ، ويضيق بنفسه قبل كل شىء ؛ لأنه لا يفهم علة ولا غاية لشىء من الأشياء .

وقد أراد أبو العلاء أن يمتحن حريته ليعرف أحقٌّ هى أم باطل ، ففرض على نفسه ألواناً من الشدة المادية والفلسفية والفنية ، وخيل إلى نفسه أنه إن احتمل هذه الشدة وصبر لها كما ينبغى فقد يدل ذلك على أن له من الحرية حظًّا . ولكنه لم يكد ينفق أعواما فى احتمال هذه القيود التى فرض على نفسه وتمرن على احتمالها ، حتى شك فى حريته ، ثم استيأس منها ، ثم اعتقد أنه دفع إلى هذه القيود بنفس القوة القاهرة التى دفعته إلى الحياة ، والتى تدفعه إلى الموت . وقد يتاح لى ، وقد يتاح لغيرى من الدارسين لأبى العلاء ، أن نستقصى أصول فلسفته المتشائمة ، وأن نوازن بينها وبين فلسفة المتشائمين المحدَثين . وأكبر

الظن أننا سنصل إلى نفس النتيجة التى وصلنا إليها حين وازنّا بين الفلسفة العلائية المتشائمة ، وبين فلسفة المتشائمين القدماء ، وهى أن المحدثين لم يكادوا يزيدون على أصول الفلسفة العلائية شيئاً ، ولكنهم زادوها تفصيلاً وتوضيحا ، كما أن أبا العلاء لم يزد على فلسفة المتشائمين القدماء شيئاً وإنما وضّح منها الغامض ، وفصّل منها المجمل . أتيح له من الثقافة والتجربة ما لم يتح للذين سبقوه ، كما أتيح للمتشائمين المحدثين من الثقافة والتجربة مالم يتح لأبى العلاء .

فالمشكلات التى تدفع إلى التشاؤم واحدة على اختلاف العصور والأجيال والبيئات . ولكن الوسائل التى تتخذ لمواجهتها ومحاولة حلها ، هى التى تختلف باختلاف حظ العقل من الرقى ونفوذه إلى أسرار الطبيعة ودقائق الحياة . والغريب أن هذه المشكلات لم تزل قائمة لم تجد لها الإنسانية حلاً على اختلاف ما أتيح للإنسانية من رقى العقل ، وتقدم العلم ، واتساع المعرفة ، واختلاف وسائل البحث والاستقصاء .

ومن يدرى ! لعل من الخير ان تظل هذه المشكلات غامضة ملتوية لا سبيل إلى حلها . فأقل ما لهذا الغموض من المزايا أنه أنتج لنا هذه المحاولات الرائعة ، وأتاح لنا هذه الآداب الرفيعة التى نفزع إليها كلما ضقنا بالحياة أو ضاقت بنا الحياة ، ونفزع إليها كلما غرّتنا الأمانى وكادت الآمال تخدعنا عن أنفسنا ، وكاد رقى الحضارة يورطنا فى البطر والأشر . فنحن محتاجون إلى أن نسعى ، وإلى أن نتقدم مبطئين ومسرعين ، ولكننا فى الوقت نفسه محتاجون إلى عاصم يعصمنا من الغرور ، ويمسكنا أن نندفع فى إيماننا بأنفسنا إلى غير حد . ولست أدرى إلى أى تهور تندفع الإنسانية ، لو أنها وجدت لهذه المشكلات حلولاً نهائية مقنعة يطمئن إليها الناس جميعاً . أكبر الظن أن الإنسانية إن أتيحت لها هذه الحلول فستضطر إلى حياة راكدة خامدة ، لا طائل فيها ولا غناء . وما قيمة الحياة إذا خلت من الإشفاق والخوف ، ومواجهة المشكلات ومحاولة التخلص منها ، وإلقاء الأسئلة والتماس الأجوبة لها ! وأى غناء فى هذه الجماعات الحية الميتة التى وجدت لكل مشكلة حلاً ، ولكل سؤال جواباً ، واطمأنت إلى حظ من العلم التقليدى المغلق الذى يتعرض للنقص ولا يتعرض للزيادة ! والغريب أن التجارب تمر بالناس ، وأن العصور تختلف عليهم ، وأن الرقى يتاح لهم ، وأنهم يظفرون بالتقدم بين حين وحين ،

ولكنهم على ذلك كله يقفون من الفلسفة المتشائمة مواقف متشابهة على ما بين الأجيال والعصور من الاختلاف .

فقد ضاق القدماء بتشاؤم أبيقور ، واشتد نقدهم له ونعيهم عليه . وضاق المسلمون بتشاؤم أبى العلاء فأكفره منهم من أكفره ، وما يزال كثير منهم إلى الآن يرى تشاؤمه شرًّا ، ويخاف منه على نشاط الأفراد والجماعات . وقد تعرّض المتشائمون الأوربيون لمثل ما تعرض له أبيقور وأبو العلاء ، فضاق بهم من ضاق وأنكرهم من أنكر ، وخيف من تشاؤمهم على عقول الناس ، وعلى نشاط الأفراد والجماعات ، وعلى إيمان الشباب بالحياة وما ينبغى أن يملأ قلوبهم من الأمل والثقة بالنفس .

ولعل الذى حملنى على إملاء هذا الحديث الطويل إنما هو من جهة مظهرٌ من مظاهر الفلسفة الحديثة فى التشاؤم ، ومظهر من مظاهر المقاومة لهذه الفلسفة من جهة أخرى . فقد يخيل إلىّ أن أوربا لم تشهد قط موجة تشاؤم كهذه الموجة التى كانت تلاعبها وتداعبها بعد الحرب العالمية الأولى ، والتى طغت عليها طغياناً جارفاً فى هذه الأيام . وهذا التشاؤم الأوربى الحديث هو الذى أنتج ما يسميه الفرنسيون فى هذه الأيام بالأدب الأسود . والحق أن هذا الأدب مختلف أشد الاختلاف ، متنوع أشد التنوع ، كما كان أدب أبى العلاء مختلفاً متنوعاً . فقد عرض أبو العلاء علينا تشاؤمه شعراً ونثراً ، وعرضه علينا فلسفة ووعظاً ، وعرضه علينا نقداً للسياسة والاجتماع ، ونقداً للأخلاق والديانات ، وعرضه علينا واقعاً وخيالا . ومن يدرى ! لعله عرضه فى ضروب أخرى من الفن لم تصل إلينا ؛ لأنا لم نحفظ من أدب أبى العلاء إلا القليل .

والأدب الأوربى مختلف على هذا النحو ، تراه يعرض فلسفة يسلك فيها طرق الفلاسفة ، وتراه يعرض تمثيلا يشهده النظارة فى الملاعب ، وتراه يعرض قصصاً منها الواضح الجلى ، ومنها الغامض الرمزى ، ومنها ما يكون بين ذلك فيه كثير من الوضوح وفيه كثير من الغموض .

وقد أنفقت أكثر الوقت الذى قضيته فى باريس معاشراً لطائفة من هؤلاء الأدباء السود ، لم ألق منهم أحدا ، ولكنى قرأت لهم كثيرا ، ووجدت فى قراءتهم اللذة العليا أحياناً ، والضيق الشديد أحياناً أخرى ، والاشمئزاز الذى تنقبض له النفس فى كثير من الظروف . وقد تعودت والحمد لله بفضل أبى العلاء أن أعاشر

المتشائمين ، فلا أضيق بتشاؤمهم لأنه مظلم ، أو لأنه يسئ رأى الناس فى الحياة . ولكن عند الكتّاب الأوربيين والأمريكيين لونا من التشاؤم بغيضاً حقاً لا أدرى أيرفع الأدب أم يخفضه . وقد كدت أملى لا أدرى أيتصل بالأدب أم يبعد عنه أشد البعد . فمن التشاؤم الحديث ما يحاول عرض الحياة الإنسانية الواقعة كما هى ، يصورها فى أبشع صورها ، ويعرض منها لأشياء لم يكن الأدب يعرض لها من قبل إلاّ عند القدماء من اليونان والرومان والعرب . وقد كنا نظن أن الأدب العالمى الحديث قد استطاع أن ينقى نفسه من هذه الأوضار ويرتفع بها عن هذه النقائص ، وكنا نلتمس للقدماء العذر ، ونجد هذا العذر فى أنهم كانو قدماء لم يبلغوا من الحضارة ومن ترف العقل والشعور ما بلغه المحدثون . ولكن الأدباء المتشائمين فى هذا العصر يريدون أن يصوروا الواقع ، فلا يصدّهم عن تصوير هذا الواقع شئ ، ولا يجدون فى صدورهم حرجاً من أن يصوروا أشياء يريد الإنسان المتحضر عادة أن يخفيها على نفسه . ويكفى أن ينظر القارئ فى آثار چان پول سارتر الفرنسى ، وفى آثار ميلر الأمريكى ، ليبغض هذا النوع من الأدب الذى لا يعتمد على فن مترف ، ولا يتجه إلى ذوق مرهف ، وإنما هو أدب غليظ يصور حياة غليظة ، ويتجه إلى عقول لا تحفل بالذوق ، ولا بالفن ، ولا بالشعور .

وهناك أدب متشائم ولكنه رفيع ؛ لأنه لا ينحط إلى تصوير الطبيعة الغليظة ولا ينزل إلى تصوير الغرائز الجامحة ، وإنما يصور الواقع من حياة الناس فى غير مظاهرها البشعة ، كما يصورها غفلة الغافل ، وعقل العاقل ، وموقف هذا وذاك من المشكلات الفلسفية والسياسية والاجتماعية العليا . وأنت تجد هذا عند چان پول سارتر نفسه وإن كان يؤذيك ما تفجأ به بين حين وحين من هذا الأدب الغليظ الذى تَزْوَرّ عنه النفس وينبو عنه الذوق . وأنت تجد هذا عند البير كامو حين يعرض عليك تشاؤمه قصصاً وتمثيلا وفلسفة . وأنت تجد هذا عند كفكا حين يعرض عليك تشاؤمه فى قصصه الرمزى الغامض الرفيع ، وفى خواطره التى تملأ يومياته فلسفة وفنّا .

فهذا هو مظهر الاختلاف فى الأدب الأسود الحديث . فأما مظهر المقاومة لهذا الأدب الأسود فيشهده من يقرأ الصحف والمجلات الفرنسية . وربما كان من أطرف أشكاله هذا الحوار الذى اتصل بين الشيوعيين ، أو قل بين اليساريين

من جهة ، والمعتدلين من جهة أخرى ، حول آثار كفكا أتحرق أم لا تحرق .
وواضح جداً أن الإحراق هنا ليس إلا رمزاً . فالمسألة التي يختلف فيها الأدباء
الفرنسيون اليساريون والمعتدلون هي هذه : أتباح قراءة كفكا للشباب أم
تحظر عليهم .

فأما المعتدلون فيؤثرون الحرية على كل شيء ويثقون بقدرة الشباب على
مقاومة ما يشيع في آثار هذا الكاتب من اليأس الذي يثبط الهمم ، ويفل
العزائم ، ويميت القلوب ، وقد يدفع إلى الانتحار . وأما اليساريون فيرون أن
الحياة أمل كلها ، وأن تحقيق الآمال محتاج إلى الإيمان ، لا إلى الشك ، وإلى
الإقدام لا إلى الإحجام ، وإلى العزم الصادق والهم البعيد ؛ وهم من أجل ذلك
يشفقون على الشباب من هذا الأدب الأسود الذي يجعل الحياة كلها سواداً .

وواضح كذلك أن الكلمة الأخيرة ستكون للحرية دائماً ؛ فلم تفلح قوة
من القوى في محاربة الرأي ، ولم تستطع النار مهما تكن مضطرمة شديدة
الالتهاب أن تحرق كتاباً ، وهي قد تحرق ورقاً وحبراً ، ولكن الدخان الذي يثور
من هذا الحريق يضاعف الإغراء بالقراءة ، ويملأ القلوب فتوناً بهذه الكتب
التي حرقت ولكن لم تمس روحها النار . ولست أعرف إغراء بالأدب أقوى من
محاربته . ولست أعرف إحياء للرأي أقوى من اضطهاده . فلن يحرق كفكا ، ولن
تحرق آثار چان پول سارتر ، وإن كانت آثار هذين الكاتبين قد دفعت
بعض الشباب إلى الانتحار ، ودفعت بعضهم إلى اقتراف الجرائم . ولن يكون
القرن العشرين شراً من القرن الثامن عشر والتاسع عشر ؛ فالناس يعلمون أن
قصة ڤرتر قد دفعت غير واحد من الشباب إلى الموت ، ولكنها لم تحرق ، ولم
تحظر على القراء ، والشباب يقرءونها الآن أو يشهدونها في ملاعب التمثيل ، فلا
تلقى في نفوسهم يأساً ، ولا تحبب إليهم الموت ، وإنما ترسم على ثغورهم ابتسامات
لعلها لا تخلو من بعض السخرية .

وكذلك يُقاوَم الأدب الأسود الحديث كما كان يقاوم الأدب الأسود القديم .

ولكنك توافقني بعد هذا الحديث الذي طال حتى بلغ الإملال على أن
التشاؤم الأوربي الحديث كغيره من التشاؤم القديم ، قد أنشأته ظروف متشابهة
تخرج متشابهاً في أصوله وصوره ونتائجه وموقعه من نفوس الناس .

وإذا كان لهذا الحديث كله مغزى يحسن أن أقف عنده ، وأن أتمنى أن

يتنبه إليه الأدباء المحدثون ، والقراء المحدثون أيضاً ، فهو أن الأدب الحديث مهما يختلف ومهما تتباين صوره ، ليس إلا امتداداً واستمراراً للآداب القديمة ، وأن الرقى الأدبى الصحيح محتاج إلى ألا يقطع الأدباء والقراء صلتهم بالقديم . ذلك أحرى أن يعصمهم من الغرور ، ويحميهم من أن يظنوا بأنفسهم الإعجاز والابتكار ، على حين أنهم قد أضافوا الشيء الكثير إلى ما ترك القدماء ، ولكنهم لم يُعْجِزوا ولم يبتكروا ، وإنما جهلوا إنتاج من سبقهم فغلوا فى تقدير أنفسهم غلوًّا شديداً . ورحم الله أبا العلاء ؛ فقد كان شابًّا فى أكبر الظن حين قال :

وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانهُ   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

طه حسين

المصانعة

وسيلة جديدة للاستثمار الصناعى

فى العالم كله من الناحية الاقتصادية والاجتماعية غليان . وفى تلك البلاد التى اجتاحتها الحرب ، وأنزلت بمقوماتها الاقتصادية والخلقية أقسى ما أنزلت من التخريب والتدمير ، حركات إلى الخروج من المأزق خلال دعوة إلى جمعيات تأسيسية تصدر للجماعة دستورا جديدا ، لا من الناحية الساسية وحدها ، بل من الناحية الاجتماعية أيضاً ، واتجاهات جديدة تمليها الانتخابات الأخيرة التى جاءت فى مواعيدها ، أو على أثر الحرب بعد أن طال انتظارها . وبين تلك البلاد المتلمسة إنقاذا مما حل بها ، فرنسا وانجلترا . وقد اتجهتا — أولاهما خلال انتخاباتها الجديدة لجمعية تأسيسية تضع لها دستورا جديدا لجمهوريتها الرابعة ، والأخرى خلال مجلس العموم الذى تمخضت فيه الكثرة الاشتراكية عن فوز حزب العمال فى الانتخابات العامة الأخيرة — إلى فكرة التأميم ونفذتاها فى بنك الدولة وفى وسائل توليد القوات المحركة كالفحم فى انجلترا ومحطات الكهرباء فى فرنسا .

ولا شك أن إجماع المفكرين لما ينعقد على هذا التيار الجديد ؛ فلا يزال للقديم أنصاره ، ولا يزال للقابضين على السلطان الاقتصادى من القوة مالا يتنحون به عن هذا السلطان إلا بشق الأنفس . وقد كان الإشكال دائما فى الحياة الاقتصادية وما ينشأ فيها من «متناقضات» إنما هو فى الموقف الذى يقفه رأس المال من العمل ، والعمل من رأس المال . وقد وقف كل منهما دائما من الآخر موقف العداء على رغم ما يحاول بعضهم أن يدخله على العلاقات بينهما من روح التفاهم أحيانا ، أو روح التعاون أحيانا أخرى . وقد أخذ الكتّاب والمفكرون وأصدقاء رأس المال والعمل ، من هؤلاء وهؤلاء يبذلون هذه الأيام بجهود فى سبيل التنسيق والتوفيق .

وفى فرنسا الآن اتجاه إلى «صهر» ر س المال والعمل فى إدارة المنشآت ... وتعالج المجلات الاقتصادية والاجتماعية هذا الاتجاه للتوفيق بين التيارات المتضاربة . ويستند أصحاب هذا الاتجاه هناك إلى أن الحادث البين طوال القرن التاسع عشر والثلث الأول من هذا القرن العشرين ، إنما كان تميز عنصر رأس المال فى المنشآت ؛ فكان ممثلو رأس المال وحدهم هم الذين يشرفون على إدارة المنشأة ، وإليهم وحدهم يعهد بتنظيم هذه الإدارة دون استشارة حقيقية ومنتجة للعمل وأصحاب الأجور . ورأس المال ضرورة من ضرورات خلق المنشأة وسيرها ، ولـكن عناصر الأجور بنشاطها ومثابرة ذكائها وعملها تعاون بنسبة عالية فى إنجاح المشروع . ومن العدل المقرر فى السابق أن يعترف لأصحاب الأجور بنصيب من المزايا الأدبية والمادية التى تلحق بالمساهمة فى الإدارة والإنتاج .

ويتساءل العارضون لهذا الموضوع فى تلك المجلات الاقتصادية والاجتماعية الفرنسية : ما هى الفوائد التى تعود على المنشأة من مساهمة العاملين فى إدارة المنشآت ؟ فيجيبون بلا تردد أنها ستسمح بالإفادة من خبرة خير العاملين ومن توزيع المهمات على أرباب الـكفايات ؛ لأن كل طائفة من العمال — بالمعنى الواسع من أصحاب الأجور — قادرة أكثر من غيرها على إعطاء الآراء والنصائح المستمدة من طبائع العمل ذاته . وكذلك فإن إشراك العمال فى إدارة المنشاة سيخفف من وطأة الخصومة القائمة الآن بين رأس المال والعمل ، وإن وجودهم فى مجالس الإدارة وفى اللجان سيسمح بتربية رؤساء العمال تربية اقتصادية تنقصهم فى الوقت الحاضر . وكذلك فإن اتصال رأس المال بمختلف الطبقات اتصالا أليفاً يساعد على تربيته التربية الاجتماعية . فأصحاب رءوس الأموال لا يعترفون عادة بأسس المطالب الاجتماعية التى يقدمها الذين « يؤجرونهم » ، ولا يرون فيها إلا رغبة فى زيادة أجورهم ، فى الوقت الذى تعتبر إجابتهم لها تحقيقاً لرغبة متصلة بالعزة النفسية . وإلى هذا وذاك فإن هذا التفاعل فى المعرفة والاتصال يسمح بانتقاء العمال الأكفاء ، واختيار الصفوة منهم التى تتبين فى كل فئة من الفئات الاجتماعية . والصفوة هى الواسطة الخيرة بين التقريب والتفاهم .

ويذهب الـكتاب الاقتصاديون والاجتماعيون إلى الدعوة إلى تحقيق ذلك « الصهر » بين رأس المال والعمل عن طريق التعاون بينهما تعاونا صادقا .

ويقولون بتحقيق هـذا التعاون لا بمصادرة رأس المال ولا بإعادة توزيعه ، ولـكن بتعديل حقوق المساهمة والمشاركة : المساهمة فى الإدارة والمشاركة فى الأرباح . ويقولون مثلا إن نسبة مساهمة العمال فى إدارة المنشأة تكون على قدر النسبة بين رأس المال وأرقام الانتاج . ويضربون لذلك مثلا : فإذا كان رأس المال المستثمر قد بلغ المائة وأرقام الإنتاج قد بلغت ألفا ، فإن تمثيل رأس المال والعمل فى إدارة المنشأة يكون بالتعادل والنصف تماماً . وإذا بلغ رأس المال خمسة وعشرين وبلغ رقم الإنتاج ألفا ، فإن نسبة رأس المال فى الإدارة تكون بالربع ونسبة العمل فيها بثلاثة الأرباع . وإذا كان رأس المال قد بلغ الأربعمائة ورقم الإنتاج ألفا ، فإن رأس المال يمثل بثلاثة أخماس والعمل بخمسين اثنين .

أما فى المشاركة فى الأرباح ، فيذهبون إلى تنويع العمال إلى فئات ، منها ماينتج إنتاجامن الدرجة الأولى ، ومنها ما ينتج إنتاجا من الدرجات التالية ، ويوزعونهم على العمال والرؤساء والمديرين . ويحددون مشاركة أقل أنواع العمال بحصة واحدة فى الربح ، ويحددون مشاركة المدير بمئة حصة ، وتتراوح حصص سائر العمال والرؤسـاء بين الفئتين .

وينصح أولئك الـكتاب العارضون لهذه المعالجات الجديدة التى تمليها على النظام الاجتماعى الفرنسى هذه الأيام للسير بها سيراً وسطاً — أن تتدخل الحـكومة لتنفيذ تلك الإصلاحات بالطرق التشريعية ، وبالطرق الإدارية التى تطبق القواعـد على المنشآت التى تديرها الحـكومة وتراقبها . ويؤكدون فى بحوثهم ومقالاتهم أن « عالم العمال لا يمكن أن يظل أجنبياً عن إدارة النشاط الاقتصادى[1] » .

وفى مصر مشكلة اجتماعية . هذا واقع لا ريب فيه . فالفروق بين مستويات المعيشة شاسعة ، والإحساس بالحاجات عند رقيقى الحال باد ، والتذمر بينهم آخذ فى التجسم ، وعدد المتعطلين من العمال فى ازدياد ، والشكوى لدى العاملين من قلة الأجور وكثرة ساعات العمل عالية ، والقلق من جراء ذلك كله يساور النابهين والمفكرين . ولاشك أن الحال تشغل كذلك بال الناعمين والحاكمين . لـكن ماهو المجهود الذى يبذل فى سبيل الإصلاح ؟ وهل هو موصل حقا إلى الحل المنتج ؟

---

(١) مقال فى « المجلة الاقتصادية والاجتماعية » الصادرة بباريس بعددها الصغير فى شهر يونيه سنة ١٩٤٦ ص ٨ إلى ١٨ .

هناك بلا ريب اجتهادات ، لكن هناك كذلك بلا ريب تواكلا واستهانات . نعرف مثلا على سبيل الجزم أن تقارير قد صدرت منذ سنوات عن مسئولين لفتوا فيها الأنظار إلى المخاطر التى تترتب على ترك الأمور دون معالجة ، وتقدموا فيها باقتراحات متضمنة طرقا للوقاية من الكوارث قبل أن تحل فيستعصى أمرها على المنتج . ونعرف على سبيل الجزم أيضا أن تلك التقارير الصادر بعضها من أقرب موظفى الحكومة إلى الوزراء قد « ركنت » ، ولم تنل من المهيمنين ما هى جديرة به من الاهتمام . ونرى الآن حركات يحاول القائمون بها إيجاد عمل للمتعطلين وتقديم الإعانات لهم إلى أن يتيسر لهم العمل عن طريق السعى لدى الشركات ، أو عن طريق القيام بأعمال عامة كبرى .

وليس ما يطرأ على الاجتماع المصرى هذه السنوات جديداً فى العالم ، وليس ما يتخذ لمعالجته من طرائق مبتكرا فى مصر ، بل قد سبقنا غيرنا إلى استقبال المشاكل الاجتماعية ، ولجأ غيرنا إلى ما نحاول الالتجاء إليه لمعالجة هذه المشاكل . وقدأخفقت محاولات المحاولين عند غيرنا فى أن يقفوا بالمعالجة عند الوسائل السطحية التى لا تنزل إلى الصميم . والمشكلة أعمق من أن تكون مشكلة تعطل ومشكلة قلة أجور وكثرة ساعات عمل . وهى فى الحقيقة مشكلة النظام الاقتصادى الذى يستند إليه الكيان الاجتماعى فى مختلف الأمم .

ولقد كان النظام الاقتصادى الشائع إلى ما قبل قيام الحرب العالمية الأولى هو نظام الاستثمار الفردى الحر المستند إلى المنافسة السليمة الحرة . لكن ظروف الحرب العالمية الأولى ، وظروف ما بعد تلك الحرب العالمية الأولى ، ثم ظروف الحرب العالمية الثانية ، قد قضت على ذلك النظام الفردى فى عمومه وتركت التوجيه والتسيير والتحصيص تقص من أجنحته شيئا فشيئا حتى أصبح الاتجاه الحاضر ، اتجاه تأميم المرافق المالية والاقتصادية ذات الصبغة العامة — خطوة أولى فى سبيل التعميم بالتطبيق على سائر المنشآت والمشروعات .

والعالم الآن عالم متصل متفاعل ، ما تكاد الطريقة الاقتصادية أو الاجتماعية تلوح فذة جديدة فى جانب منه ، حتى تتجاوز مابين ربوعه من حواجز وحدود فتبذر بذورها فى كل موضع ، ويحاول الأخذ بها وتطبيقها فى كل مكان . وليست مصر بمعزل عن العالم ، وما هى إلا متصلة به ومتفاعلة . فماذا أعدت ، أو ماذا أعد القائمون بالأمر فيها لمواجهة الطرائق الجديدة من عُدة ، ولاسيما بعد أن

لاح فيها ما لاح من بوادر القلق الاجتماعى التى تتوالى أحداثه على الأيام ؟
لقد خطر لى خاطر ، وأنا أتأمل أحوال العمال ومن إليهم : ترى ماذا علينا لو أخذنا بنظام « المصانعة » ؟ لكن ما المصانعة أولا ؟ هى عندى « المشاركة فى الصناعة » . وقد اجتهدت فى أخذ التعبير عن « المزارعة » وهى المشاركة فى الزراعة . والزراعة معروفة فى مصر ، ومعرفة مصر بها عريقة . ولا تزال أقاليم تقيم العلاقة بين صاحب الأرض وفالحها على هذه الطريقة ، يقدم صاحب الأرض أرضه وما إليها من وسائل الرى ، ويقدم الفالح مجهوده ، ويجىء المحصول الناتج من الأرض بفضل مجهود الفالح فلا يستأثر به أحدهما ، ولا تصفى العلاقة بينهما بالمال ، ولكن يقتسم الاثنان المحصول بنسبة تتفاوت بتفاوت قدر المساهمة الأولى بين النصف والنصف ، وبين الخمسين والثلاثة الأخماس ، فتكون كما يجرى به عرف التعبير عند الفلاحين « مناصفة » أو « مخامسة » . وتنتج هذه الطريقة أحسن النتائج بالنسبة للعلاقات بين الملاك والفلاحين ، فلا يحس الفلاح أن صاحب الأرض مرهقه بالإيجار المرتفع أو أنه سالبه حين يتعاقد معه على تسديد إيجاره ، قناطير معدودة من القطن مثلا حين يتجاوز السعر حداً معيناً ، ولا يحقد المالك على المستأجر حين يقبض إيجاره المحدد ويترك له المحصول يبيعه لحسابه إذ تكون الأسعار مرتفعة ، بل يحس الاثنان معاً أنهما متضامنان وأنهما فى السراء والضراء سواء ، وأنهما فى « حمى الله » يخصهما معاً بما يشاء .

ترى ماذا علينا إذن لو أخذنا بمثل هذا النظام فى العلاقة بين العمال وأصحاب العمل ، وهو ما نجتهد فى تسميته بالمصانعة ، مع ما يقتضيه الطابع الصناعى الخاص من تحوير ؟ ماذا علينا لو أقمنا تلك العلاقة على مبدأ المشاركة فى الأرباح بين العمال وأصحاب الأعمال ، فتسير المصانع على نحو ما تسير عليه الآن من حيث امتلاك رأس المال ومن حيث استخدام العمال ، فإذا ما أقفلت حسابات المنشأة فى آخر العام ، وأخذ من الأرباح الشاملة ماينبغى أن يؤخذ عادة لحساب الاستهلاك والتجديدات ، ولحساب الاحتياطى اللازم لمقابلة مخاطر الخسائر وما إليها ، نحدد نسبة مئوية ثابتة تعتبر حداً أدنى لأرباح رأس المال المستثمر ، تتراوح بين ثلاثة وخمسة فى المئة ، ثم يوزع الباقى على أصحاب العمل والعمال بنسبة متساوية أو متفاوتة بين رأس المال وأصحابه من ناحية ، والعمال والقائمين به من ناحية ثانية ؟

ترى ماذا علينا لو اتجهنا هذا الاتجاه ؟ وما هو فى الواقع بالاتجاه الجديد المبتدع ، وكثير من المنشئات فى أوربا وفى أميريكا تخص عمالها آخر العام بحصة معينة فى الأرباح توزع عليهم بنسبة مرتباتهم وأجورهم . وهو مبدأ متواضع إلى جانب ما يبدأ تطبيقه فى انجلترا وفى فرنسا من مبدأ « التأميم » أو « المرافق المستصنعة » ؛ أو « صهر رأس المال والعمال » الذى يدعو إليه بعض الكتاب الفرنسيين . وتوافق الخواطر هو ظاهرة هذا العهدوقد اختفت فيه الحواجز والتخوم بين منتجات الفكر ، وستختفى فيه الحواجز والتخوم بين حاجات البشرية ، والحد الأدنى للحياة فى أية بقعة من بقاع الأرض .

محمود عزمى

محادثة (١)

بين الأسد البريطانى والدب الروسى

الأسد : — قل لى أيها الدب ! لماذا هذا التناقض الظاهر الذى يلحظه الناس بين آرائك وسلوكك السياسى ؟ فحين بدأتم ثورتكم الكبرى استنكرتم سياسة القياصرة القديمة ، ونددتم بخطط التوسع تنديداً أدى بكم إلى التبرؤ من المعاهدات التى كانت فى مصلحتكم ، كمعاهدة لندن السرية التى عقدناها معاً فى سنة ١٩١٥ وتعاهدنا فيها على أن تكون القسطنطينية ومنطقة المضايق من نصيبكم متى انتهت الحرب بهزيمة الوحش وزميله الذئب التركى ؛ فقد فضحتم حينذاك سر المعاهدة ، وأعلنتم زهدكم فى شروطها ، وكسبتم بذلك صداقة الذئب . وفعلتم مثل ذلك فى بلاد الفرس ، فتنزلتم عن منطقة نفوذكم وعن امتيازاتكم فيها ، وقدمتم مؤسساتكم ومهماتكم هدية منكم للشعب الإيرانى . ثم ما هى إلا بضع سنوات حتى تنكرتم لمبادئكم تلك ، وبعثتم السياسة القيصرية القديمة من مرقدها ، وأصبحت سياستكم الخارجية ، سواء فى البحر المتوسط والمضايق أو فى شبه جزيرة البلقان أو فى خليج فارس أو فى غرب آسيا والمحيط الهادئ صورة طبق الأصل من سياسة التوسع التى كانت تسير عليها الحكومات الأوتقراطية فى عهد القياصرة .

الدب : — وما دخل مبادئ الثورة فى السياسة الخارجية للدولة ؟ إن من الحق أن تؤثر الآراء الثورية فى سياسة الأمة الداخلية ، فتصدر التشريعات وتسن القوانين مشربة بالآراء الحديثة . أما فى السياسة الخارجية فإن الاعتبارات الجغرافية والتاريخية الثابتة هى التى تتحكم فى توجيهها مهما كان لون الحكومة القائمة بالأمر قيصرية كانت أو بلشفية . . .

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١١ (أغسطس ١٩٤٦) .

وهل تأثرت سياستكم الخارجية بتقلد العمال زمام الحكم بعد المحافظين ؟
إن الخطوط الرئيسية لسياسة العمال الخارجية هى نفس الخطوط التى رسمها تشرشل والمحافظون ، وإن اختلفت طرق تنفيذها والتفاصيل التى تشتمل عليها. وكذلك الحال فى روسيا وفى سائر البلاد العريقة فى تاريخها وتقاليدها — لا مندوحة لها عن التأثر بحقائق تاريخها وجغرافيتها . فمن الحقائق الجغرافية مثلا التى تسيطر على سياسة روسيا الخارجية مهما تغيرت نظم الحكم فيها ، أنها بلاد توشك أن تكون مغلقة ، بسبب تجمد مياه البحار المحيطة بها فى معظم شهور السنة ؛ ولذلك تراها دائبة السعى للوصول إلى منافذ تطل منها على الخارج وتيسر لها الاتصال بالمناطق الدافئة النشيطة فى تجارتها الغنية بمواردها . ومن الحقائق التاريخية التى تمتزج بدماء الروس ولاتنفك مسيطرة على أذهانهم ، أن هناك شعوبا فى البلقان تنتمى إلى الجنس السلافى أو الصقلبى الذى تنتسب إليه روسيا . وما فتئ الروس طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يعطفون على تلك الشعوب ويدربونها ويمكنون لها حتى تخلصت من نِير الأتراك ، ثم اطّرد نموها وكمل استقلالها ، وباتت روسيا تعتقد أن من حقها على تلك الشعوب أن تخصها بمكانة تمتاز بها على سائر الدول .

وإذا كان دعم الثورة قد استدعى فى أول الأمر أن نركز جهودنا فى سياستنا الداخلية ، وأن نعتصم بالأناة والصبر إزاء ما فرضته علينا الدول من قطيعة وطرد وحرمان ، فإننا لم نر بدًّا من أن نطرق باب الشرق مادام الغرب قد أوصد أبوابه دوننا ؛ فعقدنا معاهدات الصداقة وحسن الجوار مع تركيا وإيران وأفغانستان . ولما لم تقبلونا أو تدعونا معكم فى عصبة الأمم ، تفاهمنا مع الوحش المنهزم ، واتسعت مسافة الخلف بيننا وبينكم ، إلى أن اكفهر الجو فى أوربا وتلبدت سحب الحرب الأخيرة ؛ فالجأتم إلينا ولكن بعد ضياع الوقت .

الأسد : — إذا كانت حقائق التاريخ والجغرافية هى التى تملى عليكم سياستكم الخارجية ، فما معنى المشاكل التى تثيرونها فى إيران والبلقان والمضايق وفى تريستة ومستعمرات إيطاليا القديمة ؟ وأى اعتبارات جغرافية أو تاريخية تدعوكم إلى التدخل فى شؤون دولتين مستقلتين كإيران وتركيا ، أو إلى المطالبة بضم طرابلس أو جزر الدوديكانيز ؟ فهل كان أهل إيران وتركيا من العنصر السلافى

الأرثوذكس ؟ وهل كانت جزر الدوديكانيز واقعة فى البحر البلطى أو هى لاتزال قائمة ، كما تعلِّم المدارس تلاميذها ، فى شرق البحر المتوسط ، فليس يهم أمرها سوى اليونان ؟ وكيف انقلب الذئب التركى فجأة إلى وحش مخيف ، فأخذتم منذ انتهينا من الوحش تحاولون الانقضاض عليه ظلماً وعدواناً بعد أن صادقتموه فى بدء ثورتكم ، ودافعتم عن مصالحه فى وجه الدول جميعاً ؟

الدب : — من الاعتبارات الجغرافية التى تتحكم فى توجيه السياسة الخارجية لدولة ما ، المواقع والنقط الاستراتيجية التى يتوقف عليها تأمين حدودها وسلامتها من العدوان . وبلادنا كما تعلم بلاد مترامية الأطراف ، إذا تهاونا فى حماية حدودها من الخارج انهار البناء كله من الداخل ؛ إذ لابد من أن يطمئن الشعب داخل حدوده حتى يستطيع أن يتفرغ للنهوض ببلاده . ونحن شعب حديث العهد بالحرية ، ولابد له من الاستقرار حتى يتعلم ويتدرب ويتقدم . وأنى يتهيأ لنا الاستقرار إذا كنا فى الجنوب تحت رحمة تركيا : إن شاءت فتحت لنا المضايق وإن شاءت أغلقتها فى وجهنا وحبست عنا تجارة البحر المتوسط ؟ ومن أين لنا الأمان والسلامة وفى الجنوب الشرقى بركان من الأكراد لايهدأ ثورانه وإنما يخضع هؤلاء الأكراد لإيران والعراق وتركيا ؟ وكيف يهدأ لنا بال وفى الشمال الشرقى إقليم قارص وأردهان وأرتيڤان وقد كان داخلا فى حدود أرمينيا السوڤيتية قبل سنة ١٩١٩ وهو إقليم على جانب عظيم من الأهمية الحربية ؛ لأنه يتحكم فى الطريق إلى القوقاز ؟ أما من ناحية الغرب فقد أخذنا أمورنا بأيدينا ، وضممنا ولايات البلطيق كما كانت قبل الحرب العالمية الأولى ، وأخذنا من بولندة وفنلندة أراضى كانت لنا فى الماضى أيضاً . ولو أنها بقيت فى أيدى غيرنا لتعرضت حدودنا الغربية للخطر .

ولا تنس أن الوحش قد هاجمنا مخترقا هذه الحدود مرتين فى مدى خمس وعشرين سنة ، وقد ذقنا من أهوال الحرب فى المرتين ألوانا لم ير العالم مثلها ، وقد راح ضحيتها ملايين من الشبان فضلا عن الخسائر المادية التى منيت بها البلاد . وإنه لإجرام فى حق الوطن أن نتساهل فى أمر قد نتعرض بسببه لهجوم ثالث قد لانقوى على احتماله مرة أخرى .

الأسد : — ولكن تأمين الحدود ياصديقى يجب أن يكون من مهمة مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة التى تضافرت جهودنا على إنشائها ، وبذلك يصبح التأمين عامًّا يصون السلم فى جميع الأرجاء . أما أن يكون التأمين مهمة فردية تتولاها كل دولة وفق مصلحتها الخاصة ، فإن مثل هذا التصرف لايلبث أن يؤدى إلى التنافس الحربى ، ومن ثم يكون سبباً إلى حرب عالمية ثالثة . وكما أن الحرب لاتتجزأ : إذا نشبت فى إقليم اندلعت منها شرارات الحرب العامة سريعاً ، فكذلك السلم يجب ألا تتجزأ حتى ينتشر لواؤها على العالم أجمع . ثم لماذا تخشون الوحش وقد تقطعت أوصاله وانهد بنيانه ! وأكبر الظن أنه لن تقوم له قائمة إلا بعد أجيال ، وبعد أن يكون العالم قد تطهر من أدران الحرب واتخذ عدته لإبادة جرثومتها . لابد أن يكون فى الأمر خبء تعملون على كتمانه ، وإلا فضدّ من تريدون هذه التأمينات ، وتقيمون هذه التحصينات ؟

الدب : — إن أمرك أيها الأسد لغريب حقًّا . تسألنى ضد من هذه التأمينات وأنت الذى ابتدعت النقط والقواعد الاستراتيجية ، واستمسكت بالمناطق والشرايين الحيوية ، ووضعت يدك على مفاتيح أهم المنافذ البحرية فى العالم ! ألست أنت المتسلط فى البحر المتوسط بقواعدك فى جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين وقناة السويس وعدن ، فضلا عما بيدك من أملاك وجزر وقواعد فى سائر أركان المعمورة ، وكل هذا لتأمين طريقك إلى أملاكك الواسعة . . . فلماذا تبيح لنفسك ما تأباه على غيرك ؟ الم يعلن ابن عمك الأمريكى أمام الملأ فى أثناء الحربين العالميتين أن فى مقدمة أغراضكم من الحرب إعلان حرية البحار ، ولاتزال مع ذلك مفاتيح البحار فى أيديكم إلى الآن !

الأسد : — إن لنا ظروفا خاصة لا إخال دولة أخرى فى العالم تشاركنا فيها ؛ إذ لايخفى عليك أننا نسكن جزيرة صغيرة لاتبلغ جزءاً من مائة من مساحة بلادكم ، وقد اجتزنا مرحلة الزراعة منذ ظهور حركة الانقلاب الصناعى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأصبح أساس ثروتنا الصناعة والتجارة ، وجل اعتمادنا فى غذائنا وخاماتنا على مايرد إلينا من أنحاء الإمبراطورية ومن الخارج ، لذلك نعتبر أسطولنا الحربى والتجارى خط دفاعنا الأول ؛ فإذا لم نحتفظ بتفوقنا فى

البحار تعذر علينا ضمان سلامة اتصالنا بأملاكنا وبالعالم الخارجى ، وأعوزتنا الخامات والأغذية ، وتعرّض أطفالنا وأسرنا لخطر الجوع والحرمان .

هذا هو الفرق بينى وبينك وبينى وبين ابن عمى : كلا كما فى غنًى نسبى عن العالم الخارجى ؛ فلديكما الكفاية من موارد الخامات والأغذية ، وقد حبتكما الطبيعة بإنتاج وافر من مادة زيت البترول الذى يعتبر بحق عصب النشاط الاقتصادى والحربى ، فأنتم تنتجون منه مقدار ٦ر١٠ ٪ من إنتاج العالم . وأما الولايات المتحدة فتنتج ٣ر٦١ ٪ منه ، وهى ميزة لكما تفوق كل تقدير وتتيح لكما أن تنتهجا فى سياستكما خطة العزلة عن مجموعة الدول حين يبدو لكما . وأما نحن فنعيش عالة على غيرنا ؛ إذ نستورد من الخارج كل حاجتنا من زيت البترول اللهم إلا نسبة ضئيلة تنتجها كندا والهند . حتى زميلنا الديك الفرنسى يستطيع أن يعيش على موارده الخاصة وإنتاج أملاكه القريبة منه دون أن يتعرض للخطر مثلنا . من ذلك ترى أيها الصديق أن القوة البحرية وما يتبعها من قواعد البحرية هى مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا ، وفى اليوم الذى نتخلى فيه عن قواعدنا ونقطنا الاستراتيجية فى عرض البحار نكون قد نزلنا عن مكانتنا كدولة عظمى ، وأنكرنا تاريخنا وتقاليدنا ، وغمطنا حق ذرارينا وأسلافنا وبالاختصار نكون قد انتحرنا .

الدب : — لست أظن أن العالم يخسر كثيراً بذهابكم ، فقد انتهى زمانكم وأديتم رسالتكم على قدر ما سمحت به ظروف الجهل والفقر والضعف التى كانت تسيطر على العالم فى أثناء تفوقكم . وكفاكم أنكم أدخلتم النظم الديمقراطية النيابية فى بلاد العالم ، فأشعتم فيها الخلافات الداخلية ، وساعدتم على الفرقة والتنافر والتناحر الحزبى بين أبناء الوطن الواحد ، بقصد الوصول إلى كراسى الحكم وتأليف الوزارات التى ابتدعتموها . كفاكم أنكم جعلتم الشاى شراباً عالميا ، ولعب الفوتبول رياضة أممية ! وستذكر لكم الأجيال المقبلة حروبكم وما بذلتم من جهد فى سبيل استعمار إرلندة والهند وأمريكا وإفريقية ، وفرض رقابتكم على البحار فى الحرب والسلم . أما الآن وقد فتحت الكشوف العلمية الهائلة آفاقا جديدة لحياة جديدة مليئة بالنذر والاحتمالات ، فإن هذه الحياة تتطلب دما جديداً ودروساً جديدة يقوم بها أساتذة مدربون تدريباً جديداً

فى مدارس غير مدارسكم، ووفق آراء وفلسفات غير آرائكم وفلسفاتكم.

الأسد: — قال القدماء أو المحدثون — لا أدرى — إن من لا يتطور يتقهقر. والسر فى بقاء فصيلتنا إلى الآن أننا نطبق نظرية التطور فى جميع نُظمنا وآرائنا السياسية والاقتصادية حتى الاستعمارية. وأحسب أنك تعلم أن مستعمراتنا وأملاكنا فى عرض البحار قد أصبحت مع التطور دولا مستقلة شكلا وموضوعا، حتى إن بعضها قد قرر فى الحرب الأخيرة أن يلزم الحيدة، ولو شئنا لأرغمناها على دخولها إلى جانبنا، ولكننا آثرنا حرية الرأى على مصلحتنا الخاصة. وما مثل جنوب إفريقية فى أول الحرب وإيرلندة طوال مدة الحرب ببعيد. وإننا لنباهى بأننا منذ القرن التاسع عشر وإلى الآن لم نزل ندافع عن حقوق الشعوب الصغيرة، ونرعى مصالحها ضد قوى الاستبداد والرجعية، فساعدنا على ظهور قوميات مستقلة جديدة تتمثل فى جمهوريات أمريكا وفى اليونان وبلچيكا وفى الشرق الأوسط. وأظن أن العالم سيذكر لنا جهودنا فى سبيل تحرير الرقيق، وتكوين جمعيات الصليب الأحمر، وتحرير المرأة، ونظام الكشافة، وحرية التجارة، وحتى الانتخاب العام. وما دمنا مؤمنين بنظرية التطور والحرية، فإن بريطانيا لن تموت، وسترى أيها الرفيق أن العالم لن يفيد من الثورة والعنف بقدر ما يفيد من الحرية مع التدرج والتطور.

الدب: — إنى أمقت التباطؤ والتدرج، وأدين بالثورة التى خلقت روسيا الجديدة، وأعتقد أن النظام الديمقراطى بما ينطوى عليه من تراخ وضعف وتمييز بين الطبقات هو سبب ما يعانيه العالم الآن من قلاقل واضطرابات.

دعنى أنفِّذ برنامج الثورة الشيوعية الدولية، وسترى كيف يبرأ العالم من أدوائه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جميعا

الأسد: — إنى أعتقد أن التطور هو النظام الطبيعى، فالثمرة لا تنضج فى يوم وليلة، بل لا بد لها من تربة صالحة ورى وغذاء وتقليم وتشذيب وتطعيم وتدخين حتى تطيب وتتدانى للآكلين. أما الثورة فظاهرة شاذة تقذف بالشعوب فى ألوف من التجارب والانقلابات العنيفة الدامية القاسية، ثم

لا تلبث فورة الثورة أن تخمد ويعقبها رد فعل طويل من الضعف والإنهاك والإخلاد إلى التواكل والقناعة. قد تكون الثورات السياسية ضرورة طبيعية فى عصور الاستبداد والتسلط القديم. أما فى هذا العالم الجديد الذى يجب أن تتمتع فيه الشعوب باستقلالها والأفراد بحريتها فى حدود القانون — فنحن فى حاجة إلى ثورة من نوع آخر فى البحوث العلمية والاكتشافات الآلية الجديدة التى لا يقتصر تطبيقها على عتاد الحرب، بل يجب استغلالها لرفع مستوى البشر ولمصلحة الطبقات جميعاً لا لمصلحة طبقة دون أخرى. ولا أمل فى تحقيق ذلك إلا إذا تعاونت الشعوب، وأمنت العدوان عليها، ونعمت بكامل حريتها وسيادتها فى الداخل والخارج.

الدب: — هذه مجرد نظريات تتشدق بها.

الأسد: — كذلك كان الطيران مثلا، وكان التسامح الدينى، وكانت القنبلة الذرية — كلها كانت مجرد نظريات فى أول أمرها ثم أصبحت بالممارسة والتجربة حقيقة يفيد منها العالم أجزل الفوائد.

الدب: — وكيف توفق بين فكرة الاتحاد العالمى الذى تنشده وتمسك الدول بكامل حريتها وسيادتها؟

الأسد: — أريد أن يكون الاتحاد العالمى لمنع الحروب، وتيسير المواصلات والتجارة، ونشر الصحة والثقافة، وتوفير العمل بين شعوب العالم. أما فى الشؤون الداخلية، وحق الملكية، وحرية العبادة والتعبير، واختيار نوع الحكم، فنريد حرية كاملة فى حدود القانون دائما وسيادة تامة بحيث لا تتدخل دولة فى شؤون دولة أخرى. ولا يتحقق كل هذا — كما ذكرت لك — إلا بالتعاون واحترام الحريات.

الدب: — ألست عضواً متعاوناً معكم فى هيئة الأمم المتحدة وفى مجلس الأمن؟

الأسد : — حقًّا نحن جميعاً أعضاء ، ولكننا غير متساوين مع الآخرين . وأساس التعاون المساواة ، فإذا انتفت زالت الثقة وحلت مكانها الريب والظنون . وقد تذرعنا بحقنا كمحاربين غالبين فى الحرب الأخيرة ، وتمسكنا نحن الخمسة الكبار بحق الإجماع فى التصويت بيننا ، وانبنى على ذلك أن واحداً منا نحن الخمسة يستطيع أن يحول دون تنفيذ أى قرار يتخذه مجلس الأمن أو الجمعية العمومية للأمم المتحدة مهما عظم أمره ومهما بلغت الكثرة فى جانبه . وقد أثبتت الظروف أننا كنا على خطأ فيما قررنا ، فإننا بذلك قد فتحنا هوة عميقة بيننا وبين أمم العالم جميعاً . ويدهشنى أنكم تناهضون مبدأ المساواة بين الدول على حين تحض ثورتكم على المساواة بين الجميع .

إن مبدأ احترام المساواة يقتضينا أن نتزل عن حق « الڤيتو » ، وأن نؤمن بحق الكثرة . فإذا لم نتزل عن هذا الحق الذى اغتصبناه لأنفسنا فلا مندوحة إذاً من أن نعمل على كسب الأصوات بالحق وبالباطل ، وقد تؤدى بنا الحال إلى بعث قوة الوحش من جديد ليكسبه واحد منا إلى جانبه ، وحينئذ تتحقق نبوءة هتلر حين قال إنه إذا ذهب ، فإن الديمقراطية والبلشفية لا تلبثان أن تصطرعا ، وفى اصطراعهما فرصة ألمانيا وبعث للنازية من جديد . فلنكن على حذر . وأولى لنا أن نتفق ، ولا يصح أن يلدغ أحدنا من جحر أكثر من مرتين !

الدب : — كفى ! إنك تحاضرنى ! وما كنت أظن أن محادثتنا ستنقلب سريعاً إلى محاضرة من جانب واحد . فإلى اللقاء عندما يعود مولوتوف من الغابة .

محمد رفعت

صفحة مجيدة من تاريخ أمة عظيمة

ليس منا من يجهل عراقة الصين فى الحضارة والمدنية ، ولـكن القليل منا ينظر إلى أهل الصين اليوم بالعين التى تمليها تلك المعرفة . فلقد ظلم التاريخ الحديث هذه الأمة العظيمة فأشاح بوجه رضاه عنها ، فإذا هى تعسة بائسة مستضعفة تقاتل قتال الحق امام القوة . . . قتالا مجيداً رائعاً أعواما وأعواما كلّ العالم كله فى القتال من نصفها عددا ، وتـكالبت الأمم القوية عليها... هذه انجلترا النائية ، وتلك اليابان جارتها ، فما وَنت ولا كلّت .

وهذه صفحة من صفحات هذا القتال العظيم تصور أول صفحة من هذه الحرب بين القوة والحق . ولقد نقل التاريخ إلينا هذه الصفحة فى مختلف ظروفها وعصورها ، فإذا هى على اختلافها تتحد فى ظاهرة واحدة ، هى تغلب الحق تغلباً زائفاً فى بدء المعركة ، تغلبا يعجب الأبطال وأشباههم ومن يطربون لسيرهم . ولندع التاريخ يقلب صفحات تلك الحرب العظيمة ويصور صورا مختلفة من مواقف القتال ونتائجه ، تتحد هى أيضاً رغم اختلافها فى أنها تنتهى أبداً بانتصار القوة المادية ، ولنقف نحن أمام هذه الصفحة الأولى نعجب ونطرب ، ونتساءل كيف أمكن لمثل هذه العظمة أن تطأطئ الرأس أمام القوة ولو إلى حين .

ترسم الصورة بلاط الملك چورچ الثالث فى لندن آخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وقد جلس الملك العظيم على عرشه المكين يستقبل رجالات الدولة ، ويصرف شؤونها فى وقار الملوك العظماء وهيبتهم . وهذا هو اللورد ماكارثى سفير الملك إلى بلاد الصين النائية ، وقد عاد من رحلته الطويلة الشاقة متعبا ولـكنه باسم مشرق الوجه لولا شئ من جمود فى حركاته ونظرته . وما كاد يدخل قاعة العرش بعد أن أعلن مقدمه حتى كاد الملك يخف لاستقباله لولا وقار من العرش ، وبرود من الطبيعة والدم . وأقبل السفير وانحنى أمام الملك ،

ونظر إلى الوزراء والحاشية من حوله وقد ملئت نفسه رضا وطمأنينة . نعم هذا هو الزخرف الحق وذاك هو جلال العرش وهيبته ، لا تلك القاعة الفاخرة فى أقاصى الشرق التى زانها فن عجب مسرف فى زخرفه ، دقيق فى نقشه ، يوحى بشىء من السحر الشاذ ، فيحس المرء أمامه أنه فى عالم غريب عنه . ثم هذه الرائحة العطرية الثقيلة تنبعث من جوانب القاعة الكبرى ، فتدير الرأس ، وتسد منافذ النفس . ولم يطل خياله المقارنة بين وطنه وذلك البلد النائى العجيب . لقد أعد خطاباً رائعاً طويلا أخذ يلقيه الآن على آذان هؤلاء السامعين ، والملك العظيم منصت فى شوق ولهفة .

« إن الصين بلد عظيم فى مدنيته عريق فى حضارته . وهو فوق هذا بلد غنى بالخيرات ، قد أسبغ الله عليه نعمة لم يفزبها إلا الأقل من بلاده العديدة ؛ وذلك أنه قد كفى أهله وأغناهم عن غيرهم ، وهو مستطيع أن يكفيهم ويغنيهم ما شاء ، مهما تطورت المدينة الحديثة ، وتعددت مطالب العيش فى ظلها . وسكانه يا مولاى قوم مثابرون على العمل ، مخلصون فيه ، لهم خفة الآلة سرعتها ، وفن الإنسان وحذقه . . . »

وطال حديث السفير عن هذا البلد الشرقى النائى العجيب ، فإذا الملك والقوم من حوله يكادون يستحثونه لينبئهم بنتيجة سفارته ، فقد بدأوا يملّون الإنصات إليه ، وأصبحوا يسمعون جملة وتفوتهم لشرود أذهانهم جمل .

« إنى عاشرتهم فلم أجد أكثر منهم أدبا ، ولا أصدق منهم معاملة ولا ... » وشرد ذهن المنصتون إليه من جديد . قال الملك مقاطعاً بعد أن طال كلام السفير : « عسى أن تكون قد فزت من إمبراطورهم بالرد الحسن على ما طلبنا إليه . » فقال السفير وقد أدرك أنه أطال : « نعم يا مولاى . وإنه لرجل عجيب فى مظهره ، ولكنه على خلق قويم كريم . ما قابلته إلا باسما راضيا متأدبا مجلا للناس من حوله ، فاستحق بذلك إجلال الغرباء وعبادة شعبه . وإنهم ليعبدونه بأخلص مما يعبد به شعبنا ربه الذى خلقه . » وتدفق بيان السفير من جديد ، فقال الملك مقاطعا : « ولقد نجحت سفارتك إليه . أليس كذلك ؟ » قال : بلى قد نجحت يا مولاى أى نجاح . ولقد حملنى إليك رسالة لم ينبئنى بشىء مما احتوته ، ولكن الهدايا التى أرسلها إلى جلالتكم ، والمعاملة التى لاقيتها منه تنبىء جميعها بأنّا قد وفقنا لأكثر مما طلبنا . إنه لعجيب حقا ألا يحدثنى بشىء

فى صدد ما جئت به إليه ، بل كان يقول دائماً : رد الرسالة رسالة مثلها . أليس كذلك ؟ ثم يبتسم ابتسامة ناعمة هادئة . إنه لرجل عظيم . . . » وخشى الملك أن يتدفق بيان الوزير من جديد ، وقد عيل صبره ، فقال فى شئ من الحزم : « هات الرسالة إذن واتلها علينا . » وفض السفير ختم الرسالة الإمبراطورية ، فإذا بها تقول :

« إنكم أيها الملك تعيشون فى منطقة بعيدة نائية ، ولكنكم تريدون فى تواضع أن يمسكم من بركات حضارتنا خير ؛ لذلك أرسلتم سفيركم يحمل رسالتكم فى هيبة ووقار .

« إن فضل أسرتنا العظيمة وأمتنا المجيدة قد عم الآفاق وطبّقها ووصلت أخباره إلى كل أمة على الأرض ، فأرسلت إلينا ملوك العالم أجمع برًّا وبحراً هداياها وخراجها .

« إننا نحن الصينيين نملك كل شىء ، ولا يبهرنا من تلك التحف الجميلة التى عندكم شىء ، بل إن منتجاتكم وصناعاتكم لا محل لها فى بلادنا ، ولا فائدة منها عندنا . . . »

وبدأ الملك يوجس خيفة ، فظهرت أمارات الجد على وجهه البارد الجامد ، ولكنه فى لهفة التطلع إلى ما بعد لم يقاطع سفيره .

« ولقد قبلنا هداياكم التى أرسلتموها إلينا ، لا لشىء إلا لهذا الولاء والإخلاص اللذين أمليا عليكم إرسالها إلينا ونحن فى أقصى البلاد وأنآها ... »

ولم يستطع الملك سكوتاً فقال : « ولاء وإخلاص ؟ لمن ؟ أكمل أيها السفير . » وبدأ يفهم أن السفير قد بالغ فيما ظن من نجاح سفارته .

« إنا لنحس من خطابكم تواضعاً محموداً خليقاً بأن يحترم . ولقد استقبلنا سفيركم خير استقبال ، ووهبنا له من عطايانا كثيراً ، وأرسلنا إليكم أيها الملك هدايا ثمينة تجد بها بيانا مرفقا بهذه الرسالة . ألا فلتقبلها فى إجلال واحترام . »

ولم يملك الملك نفسه من أن يضحك . بيان بالهدايا حتى لا يختص السفير العزيز نفسه بشئ منها ، فلقد وهب للسفير ما ظن أنه يكفيه ، ولكنه لم يأمن طمعه حتى بعد الشبع ، فأرسل هذا البيان بها . ألا فلأتقبلها فى إجلال واحترام . فى إجلال ! يا للغرور ، عرش مكين بلا جدال ، وحضارة عريقة قديمة بلا ريب ،

ولـكن أى شعب اليوم ، وأى مكان بين الأمم فى هذا العصر . ألا رفقا بهذا التعاظم الفارغ الخدّاع . كم يخدع الماضى هؤلاء القوم عن حاضرهم . وجالت هذه الخواطر كلها بسرعة البرق فى رأس الملك العظيم لما توقف السفير هنيهه ليبتلع الإهانة التى أصابته من هذا القصير المزخرف العجيب ، إمبراطور الصين . ألا ما أكثر ما يخدع فيه المرء ! بيان بالهدايا ! وقال السفير تاليا الرسالة الإمبراطورية :

« وأما طلبكم أن تبعثوا من عندكم سفيراً ليعيش فى بلاطنا القدسى الهادى فإن مثل هذا المطلب لا يمكن أن يجاب ؛ فكل أوربى يعيش فى عاصمتنا پيكين محظور عليه أن يغادر الصين ، وأن يكاتب أحداً من بلده ؛ لذلك لسنا نرى كيف يمكن أن تفيدوا شيئاً بوجود سفير من لدنك عندنا . أضف إلى ذلك أن فى أوربا أمما كثيرة غير الأمة البريطانية ، فإذا طلبت كل منها ما طلبتم نخبرنى بالله كيف يمكننا أن نوافق على هذا الطلب ؟ أتريدون من أسرتى الملكية أو من أمتى المجيدة أن تغير من عاداتها أو من طباعها شيئا ، لتنفذ لـكم ما تريدونه ؟ »

وتحققت مخاوف الملك . إن السفير قد خدع ولاشك بهؤلاء القوم ناعمى الملمس ناعمى الشعور . إن فى تلك الأجسام الضئيلة الخفيفة الحركة قلوبا مليئة بالغش والخداع . ولـكنه أراد أن يتابع الرسالة ، فلم يعلق على سفيره بشىء . والسفير فى لهفة الدهشة أخذ يتابع القراءة مبهوتا .

« ولقد طلب سفيركم أيضا أن أسمح لبواخركم بالتجارة فى موانىء أخرى غير ميناء كانتن وهذا طلب مرفوض ، ولن نسمح بتجارة لـكم فى أى ميناء آخر غير كانتن . »

ولن نسمح بتجارة لـكم فى أى ميناء آخر غير ميناء كانتن ! فيم كان النجاح أيها السفير ! ولما كان هذا هو المطلب الأساسى الذى من أجله رحل السفير رحلته الطويلة الشاقة ، وانتظر الملك انتظاره المترقب المتلهف ، فإن الملك لم يملك نفسه فى مرارة السخرية من أن يقول : « نجاح عظيم بلا شك أيها السفير ! أكمل رسالتك . »

« وأما طلبكم إلينا بأن نسمح لتجاركم بأن يختزنوا بضا
فيها فى پيكين ، فهذا مالا يمكن أن ينفذ عمليا . إن عا
الذى من حوله تدور الأرض بأجزائها جميعاً . . . »

وضحك الملك يفرج آلام سخطه وغيظه . المحور الذى من حوله تدور الأرض ! أى غرور وأى تعاظم ؟ وممن ؟ من هؤلاء القوم صغار الأجسام صغار العقول . قال السفير وقد اغتاظ هو الآخر أشد الغيظ : « پيكين . إن أقذر مدينة فى بلدكم أيها الملك لأنظف من پيكين تلك التى هى محور الأرض وعاصمة الكون ! لكم خدعت فيك أيها الإمبراطور العظيم . . . أيها الشين لنج : إنك حقا لعظيم . فقال الملك حانقا هازئا : « لا تنس أن الصين يا مولاى بلد عظيم فى مدنيته عريق فى حضارته ، وأن سكانه قوم مثابرون على العمل مخلصون فيه . » فأكمل السفير قراءة الرسالة وقد كاد يقطع على الملك كلامه :

« وإن قوانين بلدنا للازمة صارمة . وقد حرمت هذه القوانين على الأجانب أن يتاجروا فى وطننا ، فلم يجسر أحد إلى الآن أن يفعل . لذلك ترانى أيها الملك مضطرا لأن أرفض هذا الطلب أيضا .

« إن سفيرك قد طلب إلىَّ أيضاً أن أسمح لكم بتعليم دينكم ونشره فى الصين . ولكن الأباطرة العظماء والفلاسفة الحكماء قد علموا الصين منذ فجر التاريخ دينا اعتنقته الملايين من رعيتى ؛ فلسنا فى الواقع محتاجين إلى تعلّم دين جديد . إن الطلب لشاذ ، وهو فى نظرى لايستند إلى أى حجة من منطق أو دليل من تعقل . » .

وكرر السفير : «لايستند إلى أى حجة من منطق أودليل من تعقل.» ولكنه خاف أن يكون الملك قد فهم سر هذا التكرار فأسرع بالجملة التالية وكررها هى أيضاً .

« لقد نظرنا دائماً بعين العطف العظيم إلى السفارات التى كانت تأتينا محملة بالهدايا من الممالك التى كانت تتوق حقا إلى بركات مدنيتنا . ولكن طلباتكم تنافى عادات أسرتنا وأمتنا منافاة صارخة صريحة ، ولسنا نرى فائدة يمكن أن نجنيها من إجابتنا لها . إنه لمن واجبك أن تدرك عواطفى ، وأن تتبع فى احترام ووقار تعليماتى . »

قال الملك : «ثم ماذا؟» قال السفير : « انتهت الرسالة يامولاى . » فابتسم الملك [illegible] ساخراً مغيظا ، وحنق الحاضرون . ولولا هيبة العرش ووقار الملك [illegible] كثيراً .

ولكن التاريخ يسرع ، فيسدل على هذا المنظر أستاره . وتتابعت فصول هذه الحرب بين القوة والحق ، فإذا مناظرها متشابهة وفصولها مكررة . ولكن أيمل التاريخ من التكرار ؟ كلا ! أيتعظ الإنسان من هذا التكرار ؟ كلا أيضاً . ومازالت الحياة مشوقة بأحداثها ، ومازال منا من يتحرق شوقا إلى أخبارها .

سهير القلماوى

المسألة الهندية

تعتبر الهند بحق أسطع جوهرة فى التاج البريطانى وأعظم وحدة فى الإمبراطورية البريطانية. وهى بمساحتها وسكانها ومواردها الضخمة تكاد تعدل قارة بأسرها. فمساحتها تبلغ زهاء مليونى ميل مربع، ويبلغ سكانها أكثر من ثلاثمائة وخمسين مليونا. وتبسط بريطانيا على هذا الإقليم الغنى الشاسع سلطانها المطلق منذ أكثر من قرن ونصف قرن. ومنذ سنة ١٨٧٧ يزدان التاج البريطانى بشعار الإمبراطورية، ويلقب ملك انجلترا بإمبراطور الهند، وينوب عنه فى حكم الهند نائب الملك.

ولم يصطدم الحكم البريطانى فى الهند خلال هذه الفترة الطويلة بغير ثورة خطيرة واحدة هى ثورة سنة ١٨٥٧. ولكن الهند تضطرم منذ ربع قرن بحركة قومية واسعة النطاق كشفت غير مرة عن قوتها وخطورتها بفورات عنيفة من العصيان المدنى وعدم التعاون والمظاهرات والمواكب الدموية. وما تزال السياسة البريطانية منذ ربع قرن تطاول وتداور وتبذل مختلف المحاولات لحل المسألة الهندية.

وليست المسألة الهندية إلا مسألة جميع الشعوب والأمم المغلوبة. وقد كان لاشتداد وطأة الحكم البريطانى فى الهند أثره فى إيقاظ الوعى القومى، وحفز الشعب الهندى إلى المطالبة بحقوقه وحرياته التى طال الأمد على هضمها. وظهر عزم الهند جليا على النهوض إلى خوض غمار الكفاح الوطنى منذ أواخر الحرب الكبرى حيث كان للتضحيات العظيمة التى بذلتها الهند يومئذ لنصرة الإمبراطورية البريطانية أعظم الأثر فى تنبيه الشعب الهندى إلى أهمية الهند كعامل فى توطيد قوة الإمبراطورية، وإلى المطالبة بحقوقه القومية المسلوبة.

وتعتبر الهند كلها من أملاك التاج البريطانى ، ولا تدخل فى عداد المستعمرات أو الحمايات . وتنقسم إلى وحدتين دستوريتين كبيرتين : الأولى الهند البريطانية وتبلغ مساحتها مليون ومائة ألف ميل مربع ، ويبلغ سكانها نحو ٢٧٠ مليونا وتشتمل على ولايات بورما وأسام وبنغالة وبهار وأوريسا والولايات المتحدة والبنجاب والولايات الشمالية الغربية وبلوخستان البريطانية وبومباى والولايات الوسطى ومدراس وجزائر أندمان ونيكوبار . وقد غدت بورما الآن وحدة منفصلة ذات نظام خاص . ويتولى حكم الهند البريطانية نائب الملك يعاونه مجلس تنفيذى هو مجلس الدولة ، وجمعية تشريعية ذات اختصاص محدود . والثانية هى الولايات الهندية المستقلة ، وتبلغ مساحتها أكثر من سبعمائة ألف ميل مربع ، وسكانها نحو ثمانين مليونا ؛ وتشمل الولايات الآتية : حيدر أباد ، وبارودا ، وميسور ، وكشمير ، وراچيوتانا ، والهند الوسطى وولايات بومباى وولايات مدراس ، والولايات الوسطى ، وولايات بنغالة ، والولايات المتحدة ، وولايات بنجاب وبلوخستان ، وسكيم والولايات الشمالية الغربية . وتعترف الولايات المستقلة بسيادة التاج البريطانى . ويتولى الحكم فيها أمير وطنى مطلق السلطان ، ولكل منها جيش خاص وميزانية خاصة ، ولكن يحد من سلطان الأمير وجود مقيم بريطانى إلى جانبه . ولا يحق للأمير أن يعقد معاهدات أو محالفات داخلية أو أن يعلن الحرب أو أن يسىء معاملة السكان . فإذا أساء إدارة الإقليم عزل وعين مكانه أمير وطنى آخر . ومعنى ذلك أن أمراء الولايات المستقلة لا يعدون أن يكونوا حكاما محليين تابعين مباشرة للتاج البريطانى .

وقد اتخذت الأمانى الهندية منذ البداية صورة المطالبة بالاستقلال الذاتى ، واقترنت هذه الأمنية بسائر الحركات العنيفة التى اضطرمت بها الهند فى سبيل المطالب الوطنية منذ نهاية الحرب الكبرى . ولكن السياسة البريطانية ترى أن تعتبر المسألة الهندية مسألة دستورية فقط تتعلق بنظام الهند الدستورى والشكل الذى يتخذه هذا النظام فى ظل الإمبراطورية . وكانت هذه النظرة المتواضعة رائد السياسة البريطانية فى جميع ما اتخذته من خطوات لمعالجة المسألة الهندية حتى اليوم . ونستطيع أن نقسم محاولات السياسة البريطانية فى هذا السبيل إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى

وتبدأ المرحلة الأولى منذ أواخر الحرب الكبرى ، وذلك حينما اشتدت حركة المطالبة بالاستقلال الذاتى ، وشعرت بريطانيا بأن الوعى القومى الهندى بدأ يتخذ وجهة عدائية . فعندئذ رأت الحكومة البريطانية فى هذه المرحلة الدقيقة التى مازالت تواجه فيها الإمبراطورية أخطار الحرب أن تبادر إلى العمل ، فأوفدت فى سنة ١٩١٧ مستر مونتاجو (اللورد فيما بعد) وزير الهند إلى الهند للبحث فيما يجب عمله نحو إنشاء حكومة هندية ذاتية . وفى العام التالى صدر تقرير مشترك من اللورد شلمسفورد نائب الملك ومستر مونتاجو يقترح بعض إصلاحات دستورية وإدارية فى هذا السبيل ، فلقيت هذه المقترحات أشد معارضة من زعماء الجبهة القومية ، وبدأ غاندى دعوته الشهيرة إلى العصيان المدنى ، وتوالت الاضطرابات والمصادمات الدموية فى الهند فى الأشهر التالية . وعدلت المقترحات أثناء ذلك على يد لجنة برلمانية . وفى ديسمبر سنة ١٩١٩ صدر قانون الهند الجديد المعروف بقانون مونتاجو وشلمسفورد تحقيقاً لما وصفته السياسة البريطانية يومئذ بأنه العمل على ترقية نظم الحكم الذاتى فى الهند والسير بها قدُماً فى سبيل إقامة الحكومة المسئولة . وأخص ما فيه أن يجعل مجلس الدولة مجلساً تشريعيًّا ثانيا ، وأن تختص الجمعية التشريعية بإقرار الميزانية ، وأن تمنح بعض الضمانات الطائفية ، وأن يمثل الهند لدى حكومة لندن مندوب سام . وهكذا اقتصر التعديل على المظاهر الشكلية ، ولم يتقدم كثيراً فى سبيل إنشاء الحكومة الهندية المسئولة . بيد أنه نص فى القانون الجديد على « أنه لما كان التقدم فى تحقيق نظام الحكم الذاتى فى الهند البريطانية لايمكن إجراؤه إلا بمراحل متعاقبة ، فإنه يجب بعد عشرة أعوام أن تنتدب لجنة للبحث فى سير الدستور الجديد ، واقتراح مايجب إجراؤه فيه من التغييرات » .

المرحلة الثانية

وقطعت الهند بعد صدور الدستور الجديد بضعة أعوام مليئة بالاضطرابات والكفاح القومى . ولكن السياسة البريطانية لم تعدل عن خطتها المرسومة .

وفى سنة ١٩٢٨ حينما اقتربت نهاية الأعوام العشرة ندبت الحكومة البريطانية لجنة للإصلاح الدستورى الهندى برآسة السير جون سيمون ، وذلك لكى تبحث « كيفية سير الإدارة الحكومية ونمو التعليم وتقدم النظم النيابية فى الهند البريطانية وما يتعلق بذلك من الشؤون ، ثم التقرير عن مبدأ الحكومة الذاتية : هل يُرْغَبُ فى تطبيقه ، وإلى أى حد ؟ وهل يجب توسيع أو تعديل أو تقييد مرحلة الحكم الذاتى القائمة ؟ »

وأنفقت لجنة الإصلاح الدستورى فى الهند بضعة أشهر فى البحث والدرس ثم أصدرت بعد عامين تقريرها الضخم ، وفيه تنوه فى أكثر من موضع بعدم صلاحية الشعب الهندى لأى نوع من أنواع الحكومات الذاتية المسئولة ، وتقرر أن تجربة الأعوام العشرة ليست كافية لتقرير الخطة القويمة التى تتبع . ويفيض التقرير فى التنويه بظروف الهند الخاصة من خلاف طائفى راسخ ، وتقاليد دينية متضاربة ، وتعدد لا مثيل له فى الأجناس والأديان واللغات والخواص الأخلاقية والاجتماعية . وأبدت اللجنة فيما يتعلق بالتوصيات بعض مقترحات أهمها أن يؤخذ بمبدأ التمثيل الطائفى فى كل إصلاح دستورى ينفذ ، وأن تعتبر الهند البريطانية دولة متحدة تتكون من ولايات متحدة ، وأن تعدل حدود الأقاليم الحالية ، وأن يحصر حق الانتخاب فى طبقات معينة لا تتعدى عشرة فى المائة من مجموع السكان ، وأن تفصل ولاية بورما عن الهند البريطانية ؛ لأنها تكوّن وحدة مستقلة بذاتها . هذا إلى طائفة أخرى من الاقتراحات لإصلاح التعليم والنظم الإدارية . وهكذا جاءت توصيات لجنة الإصلاح الدستورى مخيبة لآمال الزعماء الهنود والشعب الهندى . واقترنت فترة نشاط اللجنة وظهور تقريرها بطائفة جديدة من الاضطرابات والقلاقل وأضحى واضحا أنه يجب على السياسة البريطانية أن تلتمس لتهدئة الحركة القومية الهندية وسائل أخرى .

وفى ذلك الحين كانت وزارة العمال فى كراسى الحكم ، وكان الأمل معقودا بأن تتخذ الحكومة البريطانية بعض خطوات عملية لحل المسألة الهندية . وأذاعت الحكومة البريطانية بالفعل على لسان نائب الملك فى الهند بيانا رسميا عن مستقبل الهند الدستورى ، خلاصته أن الحكومة البريطانية ترى أن الوقت قد حان لتحقيق غاية الحكم الذاتى التى يشير إليها قانون حكومة الهند الصادر

فى سنة ١٩١٩ (قانون مونتاجو وشلمسفورد) وأنها ستعمل على عقد مؤتمر عام تمثل فيه الهيئات الهندية ذات الشأن كلها ، وتبحث فيه المسألة الهندية برمتها . وبالرغم من أن توصيات لجنة سيمون لم تكن طيبة ولا مشجعة ، فقد حافظت الحكومة البريطانية على وعدها فى عقد المؤتمر . وعقد هذا المؤتمر الذى عرف بمؤتمر المائدة المستديرة بالفعل فى أكتوبر سنة ١٩٣٠ فى لندن ، ومثلت فيه جميع الهيئات والطوائف الهندية ذات الشأن ، وشهده غاندى فى مراحله الأخيرة ، كما مثلت فيه الإمارات المستقلة . وقطع المؤتمر شوطا بعيدا فى الاتفاق على المبادئ العامة ، ولكنه اصطدم بالخلاف الحاد بين الهندوس والمسلمين على مبدأ التمثيل الدستورى ؛ فقد تمسك الهندوس وتمسك غاندى بأن يجرى هذا التمثيل على القاعدة القومية دون وزن للاعتبارات الطائفية ، وتمسك المسلمون بمبدأ التمثيل النسبى والطائفى ، وهو ما كانت تميل الحكومة البريطانية إلى الأخذ به ، وتمسك الأمراء المستقلون باستقلالهم المحلى وارتباطهم المباشر بالتاج البريطانى ، وانتهى المؤتمرون دون الوصول إلى اتفاق .

وعلى أثر ذلك أعلنت الحكومة البريطانية أنه ما دام الهنود أنفسهم لم يستطيعوا الاتفاق على مسائلهم الخاصة ، فانها لا ترى مناصا من أن تأخذ الأمر بيدها وفقا للسياسة التى قررتها فى شأن الإصلاح الدستورى . وفى سنة ١٩٣٥ صدر قانون جديد للهند ينظم أوضاعها الدستورية ، وهو ينص على أن يكون للولايات الهندية حكومات برلمانية مسئولة ، وأن تقوم جمعية تشريعية اتحادية تمثل الهند البريطانية والولايات المستقلة معا ، وأن توضع السلطة التنفيذية فى يد وزراء مسئولين أمام الجمعية التشريعية ، وأن يحتفظ الحاكم العام – نائب الملك – بالإشراف على شؤون الدفاع والشؤون الخارجية . على أن هذا القانون الذى يمثل أقصى ما ذهبت إليه السياسة البريطانية فى مسألة الاستقلال الذاتى لم يتح له أن ينفذ تنفيذا تاما ؛ لمعارضة أمراء الولايات المستقلة فى نظام الحكومة الاتحادية . وعلى ذلك فقد استمر النظام الدستورى القديم (نظام سنة ١٩١٩) نافذا فيما يتعلق بتشكيل الحكومة المركزية حتى قامت الحرب العالمية الثانية .

المرحلة الثالثة

وهنا يعيد التاريخ نفسه ، وتجد بريطانيا نفسها للمرة الثانية مشتبكة فى صراع مميت مع ألمانيا وحلفائها ، وتجد الهند نفسها المرة الثانية وقد دُفعت إلى خوض حرب لم تردها ، وسخِّرت مواردها ومئات الألوف من أبنائها لمؤازرة بريطانيا والدفاع عن الإمبراطورية البريطانية . وكان موقف الهند فى هذه المرة أخطر وأدق ، نظراً لخطورة الأحوال فى الشرق الأقصى ، وما تنطوى عليه خصومة اليابان لبريطانيا ، حتى قبل أن تقع الحرب بين الدولتين ، من الاحتمالات الخطيرة . وهنا بادرت السياسة البريطانية كما فعلت أثناء الحرب الكبرى إلى بذل وعودها المعسولة . ففى أغسطس سنة ١٩٤٠ أعلن نائب الملك اللورد لنلثجو أن الحكومة البريطانية تقطع على نفسها عهدا بأن تمنح الهند نظام « الدومنيون » أو الأملاك المستقلة ، ولكن بشرط أن يتحقق الاتفاق بين الطوائف الرئيسية ؛ لأن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تفوض السلطة إلى أى حزب لا تعترف بسلطانه أقليات ذات شأن ؛ وأن هذا العهد الجديد الذى يمنح الهند الاستقلال الذاتى سوف ينفذ عقب انتهاء الحرب مباشرة ، وسيضطلع الهنود أنفسهم بوضع الدستور الهندى الجديد .

وبالرغم مما ينطوى عليه هذا العهد الجديد من تقدم واضح فى تحقيق الأمانى الهندية ، فقد بدا يومئذ فى ثوبه الحقيقى عهدضرورة ملحة كمعظم العهود التى تقطعها السياسة المرنة تحت ضغط الحاجة الطارئة . ومن ثم فقد استقبلته الهند بفتور ظاهر . ولما رأت الحكومة البريطانية أنها لم تصل إلى الغرض المنشود فى التهدئة أوفدت وزيرا لامعاً من وزرائها هو السير ستافورد كربس إلى الهند فى مارس سنة ١٩٤٢ ؛ ليروج للمشروع الجديد ، وليقنع الزعماء الهنود بحسن نية بريطانيا . وكانت الأمور قد تفاقمت يومئذ فى الشرق الأقصى . ولم يمض على إعلان اليابان الحرب على بريطانيا وأمريكا بضعة أسابيع حتى سقطت سنغافورة وجزائر الهند الشرقية ، وأخذ الزحف اليابانى فى البر والبحر يهدد الهند نفسها ، ولم تُجْد محاولات السير كربس فى الإقناع والتهدئة شيئا ، بل على العكس اضطرمت الهند بفورة جديدة من الاضطرابات والقلاقل ، وطالب حزب المؤتمر بإقامة الحكومة الهندية المسئولة فى الحال ، وهدد غاندى بالانفاق

مع اليابان كما هدد بالعصيان والثورة . فعندئذ بادرت الحكومة بالقبض على غاندى وزملائه واعتقلوا حتى نهاية الحرب . ولبث الموقف على خطورته مدى حين . وفى سنه ١٩٤٣ تولى اللورد ويفل منصب نائب الملك ، وحاول مرة أخرى أن يقيم حكومة هندية مسئولة من جميع الأحزاب ، ولكنه لم يوفق ؛ لمعارضة حزب الرابطة الإسلامية ، وإصراره على أن يكون جميع الوزراء المسلمين من أعضائه . وهكذا أخفقت جميع المحاولات البريطانية للبدء فى تنفيذ السياسة الدستورية الجديدة . وانتهت الحرب العالمية الثانية وقد بذلت الهند فيها أضعاف ما بذلته فى الحرب الكبرى من الموارد والرجال ، ولكنها ما زالت أبعد من أن تظفر بتحقيق شئ من أمانيها التى تكررت بشأنها عهود السياسة البريطانية .

الموقف الحالى

ولما تولى حزب العمال البريطانى الحكم فى يوليه سنة ١٩٤٥ صرحت الحكومة البريطانية الجديدة فى خطاب العرش بأنها ستبذل أقصى جهدها لتحقيق الحكم الذاتى الكامل للهند فى أقرب وقت . وفى شهر مايو الماضى أوفدت الحكومة البريطانية بالفعل إلى الهند لجنة وزارية جديدة برآسة لورد لورنس وزير الهند ، ومن أعضائها السير ستافورد كربس وزير التجارة ، وتقدمت هذه اللجنة إلى الهند بمشروع جديد ، خلاصته أن تؤلف فى الحال حكومة قومية مؤقتة للهند يتولى الهنود جميع الوزارات فيها ، وأن تقوم بوضع الدستور الهندى الجديد جمعية تأسيسية تمثل فيها الطوائف الثلاث الكبرى : الهندوس والمسلمون والسيخ ، كل بحسب نسبتها العددية فى سائر الأقاليم على أن يمثل كل نائب مليوناً من الأنفس . أما قواعد الدستور الأساسية فتتلخص فى وجوب إنشاء اتحاد هندى يضم الهند البريطانية والولايات المستقلة مع اختصاص مشترك فى شؤون الدفاع والمواصلات الخارجية ، وإنشاء مجلس تشريعى مشترك يضم ممثلى الهند البريطانية والولايات المستقلة ، وأن تحتفظ الولايات بالإشراف على الشؤون المحلية الأخرى الخارجة عن اختصاص الاتحاد ، وأن تؤلف حكوماتها الخاصة . ولكل ولاية أن تطالب تعديل الدستور الجديد بعد مرور عشرة أعوام وذلك بأكثرية الأصوات . ويستبعد الدستور الجديد مشروع «الباكستان»

أو مشروع الدولة الإسلامية المنفصلة التى تنادى به أغلبية كبيرة من المسلمين .

ولا بد لنا هنا أن نشير بكلمة موجزة إلى مشروع « الباكستان » هذا الذى كثر الحديث عنه فى الأعوام الأخيرة . فكلمة « باكستان » تتألف من الحروف الأولى لأسماء الولايات الهندية الإسلامية ، وهى بنجاب وأفغان وكشمير والسند وترمز « تان » إلى بلوخستان ، وتقع هذه المقاطعات كلها فى شمال الهند الغربى ، وتضم كتلة إسلامية تبلغ زهاء ستين مليوناً . وللمسلمين أغلبية نسبية أيضاً فى مقاطعتى أسام وبنغالة فى شرقى الهند . وترى الأكثرية المسلمة التى يمثلها حزب الرابطة الإسلامية أن تؤلف من هذه الولايات المسلمة دولة إسلامية منفصلة هى التى يرمز إليها بمشروع « الباكستان » ، وأن تحقيق هذا المشروع هو خير ضمان لحقوق المسلمين الطائفية ، وخير كفيل بحمايتهم من طغيان الأكثرية الهندوسية الساحقة . ويؤيد المسلمون تمسكهم بالضمانات الطائفية بأسباب أدبية ومادية . أما البواعث الأدبية فترجع إلى أن لهم تاريخاً مجيداً وحضارة إسلامية عريقة ترجع إلى أيام سلطانهم وسيادتهم على الهند كلها . وأما البواعث المادية فترجع إلى تجاربهم المرة مع الأكثرية الهندوسية كلما أتيح لها أن تعمل باسم الأغلبية ؛ فهى تعمل دائماً على غمط حقوقهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . وقد ظهر هذا الطغيان الطائفى بأجلى صورة منذ قيام حكومة حزب المؤتمر فى المناطق التى توجد فيها أكثرية هندوسية ، تطبيقاً لقانون الهند الجديد . ولا يريد المسلمون أن يتخلصوا من السيطرة الإنجليزية ليقعوا تحت سيطرة الهندوس الطائفية . فهذه البواعث كلها تحملهم على التمسك بمبدأ التمثيل الطائفى والضمانات الطائفية .

ولذلك لم يبد المسلمون حماسة فى تأييد المشروع الدستورى الجديد ؛ لأنه يأخذ بنظرية التمثيل العددى ولا يأخذ بمبدأ التمثيل الطائفى ، ولا يقدم أية ضمانة حقيقية للأقلية الإسلامية الكبرى التى تبلغ زهاء تسعين مليوناً . ولم تسفر المفاوضات التى دارت بين اللجنة الوزارية البريطانية وبين حزب المؤتمر الذى يمثل الأكثرية الهندوسية ، وحزب الرابطة الإسلامية الذى يمثل الأكثرية المسلمة عن الاتفاق على وسائل تنفيذ المشروع الجديد من إقامة الحكومة الهندية المسئولة والجمعية التأسيسية التى تتولى وضع الدستور

الهندى . ولا يبدو أن هناك أملا فى الاتفاق المنشود مادام الخلاف قائماً بين المسلمين والهندوس على مبدأ التمثيل الأساسى .

والظاهر أن حكومة العمال البريطانية إذا ما يئست من الاتفاق مع الهنود أنفسهم قد تعمد إلى مثل ما عمدت إليـه فى سنة ١٩٣٠ على أثر إخفاق مؤتمر المائدة المستديرة ، فتأخذ الأمر بيدها ، وتحاول أن تقوم بتنفيذ السياسة الدستورية الجديدة من جانبها معتمدة على بعض العناصر الهندية الأكثر اعتدالا .

تلك هى أطوار المسألة الهندية منذ بداءتها ، وهذا هو المدى الذى استطاعت السياسة البريطانية أن تذهب إليه فى محاولة حلها ، وذلك خلال ثلاثين عاماً أو تزيد تكررت فيها وعودها وعهودها المأثورة .

محمد عبد الله عنان

من ذكريات جبل رضوى

[الواقع فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة إلى الجنوب ، فى رحلة جلالتى المليكين المعظمين فاروق وعبد العزيز . وهذه القصيدة وصف لذكريات مباهج البادية فى صحراء تلك الرحلة الشائقة على شاطىء البحر الأحمر .]

طوينا إليك البيد حين نسير ... وفى الصدر منا لوعة وزفير
نسائل عن رضوى ، وما أنت قصدنا ... ولكن لنا بالسفح منك أمور
تشامخت فى الأعنان تبغى سماءها ... كأن لم يكن بالمأزمين « ثبير » (١)
كأنك فى تلك المنازل مفرد ... وما لك فى ذاك الشموخ نظير
ونحن نعد السير نطوى فيافياً ... وبيدا ، ويحوينا ضحى وبكور
فطورا بسيف البحر مالت ركابنا ... وطورا بأحقاف الرمال تغور
نسير خفَافاً ننهب البيد تارة ... وطورا على وحش الفلاة نغير
فكم ربرب رعناه والسرب آمنٌ ... وكم جؤذر جئناه وهو يسير
مشينا إلى أسرابها وهى رُتّعٌ ... نعاجلها بالقنص حين تحور
تروح الظباء الغر عنا تهاديا ... بها مَيَل فى عطفها وغرور
نراوحها ذات اليمين ، فإن أبت ... قراراً فمن ذات اليسار ندور
فما هى إلا لحظة ثم لحظة ... وأخرى ، وإذ بالسرب وهو أسير
يَقَرُّ به الصياد عيناً وغبطةً ... ويطعم منه جائع وفقير

لكِ الويل يا تلك الظباء ، فإنها ... شبيهاتها فى المحصنات تدور
ولا فرق إلا أن تلك كِناسها ... فلاة ، وتلكم فى المدائن دور

(١) ثبير : جبل مشهور فى منى .

وفى النفس ما فى النفس من صبواتها ... ومن عبث الأهواء حين تجور
وما العيش إلا صبوة أو علالة ... وما هو إلا نعمة وحبور

ولما بدا المخيام للركب أشرقت ... مباهج أنس جمة وسرور
تراءى كأسراب الحمائم جُثَّماً ... طيور ، تباريها هناك طيور
تناثر فيه الكهرباء كأنها ... نظيم ، بلبات الحسان ، نثير
ففى الصبح وضاح الأسِرَّة مشرق ... وفى الليل وهاج الأسرَّة نور

فياسفح رضوى جادك المزن والحيا ... وحياك منهلٌ السحاب غزير
وياسفح رضوى كنت بالأمس مغفلا ... وما لك فى سمع الزمان عبور
وكنت وما فى الناس عنك مسائل ... وذكرك دون الأصغرين يسير
ولكنها الأيام فيما يرونها ... تداور أحداث الورى وتدور
فهاك يُثار اليوم ذكرك خافقاً ... وكلٌّ إلى ما فى رُبَاك يشير
تطلَّعت الأنظار نحوك فجأة ... وأصغى إلى نجوى رباك ضمير
أضفت إلى التاريخ سِفراً مجدداً ... له فى سجل الخالدين سطور
فيا لك من واد فسيح مُنَضَّر ... به روضة فياجة وغدير
ويالك من روض به السفح مونقٌ ... بهيج بأعلى التلعتين نضير
فإن أنس لا أنسى بسيفك شاطئاً ... يقوم عليه سبسبٌ وصخور
جواهره فى منظر العين تُشْتهَى ... لتزدان منها أذرعٌ وصدور
وأصدافه من خالص الحسن لؤلؤ ... تمنته من غيد الملاح نحور
جلسنا إلى نجواك نصغى لهمسها ... وما هى إلا ضفة وخرير
جلسنا وقرص الشمس يبدو اصفراره ... يجر إليك الذيل وهو كسير
فما هو إلا أن حوته لفائف ... من الموج ، فانثالت عليه بحور
وما هو إلا أن أطل مكانه ... من الأفق بدر فى السماء منير
فيا من رأى بحراً وبدراً كلاهما ... مع البيد فى ليل الربيع سمير

[مكة] ... فؤاد شاكر

بريطانيا وسر قوتها

من حق حليفتنا العظيمة علينا أن نتناولها بشيء من البحث بين حين وحين. فقد ارتبط تاريخنا القومي بتاريخ بريطانيا وإمبراطوريتها ارتباطاً مباشراً خلال هذه السنوات السبعين الأخيرة، وارتباطاً غير مباشر فيما سبق ذلك من سنين. بل إن ما بيننا وبين تلك البلاد من أسباب إنما يرجع إلى أيام أن سعى البريطانيون إلى أرض مصر يحاربون على أبوابها أسطول نابليون أيام الحملة الفرنسية . . . ولقد كنا ننظر إلى بريطانيا خلال هذه السنوات الطويلة نظرات تختلف بين الصداقة حيناً والعداء أحياناً؛ حتى استقرت بنا الحال آخر الأمر فاتخذنا منها حليفة عظيمة، أخلصنا لها الصداقة فى كثير من أوقات المحنة وساعات الشدة، وإن كانت لم تذكر لنا كل ما ينبغى أن تذكره أيام السلم وساعات الرخاء. ولسنا نود فى هذا المقال أن نتناول ما بيننا وبينها من أسباب قد يختلف فى تقديرها الناس، فيرى فريق منهم أنها تقوم على أساس من المصالح الحقيقية والمنافع المتبادلة، ويرى فريق آخر أنها تقوم على صداقة من ذلك النوع الذى قال فيه الشاعر إنه ليس منه بد. وإنما نود أن نسجل أن هذه الأسباب والصلات، مهما يكن مردها ومرجعها، فإنها تفرض علينا — ولمصلحتنا نحن — أن نحاول أن نتعرف شيئاً عن تاريخ بريطانيا الحديث؛ لعلنا أن ندرك بعض مصادر القوة وأسرارها فى حياة هذه الحليفة التى كان لها أثر خطير فى توجيه كثير من شؤوننا القومية فى العهد الحديث. وخير لنا فيما نحن بسبيله من جهاد أن نكون بصيرين بهذه القوة التى ندافعها وتدافعنا من أن نغض الطرف عن أسرارها، ولا نبالى بمعرفة شيء عنها.

وبريطانيا جزيرة صغيرة، تجاورها جزيرة أخرى أصغر منها، وعدد من الجزر المنتشرة حولها فى الجنوب والغرب والشمال. ولا تكاد تجاوز مساحتها جميعاً ١٢٥,٠٠٠ ميل مربع، أو أقل من ¼ ٪ من سطح اليابس؛ ولا يكاد

سكانها جميعاً يجاوزون ٥٠ مليوناً أو حوالى ٢½ ٪ من مجموع سكان الأرض.
وتقع تلك المجموعة من الجزر فى منطقة نائية بالنسبة للعالم القديم ؛ فهى فى أقصى شمال أوربا الغربى ، بعيدة عن قلب العالم ، حيث نشأت الحضارات القديمة ، وحيث ظهر التاريخ وازدهرت المدنية فى وقت كانت فيه تلك الجزر فى دور بدائى ، وكان أهلها يعيشون على هامش الحياة ، يسكنون الكهوف أو ما يشبه الكهوف ، ويعيشون على صيد البر والبحر ، وعلى شىء قليل من الجمع والالتقاط ، قد انزووا فى جزرهم النائية بعيداً عن العالم ، وقبعوا هناك لا يعرفون شيئاً عن الناس ، ولا يكاد الناس يعرفون عنهم شيئاً .

وبقيت الحال كذلك حتى عهد الكلتيين الذين سبقوا الرومان ووطدوا العلاقة بين بعض أجزاء بريطانيا الغربية وبين شمال فرنسا وغربها . ثم جاء الرومان أنفسهم فغزوا بريطانيا ، وفتحها يوليوس قيصر ، وامتد استعمار الرومان حتى أطراف أسكتلندة الجنوبية ، ونفذت معه بعض معالم المدنية الرومانية إلى الجزر البريطانية ، ثم تلا ذلك اتصال متعاقب بين الجزر والقارة ، فوصلت بعض موجات من الغزاة والفاتحين والمهاجرين من النرمنديين والسكسونيين وغيرهم . ومع ذلك كله فقد بقيت الصلة بين بريطانيا والقارة ضعيفة محدودة ، حتى جاءت النهضة الحديثة ، فأخذت بريطانيا معالمها عن القارة ، وعاصر ذلك إلى حد كبير ظهور الاستكشافات البحرية إلى أمريكا والهند وغيرها من بقاع الأرض فيما وراء البحار ، وسعت أوربا حثيثاً إلى أن تتصل بالعالم الخارجى لتتجر معه أو لتستعمره . وهنا برزت قيمة الموقع الجغرافى للجزر البريطانية كمحطة عند باب أوربا الخارجى فى عرض المحيط ، وبدأت بريطانيا رويداً رويداً تتزعم حركة التوسع الأوربى إلى الخارج ، فبنت قوتها البحرية العتيدة ، وتغلبت على الأسبان والهولنديين وغيرهم ممن حاولوا التحكم فى مخارج البحر ومسالكه . ثم جاءت فى أعقاب ذلك النهضة الصناعية المعروفة ، التى ساهم فيها العلم والتطبيق العملى ، فظهر لون جديد من المدنية المادية التى تستند إلى استغلال موارد القوى المحركة والصناعة الآلية فى نطاق متسع . وهنا أيضاً برزت قيمة بريطانيا التى جمعت إلى غناها بالموارد المعدنية الصناعية اتصالها الوثيق بالعالم الخارجى ، حيث يمكن استجلاب المواد الخام التى لا تنتجها أوربا ، حيث يمكن تصريف المصنوعات الحديثة فى أسواق لم يكن

من العسير استغلال أهلها فى تجارة ، لا يمكن أن يستوى فيها جهل المشترى وغفلته ، بعلم التاجر وفطنته . وهكذا انتهى الأمر بأن غدت بريطانيا دولة قوية ، بل نواة لإمبراطورية امتدت فيما وراء البحار ، حتى صارت أوسع إمبراطورية عرفها التاريخ .

وقد لا يكون من اليسير تعليل هـذا الدور الكبير الذى كتب لبريطانيا وجزرها الصغيرة أن تلعبه فى تاريخ العالم الحديث ، والذى لا يتناسب مع ما نعرف عن هـذه الجزر من صغر المساحة وقلة السكان ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نعرض لعدد من العوامل الأساسية التى مهدت لهذا الدور . وبعض هذه العوامل طبيعى ، يتصل بطبيعة الجزر نفسها وبمواردها الطبيعية ومناخها وموقعها الجغرافى وغير ذلك ، وبعضها الآخر بشرى يتصل بالسكان وتكوينهم ومقدرتهم على استغلال ظروف البيئة والموقع الجغرافى . بل إن بعض تلك العوامل لا يتصل ببريطانيا ذاتها ، ولا بأهلها وحدهم ؛ وإنما يمتد إلى خارج الجزر ، فى القارة المجاورة ، أو بعيداً عنها فيما وراء البحار .

والذى يدرس الجزر البريطانية دراسة مفصلة لا يلبث أن تأخذه حقيقة جغرافية رائعة . . . ذلك أن هذه الجزر على صغرها معقدة التركيب والتكوين إلى حد غريب ؛ فهى مكونة من صخور مختلفة ، يرجع أقدمها إلى أبعد الأزمنة الجيولوجية ، ويرجع أحدثها إلى الزمن الجيولوجى الأخير ، وهى تكاد تشمل الأزمنة والأعصر الجيولوجية جميعاً . ثم إن هـذا التنوع فى أعمار الصخور وعصور تكوينها يزيد من تعقيده أن الصخور من أنواع مختلفة ، منها النارى والرسوبى والمتحول ، ومنها الطينى والرملى والجيرى وغير ذلك . وقد كان لهذا التنوع والتعقيد فى أنواع الصخور وأعمارها ، وكذلك فى تركيبها وبنيتها ، أثره الكبير فى غنى الثروة المعدنية وتوافرها . ومن المسلم به أنه كلما تباينت الصخور وتنوعت زاد احتمال العثور على المعادن ذات القيمة الصناعية بين طبقاتها . ولو أن بريطانيا كانت بسيطة التكوين نسبيًّا ما توافرت لها كل تلك الثروة المعدنية التى كانت أساس النهضة الصناعية فى العهد الحديث . . . بل ما توافرت لها بعض المقومات الاقتصادية الأخرى التى ترجع إلى التكوين الجيولوجى ، ومنها جودة التربة الركامية وغيرها فى المناطق السهلية ، والجهة الجنوبية الشرقية من انجلترا بصفة خاصة ، مما يسر لبريطانيا فى بعض فترات أن

تضاعف إنتاجها الزراعى فى الأغذية ، كما حدث إبان هذه الحرب المنتهية .

وإلى جانب هـذا التنوع فى التكوين الجيولوجى للبيئة البريطانية ، هناك تنوع آخر فى التكوين البشرى لسكان تلك الجزر . فبريطانيا وأخواتها جزر يفصلها عن القارة بحر ضيق ، عبرته دفعات متتالية من المهاجرين الذين استقرت بهم الحال هناك ؛ فهى لم تكن فى تاريخ عمرانهـا الجنسى مجرد معبر أو طريق هجرات ، كما حدث فى بعض جهات القارة ، وإنما تجمعت فيها العناصر المختلفة ، واختلط بعضها ببعض ، حتى إنه ليقال عن البريطانيين كما نعرفهم الآن إنهم يتكونون فى الأصل من ثمانى سلالات متباينة ؛ فمنهم النوردى الأشقر الممشوق القامة ، والذى أتى من اسكندناوة وأقصى شمال أوربا ؛ ومنهم الألپى الربعة العريض الرأس ، الذى أتى من وســط القارة ؛ ومنهم عنصر البحر الأبيض المتوسط المعتدل القوام الأسمر الشعر والبشرة ، والذى أتى من جنوب أوربا الغربى ، ووصل بريطانيا دائراً مع البحر والساحل ؛ ومنهم السكسونيون والنرمنديون وغيرهم من العناصر المختلطة الدم والتكوين ، والتى لايتسع المقام هنا لسردها وذكر أصولها وأنسابها وطرق هجراتها قبل أن تبلغ هامش القارة .

ولـكن الشئ المهم أن هذا التنوع الجنسى فى تكوين البريطانيين معناه تنوع الملـكات والاستعداد بين سكان الجزر . ومع أن هذا التنوع والاختلاط كان مصدر تفكك وضعف بين السكان فى العهود القديمة وبعض العهود الوسيطة ، فقد استحال بالتدريج إلى امتزاج وتزاوج بين العناصر المختلفة ، تحقق معه فى العهد الحديث مايسميه البريطانيون «الوحدة فى التنوع» unity of diversity وبذلك صار تنوع العناصر واختلاف الســلالات بين سكان الأمة المتحدة أو المملـكة المتحدة فى انجلترا واسكتلندة وبلاد الغال وإيرلندة (أو جزء منها) وبقية الجزر المتناثرة ، عامل قوة وتماسك فى العهد الحديث ، بعد أن كان عامل ضعف وتفكك فى العهود السابقة .

وهنا لابدّ لنا من أن نشير إلى نظرية جنسية كثر الـكلام عليها فى السنوات الحديثة . تلك التى تقول بضرورة نقاء الجنس أو السلالة ليصبح التكوين القومى للأمة متجانساً قويـًا . وقد حاولت الفلسفة النازية فى ألمانيا الهتلرية أن تطبق تلك النظرية فى شىء كثير من المغالطة العلمية ؛ فادعت أن الألمان آريون ، أو أنهم على الأقل ينبغى أن يكونوا جميعاً من الآريين الخالصين . ومع أن لفظ

« آرى » هذا ليست له على التحقيق دلالة جنسية صادقة ، نظراً لاختلاط الدماء والسلالات بين المجموعة الآرية من بنى البشر ، فإن الألمان النازيين قد تمكنت منهم فلسفة النقاء الجنسى إلى درجة التعصب ، فعملوا على إقصاء كثير من العناصر غير الآرية ، بصرف النظر عما قد يكون لها من قيمة فى تكوين الأمة الألمانية . أما البريطانيون فقد كانت نظريتهم على نقيض ذلك تماماً ؛ فهم قد استمسكوا « بوحدتهم المتنوعة » ؛ وهم قد نظروا إلى اختلاط الدماء فيهم على أنه مصدر قوة يعتز بها ويحافظ عليها ؛ ولا بأس — بل قد يكون من الخير — أن يُداوم على تغذيتها بدماء جديدة من الخارج . ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن الأيام والتجربة قد أثبتت صحة النظرية البريطانية ورجحانها على نظرية النقاء الجنسى . . . ولعل هذه الأيام والتجارب نفسها تزيد من إثبات نظرية الاختلاط والتنوع عندما يزداد بروز قيمة هذا العامل فى مستقبل بلاد كالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى ، حيث تتنوع السلالات وتختلط الدماء إلى حد يفوق فى مداه ومقداره ماحدث فى بريطانيا على نطاق مصغر .

إذن كان هناك تنوع فى مظاهر البيئة الطبيعية فى بريطانيا ، يعادله تنوع فى سلالات السكان ومزاياهم ومؤهلاتهم . على أننا فى استعراض التكوين الجنسى لسكان هذه الجزر ينبغى أن نلحظ أثر البحر الذى يفصل بين بريطانيا والقارة ؛ فهو لم « يقطع » صلة الجزر بالقارة تماماً ، وإنما « نظّم » تلك الصلة ، وكان بمثابة المصفاة للعناصر والهجرات التى تقدمت من ناحية الشرق واتجهت غرباً ، حتى إذا ما وصلت إلى شواطىء أوربا وحافتها الغربية قعدت العناصر الخاملة والقانعة منها ولم تشأ أن تغامر فتعبر البحر إلى جزر لا تعرف من أمرها وظروف المعيشة فيها شيئاً ؛ أما العناصر المخاطرة والمغامرة فلم يقعدها البحر ، وإنما كان حافزاً لها على أن تستطلع ما وراءه . وهكذا كان البحر مصفاة كما ذكرنا ، فلم يصل إلى بريطانيا على وجه العموم غير العناصر المخاطرة التى لايخيفها البحر ولا تقعدها أخطاره . ولعلنا نجد فى ذلك مايفسر لنا نشاط أهل بريطانيا فى العهد الحديث ؛ فهم قد تجمعوا فى جزرهم ، حتى إذا ما تهيأ الظرف المناسب وحانت الفرصة المواتية بعد عصر الاستكشافات البحرية وظهور الاستعمار ، انتشر سكان بريطانيا المنحدرون من سلالة أولئك المخاطرين الأول ، فجابوا وجه الأرض ، وكوّنوا إمبراطوريتهم المترامية الأطراف فيما وراء البحار ،

وعمروا كثيراً من أقطار العالم الخالية إذ ذاك فى أمريكا الشمالية واستراليا وزيلندة الجديدة وجنوب إفريقية وغيرها . . . ولو أن سكان بريطانيا كانوا كغيرهم من سكان الشواطىء المواجهة من أوربا الغربية ما استطاعوا أن يقوموا بذلك الدور الاستعمارى الفريد ، وعلى الوجه المعروف فى التوسع البريطانى ، الذى كان لابد أن يقوم به عنصر عريق فى المغامرة وركوب الأخطار .

وهناك عامل آخر كان له أكبر الأثر فى شحذ نشاط سكان بريطانيا ، وفى حفز هممهم على العمل والكفاح الذى يتطلبه العهد الحديث وحضارته المادية . ذلك أن المناخ هنا من ذلك النوع المعتدل البارد الذى يعين على النشاط الجسمانى ، ويستلزم الحركة الدائبة ؛ فلا هو مناخ حار يتراخى له الجسد ، وتخمد الهمة وتفتر الحركة ، ولو فى فصل من العام ؛ ولا هو مناخ قارس يجمد له الجسم وتشل الحركة ويقف العمل فى أشهر الشتاء ؛ وإنما هو مناخ بارد قد لطفه المحيط وتياراته الدفيئة ، بحيث أصبح مناسباً أشد المناسبة للعمل الدائب والجهاد الذى لايكاد يأخذه إجهاد . وفوق ذلك كله فهو مناخ قُلّب ، تتنازعه مؤثرات القارة المتطرفة ومؤثرات المحيط الملطفة ، فيؤدى ذلك إلى كثرة التغيير فى ظروف الطقس من يوم ليوم ، بل من ساعة لأخرى ؛ كما يؤدى إلى كثرة الزوابع والأعاصير التى لايستقر معها الجو على حالة واحدة . وبهذا كله أصبح الطقس غير مضمون ، ولا يمكن التنبؤ به ؛ فعلّم ذلك السكان الحذر وبعد النظر ، بل عدم التواكل وشدة الاحتياط ؛ كما علّمهم الجلد والمصابرة وترقب الفرج مهما طال انتظاره . وهذه كلها صفات نلمسها فى الخُلق البريطانى ، إذا ما نحن درسناه عن كثب . . . والمدهش الغريب — أو لعله ليس غريباً — أن البريطانيين فوق استجابتهم لمقتضيات مناخهم وطقسهم الخاص ، قد شعروا فيما بينهم وبين أنفسهم بما لهذا المناخ والطقس من قيمة ينبغى أن يُعترف بها اعترافاً شعبيًّا ؛ فصار الجو والطقس حديثهم اليومى المعتاد ، لايكاد يلقاك أحدهم حتى يبادرك بالتحدث عنهما ، حديثاً ملؤه التبرم الهادىء الرزين ، أو الرضا الذى لايجنح إلى إسراف ، أو الأمل المقتصد فى أن تتحسن الحال !

ثم عامل طبيعى آخر كان له أثره الظاهر هو الموقع الجغرافى لهذه الجزر على حافة المحيط فى شمال القارة الغربى . وقد أثر هذا العامل فى نواح ثلاث : أولاها ما كان من أن بحر الشمال ومياه المانش لم تقطع الصلة بين الجزر والقارة ، وإنما

« نظمت » الاتصال بينهما على نحو مافعلت الصحراء المصرية مثلا بين وادى النيل وبقية بلدان الشرق . . . وقد ترتب على ذلك أن بريطانيا أفادت من صلاتها بأوربا ، فوصلتها معالم المدنية الأوربية من جنوب القارة ووسطها وشمالها ، ولكن وصول تلك المعالم كان على دفعات متقطعة وبمقادير محدودة لم تطمس شخصية أهل الجزر ، الذين استطاعوا أن يحتفظوا على الدوام بطابعهم الحضارى الخاص . ولعل هذا هو السر فيما عرف عن البريطانيين من روح التحفظ بإزاء القارة ؛ فهم يتصلون بها ويأخذون عنها ويتدخلون فى شؤونها بين حين وحين ، ولكنهم مع ذلك لايندمجون فيها ، بل ينظرون إلى جزرهم على أنها ذات كيان مستقل وشخصية قائمة بذاتها ؛ فاتصالهم بأوربا يجب أن يبقى فى نظرهم داخل حدود معينة ونطاق مرسوم لايتعداه إلى خصائص الحياة البريطانية .

وأما الناحية الثانية التى أثر فيها الموقع الجغرافى للجزر البريطانية ، فتتمثل فى أنها تقع عند أبواب القارة البحرية فى الشمال الغربى . وقد انتقل مركز المدنية فى أوربا الحديثة إلى سهولها الشمالية ؛ وبذلك انتقل المدخل الأساسى للقارة فى احتكاكها مع العالم الخارجى من سواحل البحر المتوسط وأشباه جزره إلى سواحل الأطلسى فى شمال أوربا الغربى ، وتحكمت بريطانيا بفضل موقعها الجغرافى فى ذلك المدخل ؛ فكانت مثلاً فى أيام استعمار أمريكا محطة للسفن الخارجة من أوربا والمنطلقة نحو أمريكا تحمل المهاجرين ، ولتلك القادمة من الغرب تحمل السلع والمنتجات التى تفرغ فى موانى بريطانيا استعداداً لنقلها إلى سفن أخرى تتولى توزيعها على الموانى الأوربية . وهكذا تولت بريطانيا وموانيها مهمة الوساطة البحرية والتجارية بين أوربا وأمريكا من جهة ، ثم بين أوربا وبقية المستعمرات فيما وراء البحار من جهة أخرى . وقد عرف البريطانيون كيف يفيدون من هذه الوساطة إلى أبعد الحدود ، فنما أسطولهم التجارى ، وازدهرت موانيهم وأسواقهم ، ومنها لندن ذاتها التى صارت فيما بعد ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، مركزاً هامًّا من مراكز التسويق والمعاملات التجارية والمالية . . .

ومعروف أن التجارة والاشتغال بشؤون المال والقراطيس من أربح المهن وأبلغها اتصالاً بالحياة والعلاقات الدولية الحديثة . وقد استطاعت بريطانيا بسبقها فى هذه الشؤون أن تدعم مركزها العالمى بين الأمم إلى حد كبير ؛ وساعدها من ناحية التجارة والملاحة البحرية العالمية أن شعبها بحرى بحكم

تكوينه ، وأن شواطئها غنية بالمرافئ الطبيعية ، وبمصبات الأنهار الواسعة والصالحة للملاحة ، وأن تيار الخليج الدفىء يدور من حولها ، فيدفئ مياهها ويمنع تجمدها وعرقلة الملاحة فيها فى أشهر الشتاء . وبذلك كله كانت الطبيعة عوناً للإنسان فى بناء قوة بريطانيا الملاحية .

وأما الناحية الثالثة التى أثر فيها الموقع الجغرافى لجزر بريطانيا فهى الناحية العسكرية . ذلك أن البحر الذى يفصل بين الجزر والقارة أضفى على بريطانيا نوعاً من الوقاية والأمان . وقد كان على بريطانيا أن تشارك فى مشكلات القارة وحروبها الكثيرة فى العهد الحديث ؛ ولكنها بحكم إحاطة البحر بها ، وبما تجمع لها من قوة البحر وعُدَّته ، كانت تلاقى أعداءها على صفحة الماء إن كان لهم من الأساطيل ما يشجعهم على تحديها أو محاولة قهرها ، كما حدث أيام حرب الأرمادا التى شنها الأسبان ، أو فوق أرض القارة وفى ميادين الأراضى الوطيئة وشمال فرنسا وأسبانيا وغيرها إن قعد العدو فى أوربا ولم يكن له من الأساطيل ما يناظر قوة بريطانيا سيدة البحار . ولذلك كله فإن أرض الجزر البريطانية ذاتها لم تكن فى يوم من الأيام ميدان حرب أوربية ، وإنما كانت بريطانيا تتخذ ميادينها البرية فى أرض غيرها من دول القارة التى أصابها الدمار والخراب مرة تلو مرة ؛ وحتى فى هذه الحرب المنتهية لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوى فى الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومرافقها العسكرية والمدنية على حد سواء . وهكذا استطاعت بريطانيا ، بفضل هذه الميزة الكبيرة ، أن تخرج من حروبها الكثيرة سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادى ، على عكس أمم أوربا البرية التى اكتوت مدنها وقراها ومصانعها بل حقولها بنيران الحرب فى الميدان ، والتى كان عليها عقب كل حرب أن تنفق السنين الكثيرة فى إصلاح ما خربته الحرب قبل أن تقف على قدميها وتجاهد جهاد الأقوياء .

بل هكذا كانت بريطانيا أسبق من غيرها إلى النهوض فى سنوات السلم ، واستعادة أسباب الرخاء والمنافسة القوية فى الشؤون الخارجية والتوسع الاقتصادى العالمى ؛ لأنها كانت تخرج فى أعقاب الحروب — وعلى وجه الإجمال — دون أن تمس أرضها أو مرافقها المادية بشىء يذكر ؛ فكأن كل حرب أوربية ساهمت فيها بريطانيا — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — كانت تضيف إلى

مقدرتها على المنافسة العالمية بالنسبة لغيرها من أمم أوربا المكافحة ، والتى كثيرا ما شغلتها شؤونها الداخلية فى أعقاب الحرب وألهتها ، ولو لِى حين ، عن أن تنافس فى ميدان التوسع الأوربى خارج القارة .

إلى هذه الأسباب جميعاً يرجع السر فى قوة بريطانيا وسبقها فى العصر الحديث . وهناك من غير شك أسباب أخرى — سياسية وتاريخية على وجه الخصوص — لم نحط بها ولم نشر إليها فى هذا المقال . ولكن ما أتينا به من المقومات الطبيعية والبشرية يكفى لنتفهم منه أن ما تجمَّع لبريطانيا من القوة لم يأت نتيجة المصادفة ، وإنما هو قد ترتب على توافر عدد من العوامل والأسباب التى كانت تعمل متداخلة متكاملة ، والتى أتم بعضها بعضا حتى استطاعت هذه الجزر الصغيرة وسكانها المحدثون فى المدنية والمحدودون فى العدد أن يكوّنوا أمة قوية غنية ، قادرة على أن تسبق غيرها من الأمم الحديثة فى ميادين العمل والجهاد والتوسع والاستعمار ، بل قادرة أن تتخذ لنفسها مركز القيادة فى ميدان السيطرة العالمية ، فأنشأت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، جمعت فيها بين أهل الشرق وأهل الغرب ، وبين أهل الجنوب وأهل الشمال ، على نحو لم يسبق له نظير فى التاريخ . وقد ثبتت تلك الإمبراطورية لكثير من المحن والأزمات ؛ بل كانت فى الغالب تخرج من أزماتها أقوى مما دخلت . . . أو هى على الأقل كان هذا شأنها فيما مر بها من أزمات سابقة ، حتى جاءت هذه الحرب الأخيرة بأعقابها ونتائجها البعيدة التى لا يعلم مداها وأثرها النهائى غير الله !

ولكن ما لنا نتحفظ إلى هذا الحد ولا نحاول أن نستشف المستقبل فى موضوع نسعى الآن إلى أن نلجه من الناحية العلمية الخالصة ؟ ألأن هذا المستقبل مثقل بالاحتمالات التى لا ضابط لها ولا حاكم ؟ أم لأن هناك عوامل جديدة لا ترتبط بقوة بريطانيا ، وإنما تتصل بمصادر أخرى للقوى فى جهات أخرى من العالم ؟ أم لأن مبدأ السيطرة العالمية وقيامه على أساس التحكم فى اتصالات أوربا بالخارج لم يعد هو الحاكم الوحيد فى توازن القوى الدولية ؟ أم لأن الإنسانية أخذت تسير إلى غاية جديدة متلمسة طرقاً جديدة غير ما اعتادت أن تسير فيه خلال هذه الأجيال الأخيرة ؟ أم لأن بريطانيا التى كان

لها السبق فى ميدان السيطرة العالمية على غيرها من امم أوربا قد بدأت تفقد تلك الميزة ، فلحقت بها أمم جديدة بعضها فى أوربا وبعضها فى خارجها ؛ ولا بد من أن تلاحق الأمم بعضها بعضاً ، وأن يداول الله الأيام بين الناس على نحو جديد لن يكشف عن نتيجته غير الزمن ؟ قد تكون كل هذه الاحتمالات من الحقيقة فى شئ يسير أو خطير ؛ ولكن الشئ الذى نستطيع أن نستبينه — ومن الخير لنا أن نستبينه واضحاً جلياً — هو أن الاتجاهات الحديثة فى اتصالات العالم ، وفى علاقات الدول والأمم بعضها ببعض ، قد أخذت تتبلور خلال هذا الجيل الأخير ، حتى اتخذت صورتها الواضحة مع نهاية هذه الحرب الأخيرة . وكل من يدرس النضال الحديث بين الأمم فى صورته الجديدة ، التى برزت للناس فى أواخر مراحل الحرب ، يدرك فى غير عناء أن الجماعات البشرية سائرة نحو التكتل ، وأن مستقبل القوة معقود لواؤه للأقوياء الكثيرين فى العدد والأغنياء فى الموارد ؛ ولم يعد هناك فى الحروب الكبرى التى توجه مصاير العالم شئ اسمه أمم صغيرة أو أمم متوسطة ، وإنما هناك أمم كبيرة تلتف من حولها أمم صغيرة وتتذبذب بينها أمم متوسطة أو شبه كبيرة . وقد خرجنا من هذه الحرب المنتهية — إلى جانب إقرار كيان الإمبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها فى بعض الأطراف — بأمتين كبيرتين ، ليس من اليسير حصر مواردهما الظاهرة والكامنة ، هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ؛ وبأمة أخرى قد يبدو شانها خاملاً فى الوقت الحاضر ، ولكن المستقبل كفيل بالكشف عن قوتها الهائلة فى المال والرجال ، هى الصين التى تحتل مساحة تناهز مساحة أوربا بأسرها وتزيد عليها فى عدد السكان ؛ ثم بأمة أخرى عريقة فى المدنية والثقافة هى الأمة الفرنسية ، ولكن لن تبلغ ، هى وإمبراطوريتها ، من القوة المادية بعض ما بلغ الآخرون . على أن الشئ الذى لا يخلو من مغزى حقيقى هو أن بعض فلاسفة الوقت الحاضر وساسته الراسخين يرون بحق أن بريطانيا إذا انفردت عن إمبراطوريتها ، وتخلت عن سندها من الأمم الأخرى — أو تخلى عنها ذلك السند — فإنها لن تعدو أن تكون قوة متوسطة وأمة من المرتبة الثانية بين أمم المستقبل . ويظهر أن حلفاءنا البريطانيين ، رغم كل ما يقال من بطء إدراكهم وجنوحهم إلى التسويف بالوقت فى كثير من الأشياء ، كانوا أسرع الناس إلى إدراك هذه الحقيقة ، وإلى

العمل على تلافى مصدر الضعف الجديد الذى يهدد كيانهم الدولى والإمبراطورى .
وإذا كان لنا أن نقرأ النتائج من المقدمات ، فإن ساسة بريطانيا يحاولون الآن رسم الخطة وتلمس الطريق إلى استكمال أسباب قوتهم المهددة ؛ فالإمبراطورية إن أرادت أن تقف أمام منافسيها فى المستقبل ، ينبغى أن تزيد من أسباب الترابط بين أجزائها ، وينبغى فوق ذلك أن تعمل على تكتل القوى فى مآخذ الإمبراطورية ومناطق الخطر فيها . وقد يكون الشرق الأدنى أو الأوسط مكمن الخطر الأكبر فى بناء الإمبراطورية . وبريطانيا محتاجة فى هذه المنطقة إلى أن تجمع من القوى وأن تكسب من الصداقات أكبر قدر تستطيع أن تجعله إلى جانبها . ومهما أظهر ساستها فى الوقت الحاضر من ألوان الصلف والاعتزاز ، ومهما تأثرت أقوالهم وأفعالهم بما يستشعرون فى هذه اللحظة من قوة مصدرها هذا النصر العظيم الذى أحرزته الإمبراطورية وحلفاؤها بأغلى ثمن ، فلا شك أنهم مدركون أن احتياج بريطانيا ، بحكم ما تمخضت عنه الحرب ، إلى الأمم الصغيرة والمتوسطة أكبر من احتياج تلك الأمم إليها . ولئن قيل فى وقت مضى إن قوة بريطانيا ضرورية للدفاع عن الشرق وأبوابه ومسالكه ، فإن من الحق أن يقال فى المستقبل إن صداقة هذا الشرق ألزم لسلامة بريطانيا وإمبراطوريتها من أية قوة تستطيع أن تخف بها إلى ميادينه . وليس من شك فى أن بريطانيا وساستها ، بل قادتها العسكريين أنفسهم يدركون هذه الحقيقة تمام الإدراك ، إن لم يعترفوا بها فى العلانية . وحقيق بأهل هذا الشرق وقادته أن يدركوا هذه الحقيقة على وجهها الصحيح ، قبل أن يحددوا موقفهم ، وقبل أن يرسموا خطتهم ، وينظموا علاقات بلادهم الدولية فى المستقبل . وقد يكون من الحق علينا لأنفسنا وللإنسانية جمعاء أن نعرف قدر أنفسنا وقد عرفه الناس ! بل قد يكون من الخير لنا وللإنسانية جمعاء — ونحن نعيش فى مهب العاصفة بين قوى العالم الجبارة — أن نترسم خطانا فى نور وتبصر ، وأن نتلمس سبيلنا إلى التعاون الدولى فى حزم واستقلال !

سليمان حزين

ذكريات

بعض الأدباء الذين عرفتهم [1]

عرفت جرجى زيدان مؤسس الهلال قبل أن يموت بسنتين أو ثلاث ، بل عرفته منذ ١٩٠٩ حين كنت بانجلترا ، وكنت قد ألفت رسالة « مقدمة السبرمان » وبعثت بها إلى مطبعة الهلال كى تطبع ، فأحالتها المطبعة إليه ليقرأها . وبعث هو إلىّ بخطاب مسهب يشرح لى فيه وجوه النقد التى يأخذها على الرسالة ، ويقترح حذف بعض الفصول والسطور مما عده مخالفاً للعقيدة العامة . وأذكر من خطابه هذا قوله : « إنه لا بأس أن ننتقد المسيحية ؛ لأن المسيحيين قد ألفوا نقد دياناتهم ، أما المسلمون فيجب أن نتوقاهم ؛ لأنهم لم يألفوا النقد » . وقد خرجت هذه الرسالة مشوهة مبتورة لكثرة ما حذف منها .

ولما عدت إلى مصر زرته واتصلت معرفتى به إلى وفاته ، وكنت بين مشيعيه إلى قبره . وكان جرجى زيدان عصامياً فى ثقافته وثروته ، وهو أول من أرصد حياته فى عصرنا لدراسة التاريخ الإسلامى ، وألف فى ذلك قصصه الكثيرة كما ألف تاريخ التمدن الإسلامى . وهذه الكتب تعد من الطلائع لهذه الدراسات التى استفاضت فى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة . ولم يكن لجرجى زيدان أى اتجاه علمى . حتى لقد كتبت ذات مرة أعزو الحجاب عند العرب إلى أسباب بيولوجية هى أن البنات فى الأقطار الحارة يبلغن سن النضج الجنسى فى الحادية عشرة أو حوالى ذلك أى قبل اكتمال سن النضج الذهنى . ولذلك لم تكن لهن من عقولهن رقابة على غريزتهن الجنسية أو ضبط لها ، وأن هذا هو السبب للحجاب بين العرب . فتعجب لهذا التعليل وقال لى إن « الأسلوب يعجبنى » ، ولكن الحقائق تكذبه . وكانت هذه « الحقائق » عنده تاريخية . وأنا الآن أعرف أنى كنت مخطئاً فى هذا التعليل البيولوجى ؛ إذ ليس هناك أى فرق فى سن النضج الجنسى بين أبناء المناطق الحارة والمناطق الباردة ، والتعليل الصحيح للحجاب اجتماعى .

---

(١) هذه ذكريات الأشتات ننشرها بالإيجاز كما كتبها لا نستبيح لأنفسنا أن نراجعه فيها فضلا عن أن نحاول الملاءمة بينها وبين آرائنا الخاصة فيمن ذكر من الأحياء والأموات .

وكان جرجى زيدان انبساطيا بديناً بشوشاً كثير الأصدقاء . ومات عقب انتهائه من أحد مؤلفاته . فما هو أن أتم الصفحة الأخيرة حتى وضع القلم وانسطح ، فانفجر شريان أحدث له « النقطة » . وفى اليوم التالى شيعناه إلى الجبانة ، وكان هناك عدد غير صغير من الأدباء الذين استعدوا لتأبينه . ووضع النعش وكشف عن الوجه ونهض أحد المؤبنين . ولكن ما إن شرع فى إلقاء كلمته حتى صاح شقيق للمتوفى يقول : إنه رأى شقيقه يرمش وإنه لا يزال حيًّا . وكانت المسألة لا تزيد على أن عاطفته قد تغلبت على عقله . ولكن كانت النتيجة أن المشيعين عادوا ولم يسمعوا تأبينا ، وترك حارس للجثة إلى الصباح . . .

ومؤلفات جرجى زيدان لا تزال حية ، وهى أقرب إلى التلخيص منها إلى الإسهاب ؛ لأنه عالج موضوعات لم يعالجها أحد من قبل ، فكان يستوعب أكثر ما يستطيع فيضطر إلى الاقتضاب . ولما أنشئت الجامعة المصرية كُلِّف إلقاء محاضرات عن التاريخ الإسلامى . ثم عادت إدارة الجامعة ، فألغت هذا التكليف بدعوى أنه مسيحى . وقد تركت هذه الحادثة فى نفسه مرارة ، فكان لا يفتأ يذكرها فى حزن وألم .

وكان فرح أنطون يصدر « الجامعة » ، وكان من وقت لآخر ينتقد « الهلال » . وكانت مجلة « الهلال » شرقية ومجلة « الجامعة » غربية ؛ فلم يكن هناك نقطة للتعارف أو التصادق بين صاحبيهما . واتصلت صداقتى بفرح حين شاركته فى تحرير « اللواء » لفترة قصيرة حوالى ١٩٠٩ . وكنا نقضى السهرة فى إحدى القهوات المطلة على ميدان الأوبرا أو ما يقاربها . وكان فرح « مفكراً حراً » بالمعنى الفرنسى لهذه العبارة . وكان يعرف نيتشه وروسّو . وقد اندمج بعد ذلك فى الحركة الوطنية المصرية . وكان حلبى الأصل ، ولذلك شق عليه اتخاذ اللهجة المصرية العامية . وكان انبساطيًّا مفراحاً يشرب الخمر ، بل كان يشرب الأبسنت ، وهو مشروب منع بيعه بعد ذلك لفتكه بالصحة .

وقد ترك كل من جرجى زيدان ، وفرح أنطون ، أثره فى النهضة المصرية . فإن الأول فتح أبواب الدراسة لتاريخ الإسلام والعرب وآدابهم وعقائدهم وحضاراتهم ، كما فتح الثانى أبواب الدراسة للنهضة الأوربية . ومات الأول حوالى الستين ، ومات الثانى حوالى الأربعين .

وفى تلك السنوات عرفت يعقوب صروف محرر « المقتطف » ، وكان قد جاوز

الستين . وأذكر أنه لأول مقابلة لى شرع يسألنى عن أصلى وهل أنا مصرى قح أم بى عرق أجنبى . وكان قد قرأ رسالتى « مقدمة السبرمان » . وبعد حديث طال فى العلوم عاد فجزم بأنى أجنبى ، وأن تفكيرى يدل على هذا ! وكانت نزعته العلمية قد طغت عليه ، فلم يكن يحسن التقدير للأدب أو الفلسفة ؛ ودار بينى وبينه نقاش ذات مرة عن هربرت سبنسر وشوبنهور . فأبرزت أنا القيمة العظمى للفيلسوف الألمانى الذى نظر النظرة الكونية الشاملة . أما هو فكان يرى أن سبنسر أعظم المفكرين فى العالم ، وأن شوبنهور لا قيمة له بتاتاً إلا فى « ملاطفات » أدبية أو مجازفات فلسفية . وكان « المقتطف » فى أيامه من المجلات القوية التى وجهت القراء العرب الوجهة العلمية وأنارت بصيرتهم . ولم يكن جافاً فى إيراده للبحوث العلمية ، كما أنه كان من وقت لآخر يترجم إلى العربية مقالات جدية من المجلات الأوربية .

وفى إدارة المقتطف وجدت أمين المعلوف ، وكان لغوياً علمى الذهن ، وقد وضع معجما بعد ذلك للحيوان لايزال أحسن ما يعتمد عليه فى هذا الموضوع . واتصلت بينى وبين أمين المعلوف صداقة إلى وفاته . وكان يكثر من الشراب . وقبيل وفاته بعامين أو ثلاثة أصيب ببحة كانت تجعل الحديث معه شاقاً ، ولكنه احتفظ ببشاشته وذكائه . وقد عاش أمين المعلوف ملء حياته . فاشتغل فى السودان ووصل إلى أقاصيه العليا حيث أفريقيا السوداء ، كما اشتغل فى مصر والعراق . وهو ، مثل فرح أنطون ، لم يتزوج .

ويجب أذكر هنا أن جميع هؤلاء الأربعة كانوا سوريين ، أو ، كما نقول الآن بعد التجزئة التى أعقبت انهيار الدولة العثمانية ، لبنانيين . وكانوا جميعهم كارهين للحكم العثمانى لا يطيقون ذكره . وإذا شرع أحدهم فى الحديث عنه لم يتمالك من الغيظ . ولم يكن وجدانهم وطنياً ؛ لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسمت ، وكان اليأس أغلب عليهم . وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية ، عقب الحرب الكبرى الاولى ، بقوا على شك من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدول العربية . وأظن أنهم كانوا على حق فى هذا .

ومن الشخصيات الفذة التى عرفتها قبل الحرب الكبرى الأولى شخصية الأديبة الكبيرة مى . وقد بقينا صديقين إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولم تكن مى جميلة ولكنها كانت

«حلوة» . وكانت تعرف الآداب الإنجليزية والفرنسية ، وتقرأ كثيراً وتقف على الاتجاهات العصرية فى أوربا وأمريكا والشرق . وكانت أيضاً متمدنة من حيث اكتمال وسائل التمدن فى المعيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتعبيرها ظرفا ورقة . وقد استطاعت مى أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية أو السورية زينة أنثوية لا استرجالاً كريهاً . وكانت ، فى حياة أبويها ، تعقد بمنزلها اجتماعات « صالونية » حيث يكون السياسى والأديب والوجيه بعض ضيوفها . وكانت تشترك فى جميع المناقشات بل كانت أحياناً تديرها . وقد تنبه ذكاؤها كثيراً لاختلاطها بهؤلاء الضيوف . ولم يكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك فى معالجته . وتفعل كل ذلك فى رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر «الصالون» ، ولكن عقب وفاة والدتها تزعزعت مى . ولم يكن ذلك ، فى ظنى ، لحزنها على والدتها التى ماتت بعد أن أسنت وبعد أن كان موتها منتظراً . وإن كانت الفرقة بين الأم وابنتها قد تركت أثرها ، وخاصة عند ما نعرف أن مى لم تتزوج ، وأن رفقتها لأمها كانت تعزيها . وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوماً ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا إنه متمدن ، لا يزال شرقيًّا .

على أنى أظن أن السبب للتزعزع النفسى الذى أصاب مى كان انتقالها الفسيولوچى من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيراً ما يخل بالاتزان الفسيولوچى عند بعض النسوة . وقد ماتت مى منذ أكثر من سنة بعد سنوات قضتها فى مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولما عادت زرتها مع صديقى الأستاذ أسعد حسنى . وفتحت هى لنا الباب ، فرأيت شخصاً لا أعرفه . رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين . فسدرت عينى ، فغمزنى أسعد وهمس : الآنسة مى ! الآنسة مى ! فسلمت وتضاحكت ، ولكنها أدركت كل شىء . واستولى علىّ اكتئاب وخجل وجمود ، وارتسمت فى ذهنى صورة لعذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينة فى مرضها . ولكن سرعان ما زال عنى الاكتئاب والخجل والجمود ، إذ شملنى أسف . فإن مى قعدت إلينا وشرعت تقص علينا ما قاسته فى المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكتة » التى تمنع العربدة عند المجانين ، وكيف أضربت هى عن الطعام . ثم ، وهنا الأسف والحزن ، كانت وهى تروى لنا ما وقع لها وكيف أن أدباء مصر نسوها وتركوها ولم يسألوا

عنها ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى . وتكرر هذا منها كثيراً . وأدركت أنها لا تزال فى حاجة إلى المستشفى .

وزاد اعتقادى هذا عند ما أصرّت أنه كان لها أقرباء ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم وأنهم كانوا يتربصون بها فى مكان تعينه ، وكانت هى مضطرة إلى المرور بهذا المكان .

وخرجنا نحن الاثنين ونحن فى أسف وغم لهذه الحال التى كانت عليها مى . ولكن أسفى أنا كان مزدوجاً ؛ فإنى بقيت طيلة المساء وأنا أفكر فى جمودى وكيف أنى لم أتنبه عند ما رأيتها بالباب ، فأحييها تحية اشتياق وتقدير ، وأنها لابد قد عرفت من جمودى أنها تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت . وملأتنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

فلما كان اليوم التالى قصدت إلى منزلها وأنا طيلة الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقشع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة مزعزعة . فلما فتحت لى الباب عانقتها فى حنان صادق وحب مصطنع . وتراجعت هى وتأملت وجهى فى ابتسام وانشراح واضحين وهى تقول : « مرسى . مرسى يا أستاذ ! »

وشعرت أنى كفّرت عن جمودى فى الأمس . وقعدت معها وأنا أتحدث فى نشاط ومرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشنج بالضحك . وبعد أسابيع ماتت ؛ إذ لم تطق هذه الدنيا التى رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهى تتلألأ فيها بالشباب والجمال ، ثم عادت فتركتها منفردة فى شيخوختها بلا جمال وبلا تلألؤ .

ومخلفات مى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذكى مما كانت فى جميع ما كتبت . وكنت أقول لها إن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها ومؤلفاتها أنها شرقية تخاف فى الكتابة أن تبوح بكل ما تفكر ، ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث . وقد صدمتنى ذات مرة بملحوظة جعلتنى أفكر ، هى قولها : « إن مبالغتى فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم . » وأحياناً أظن أنها كانت صادقة ، كما أنها هى أيضاً كانت متفائلة ذلك التفاؤل الذى يخفى التشاؤم ويضمره .

وقد يسائل القارىء هنا : لمَ لمْ تتزوج مى مع جمالها وثقافتها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش فى وسط شرقى . ولو كانت مى قد نشأت فى برلين أو باريس

أو لندن لوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها ، والفخر والمجد بالتصاق تاريخهم بتاريخها . ولكن إخواننا اللبنانيين ، على الرغم من عصريتهم ، لايزالون شرقيين ، ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها فى صالون أدبى له حرية الصالونات الأوربية فى المناقشة والاختلاط . وبكلمة أخرى نقول : إن مى عاشت فيما قبل ميعادها بخمسين سنة .

وقبل الحرب الكبرى الأولى عرفت عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة «البيان» . وكانت هذه المجلة الشهرية تحاول أن تحيي الأسلوب العربى القديم على نحو ما فعلت جريدة « مصباح الشرق » ، للمويلحى أو كما تفعل الآن مجلة «الرسالة» . وكان البرقوقى نقيضى فى أهدافه الأدبية ؛ فقد كان يجد لذة عجيبة فى التعبير عن معنى مابكلمة مماتة . ويقول إننا يجب أن نحيي هذه الكلمة . ولم يكن يجدى احتجاجى عليه بأن الكلمة إنما أميتت لأسباب قوية استدعت موتها ، وأن إحياءها الآن خطأ ؛ لأن مركزها الاجتماعى قد انعدم . وكان صهره مصطفى صادق الرافعى أكثر إمعاناً منه فى خطة الإحياء للكلمات المماتة . وعرفت محمد السباعى وكان الكاتب الأول فى مجلة «البيان» . أما الكاتب الثانى فكان عباس حافظ . وكلاهما كان يعنى أكبر العناية بالأسلوب العربى القديم . ولم يكن بمجلة « البيان » لا كثير ولا قليل من الفن الصحفى ، ولذلك لم تعش طويلا .

وكان عبد الرحمن البرقوقى من أطيب الناس . وكان غربى الذهن ، قضت المصادفات بأن يكون شرقى التربية والثقافة . وكنا أحياناً نمشى فى الإسكندرية فيأخذ فى المقارنة بين الشوارع التى أقيمت إليها مساكن الأجانب وبين تلك الأخرى التى أقيمت إليها مساكن المصريين . ويستنتج من هذه المقارنة مايحمله على القول بأن الشرق كله مفلس . وكان قد عرف الشيخ محمد عبده وأدرك المغزى فى اتجاهاته وإصلاحاته .

وإذا كان حقًّا أن الخمر تكشف عن خبايا الصدور ، وتفكك الضوابط التى تحول دون الصراحة ، فإنى أروى الحادث التالى الذى يدل على النفس الزكية التى كان يتسم بها البرقوقى . فقد كنا على قهوة فى الإسكندرية حوالى ١٩١٤ وقد قعدنا إلى الموائد الخارجية والنسيم يهب علينا كأنه البلسم فى رقته ونعومته ، وأمامنا أكواب من البيرة (أو غيرها) نشربها فى اشتهاء ولذة . ثم طلبنا رطلين من الكباب ، فجاء بهما الخادم وبخار الكباب يتصاعد ورائحة

الشواء تسكر . وما إن شرعنا نتنقل على هذا الطبق حتى طرأ علينا متسول ، وكان غاية فى القذارة والجوع والعفن ، فطاب إحساناً . فتأمله البرقوقى ثم نظر إلىّ كأنه يستفهم . ثم دفع الطبق إلى طرف المائدة وقال للرجل : كل . وأكل الرجل الطبق كله برطليه من الكباب وهو واقف .

وكان البرقوقى يسكن ، هو ومجلته ، بالقرب من باب الخلق ، وكانت « الجريدة » قريبة منه . وقد دعوته قبيل الحرب الكبرى الأولى أن نزور معاً لطفى السيد (باشا) رئيس تحريرها . ولم أكن أعرفه قبل ذلك إلا من مقالاته مع إعجابى العظيم بها . فلما دخلنا عليه ، وجدت غرفته كأنها غرفة وزير فى سعتها وأثاثها . وتحدثنا عن نيتشه والتصوف . ولا أدرى إلى الآن كيف جمع بينهما لطفى السيد ، ولكنى خرجت من هذه المقابلة الأولى وفى اعتقادى أن لطفى السيد أديب كما هو فيلسوف .

وحوالى تلك السنين ، أو قبل ذلك بقليل ، بزغ طه حسين . وكان أزهريًّا معمما ، يكره الأزهر ، ويعربد على صفحات «الجريدة» . والتحق بالجامعة المصرية ونال دُكتورية الأدب . وكان الفرح عاما بين الشباب الجديد لهذا الأزهرى الناجح . وكنت أصدر مجلة «المستقبل» الأسبوعية فى الدعوة إلى القرن العشرين وما بعده . فنشرت صورته وهو بالجبة والقفطان . وراج العدد بين القراء الذين رغبوا فى اقتناء الصورة . وكان لنجاح طه حسين قيمة رمزية هى أن مصر العتيقة تستطيع أن تتجدد . وقد وجد طه حسين من لطفى السيد المراعاة بل أحياناً المحاباة ، حتى كانت مقالاته تتحيز المكان الأول فى «الجريدة» على الدوام . والواقع أن انتقال طه حسين من الأزهر إلى الجامعة المصرية ثم إلى السوربون مع أنه ضرير هو معجزة . ولكن ثم معجزة أخرى هى أنه اتخذ مكاناً أماميًّا ثوريًّا مستقبليًّا فى الأدب ، مع أن الإنسان كان يتوقع ، بعد اعتبار ماضيه ، أن يتخذ مكاناً تقليديًّا حيث يراعى « قواعد النحو والصرف » فى الأدب والاجتماع والسياسة . وقد يقال إن المعرى قد أثر فيه وبعث فى نفسه كراهة لقواعد «النحو والصرف » فى أسلوب الحياة . ولكن يبقى عندئذ سؤال هو : لماذا اختار طه حسين المعرى كى يكتب عنه ويسهب فى الكشف عن عقله وقلبه ؟ ولا عبرة بأن يقال إن الاشتراك فى العاهة باعث مقنع للقوة الجذبيــة التى وجدها طه حسين فى المعرى ؛ لأن هناك أدباء وشعراء كثيرين بهم هذه العاهة لم يجذبوا

طه حسين . وظنى أن عاهة العمى لم يكن لها إلا أقل الأثر فى التفات الأديب المصرى إلى أديب المعرة . وإنما الأثر الأكبر أنهما يشتركان فى الثورة ، وخاصة الثورة على المشايخ . فقد رأى طه حسين فى الأزهر ما بعث سخطه وحركه إلى الكفاح ، ثم رأى عند المعرى مثل هذا السخط ومثل هذا الكفاح ، فارتبطت بين الأديبين أواصر الحب والفهم وتعارفا وتفاهما . وقد انتقلت عند طه حسين بعد ذلك ، بؤرة المعركة من ميدان الأزهر إلى ميدان السياسة المصرية . ولكن اتجاهه الأول لم ينحرف .

وهناك من يزعم أن السياسة قد أفسدت أدباءنا وشغلتهم عن مهمتهم الأصلية . وهذه المهمة إنما هى عند هؤلاء الزاعمين أدب البرج العاجى الذى لا يتصل بالمشكلات العصرية . ولكنهم مخطئون ؛ لأن الأديب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسيا . وأعنى بالطبع السياسة العليا ، السياسة العالمية والقطرية . ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتباً ذيرصد قلمه للدفاع عنه ظالماً أومظلوما . ونحن نعيش فى عصر انفجارى يحفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية . وذلك الأديب الذاهل الذى يعيش فى البرج العاجى إنما يبتعد عن أهم الشؤون البشرية حين يبتعد عن السياسة . وكل أديب له وجدان بتطور العالم فى عصرنا يحس أن واجبه الأول أن يكون عنصراً من عناصر هذا التطور . ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كفاحى سياسى .

ولذلك لا يستحق أدباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة ، بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد . وحين أتأمل الصدود الذى نلاقيه أحياناً فى بعض الأفراد أو عند الجميع عن شوقى ، على الرغم من شاعريته الرائعة ، أعتقد أن مرجعه أن شوقى لم يمارس الأدب الكفاحى ، ولم يطابق بين فنه وبين أمانى الشعب ، إلا فى فترات نادرة ، وأن إعجاب الشعب بحافظ إبراهيم ، على الرغم من شاعريته التى لا تسمو إلى مستوى شوقى ، إنما يرجع إلى أنه طابق بين فنه وبين أمانينا السياسية . وحتى فى المستقبل بعد مائة سنة مثلا سوف يدرس حافظ ويستدل بشعره على عواطف الأمة المصرية واتجاهاتها ومستواها الفنى أكثر مما يدرس شوقى الذى عاش ، زمناً غير قصير من حياته ، فى البرج العاجى .

ولم أعرف شوقى إلا فى السنوات الأخيرة من حياته . وكان له مكتب بالقرب من دار الكاتب المصرى كنت أزوره فيه . وقد فهمت مقداراً كبيراً

من سيكلوچيته حين شرع ذات مرة يوضح لى فى إسهاب لماذا ألف درامة « كليوبطرة » . فقدزعم أنه أراد أن يزكّى هذه المرأة باعتبارها ملكة مصرية قد أسيء إليها فى سمعتها . ودهش أكبر الدهشة منى عند مناقضته وقلت إنها لم تكن مصرية . وكان فى ثقافته يصبو إلى كل قديم ، حتى إنه لم يدرك شيئاً من التيارات الكاسحة التى اتسم بها الثلث الأول للقرن العشرين . وقد ولد شوقى فى أواخر القرن التاسع عشر فى مصر ، فى بيئة الباشوات والبكوات التى كانت تكره عرابى ، ولم يقطع الحبل السرى الذى كان يربطه بالقرن التاسع عشر إلى يوم وفاته .

أما حافظ إبراهيم فكان من الجواهر التى لا تزال تلمع وتسطع فى ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم يصدم ويخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه . فقد كان أنيساً يحدثك بنكات ، بالمعنى العربى القديم لهذه الكلمة . وكان وطنيًّا يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه فى أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : « إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب » .

وليس هناك مفر من المقارنة بين شوقى وحافظ ومطران ؛ فإن دراسة هؤلاء الثلاثة تدل على التيارات المتنافسة والمتناقضة فى المجتمع المصرى فى الخمسين من السنين الأخيرة . فإننا نحس أحياناً فى قصائد شوقى ومقطوعاته جو الترف المصرى الذى أوشك على الزوال : السجاجيد الإيرانية وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود ، والمقاعد الناعمة والحجاب ، حجاب المادة والروح . أما أشعار حافظ فصرخات المتألم ، وأحياناً مهاترات العاجز . ونحن نقرؤها فنصرخ معه ونهاتر فى ألم وعجز ؛ لأنه منا ونحن منه : شاعر مصرى بلدى . أما مطران فيشبه أحياناً تلك الحدائق الأنيقة التى يجمع فيها أصحابها الأثرياء أصص النباتات الأجنبية التى نسأل عن أسمائها ونعجب بروائها ، ولكن ليس لها فى قلوبنا ذلك الحنين الذى نحسه حين نذكر حقولنا المألوفة بفلاحيها وجداولها وأشجارها من الجميز والتوت .

سلامه موسى

الماضى القريب والماضى البعيد

فى أمثال الرومان أن« الكابيتول قريب من صخرة تربيا » . أما الكابيتول فهو ذلك التل المرتفع من تلال روما الذى كان عليه موطن الحكم . وأما صخرة تربيا ، فهى صخرة إلى جانب من الكابيتول كان يلقى من فوقها المجرمون المحكوم عليهم بالموت ، فيلقون حتفهم . ويقصد الرومان بهذا القول أن الارتفاع يعقبه الوقوع .

هذا من أمثال الرومان . والناس فى هذه الأزمان يرتقون الكابيتول عن طريق ممهد ذى درجات عريضة ؛ ليشهدوا ما فوقه من قصور صارت متاحف ، وليطلّوا من خلف التل على المكان السحيق الذى كان يلقى فيه المجرمون . يرتقى الناس فى هذا الطريق وهم يذكرون هذا المثل ، وقد جذب أعينهم تمثال مرقس أوريليوس الإمبراطور الفيلسوف ممتطيا جواده . وقد سلم هذا التمثال من عصور التعصب والجهل ، أيام القرون الوسطى ؛ إذ ظن المؤمنون أنه تمثال قديس ، لما اتسم به من سكينة ووقار . وقد يشغلهم منظر هذا التمثال الرائع وهم صعود ، عن أن يلقوا نظرة عابرة على تمثال صغير من البرونز إلى يسارهم هو تمثال رينزى أو كولادى رينزى ، وقد يلقون نظرة عليه دون أن يأبهوا به ، مع أن صاحب هذا التمثال أقرب من يصدق عليهم مثل الرومان القائل إن الكابيتول قريب من صخرة تربيا ، وهو يمثل شخصية فذة لا تزال تتكرر وبخاصة فى تاريخ إيطاليا ، فى الماضى البعيد والماضى القريب ؛ ومسلك شعب روما نحوه ، هو دائما مسلك الإيطاليين نحو رجالهم الذين خدموهم من قبل ومن بعد .

فى أول القرن الرابع عشر الميلادى كان النزاع المستمر بين البابا والإمبراطور قد بلغ مداه ، ذلك النزاع على السلطة الدنيوية الذى ابتدأ فى القرن الحادى عشر واستمر إلى القرن الثالث عشر . فالبابا يرى أنه صاحب

الكلمة العليا فى جميع البلاد المسيحية ، وان سلطانه الدنيوى يشمل جميع المسيحيين كما يشملهم سلطانه الدينى . والإمبراطور ، وكان فى ذلك الوقت عادة من الأمراء الألمان ، يرى أن سلطان البابا مقصور على الأمور الدينية ، وأن الأمراء إذ يخضعون له فى هذه الأمور ، لا يتنزلون عن سلطانهم الدنيوى . ومن هنا نشأ هذا النزاع الذى انتصر فيه البابوات أكثر من مرة ، وأذلوا أباطرة الدولة الرومانية المقدسة أكثر من مرة ، وهُزِم فيه البابوات غير مرة ، ولم يتورع هؤلاء الأباطرة عن إذلالهم غير مرة . وكانت هذه الحرب السجال وبالاً على الإمبراطور وعلى الكنيسة . فالكنيسة تستعمل سلطانها الدينى على قلوب المؤمنين ، وتستعمل سلاح الحرمان الرهيب فى قتال الإمبراطور ، والإمبراطور يستعمل سلاح التنديد برجال الكنيسة وبالبابا نفسه ، ويشكك الناس فى طهارة معيشتهم . وينتصر للإمبراطور أمراء وملوك يرجون منه خيراً ، وينتصر للبابا أمراء وملوك منافسون للإمبراطور .

فإذا أهلّ القرن الرابع عشر كان هذا التنافس قد بلغ مداه بانتصار البابا فى الظاهر والقضاء على أسرة هوهنشتاوفن التى كان منها الأباطرة . ولكن هذا النصر لم يكن بلا ثمن ، فلقد انتصر البابا بفضل مساعدة ملك فرنسا ومؤازرته ، وفى سبيل النصر لم ينظر البابا إلى الثمن الذى كان عليه أن يدفعه .

جاء القرن الرابع عشر فإذا البابا لم يعد صاحب السلطان على المسيحية من عاصمة ملكه روما ، وإذا هو أسير أو كالأسير يعيش فى بلدة بإقليم متاخم لفرنسا . أما البلدة فهى أڤنيون ، وأما الإقليم فهو جنوب فرنسا الآن . لم يكن هؤلاء البابوات الذين اتخذوا أڤنيون مقاما أسرى فى الحقيقة ، فهم الذين رضوا لأنفسهم بهذا الوضع ، فلقد بلغ من سيطرة ملك فرنسا أن صار أكثر الكرادلة الذين ينتخب من بينهم البابا من الفرنسيين وصار البابوات ينتخبون من الفرنسيين كذلك . فالبابا كلمنتيو الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) . وهو أول من اتخذ أڤنيون مقاما ، كان من أهل جسكونيا ، وقد أصغى إلى نصيحة فيليب الجميل ملك فرنسا فلم يطأ بقدمه أرض روما . وانتخب البابا جيوڤانى الثانى عشر بعد أن ظل كرسى البابوية خاليا سنتين ، فلم يكتف بالإقامة ببلدة أڤنيون كسلفه إلى أن يحزم أمره على العودة إلى عاصمة المسيحية ، بل اتخذ له مسكنا ، وزاد فى بنائه ، حتى جعل منه قصراً وحصنا ، وهو الذى

يشاهد فى تلك البلدة إلى اليوم . وهكذا شعرت روما بأنها لم تعد عاصمة المسيحية .

ماذا كان تأثير ذلك فى روما ؟ وماذا كان تأثيره فى إيطاليا ؟

أما إيطاليا فكانت غارقة كعادتها فى انقساماتها والتنازع بين إماراتها ودولها المستقلة ، فهى مسرح للحروب فى سبيل المطامع ، يقوم بالقتال رجال حرب مأجورون من رجال الشمال الأشداء : ألمان وسويسريون ومجريون ؛ وهم رجال أشداء ، ولكن ليس من صالحهم أن تنتهى هذه الحروب وقد اتخذوها مهنة . وإذا انتهى هؤلاء الأمراء الإيطاليون وانتهت هاته الجمهوريات من المشاحنة ، فما مصير هؤلاء الجنود ؟ وأى عمل يمتهنون ؟

إذن فلتستمر هذه الخلافات ، ولتبق هذه المطامع تعمى الأبصار عن الطريق السوى . ولكن بين الناس من ليسوا أمراء ، وبينهم من لا يتجهون اتجاه الأمراء فى المطامع ، وفى إيطاليا حول ذلك العصر زادت العيون تفتحا ، وأخذ الناس يقبلون على هذه الحياة الدنيوية ويحاولون فهمها ، وزاد الميل بينهم إلى الدراسة وإلى لذة الحياة العقلية ، فإذا هم يجدون بينهم كنزاً كان مطموراً . فهذه كتب اليونان والرومان بين أيديهم منها شىء كثير ، وفيها من الإنتاج الفكرى كل ما هو عظيم . وهذه آثار الرومان والتماثيل التى أخرجت من باطن الأرض تدل على مجد قديم ، فما أبعد الفرق بين الماضى المجيد ، والحاضر عندئذ ! ولكن ما السبب فى هذا الفرق ؟ ولماذا نزلت إيطاليا من عليائها وصارت نهبا للبرابرة من شعوب الشمال ؟ ألا يمكن العودة إلى ذلك المجد القديم ؟ بلى ! والبرهان على ذلك أن شاعرا حديثا أخرج معجزة من معجزات الأدب لا تقل عن آثار الأوائل . ألم يخرج دانتى فى تلك الأيام ملحمته « الكوميديا الإلهية » صاغها شعراً ، فأحيا الآمال فى قلوب المفكرين من أبناء وطنه ؟ فملحمته لم تكن شعراً نادراً بقدر ما هى عمل من أعمال الإرادة يدل على أن الإيطاليين ورثوا المجد القديم ، وأن لغتهم الحديثة قادرة على منافسة اللغات القديمة ، وفيها من الحياة ما قد يبلغ مبلغ القديم .

زاد إقبال الناس على الدراسات يستزيدون منها ، ويقارنون بين الماضى المجيد والحاضر وما فيه من تخاذل وانحطاط ، فظهر تياران من التفكير : فريق انصرف إلى الدراسات القديمة ، ونبذ كل تعاليم الكنيسة ، ورأى فيها سبب

الانحطاط ، ومجّد الوثنية وآثارها ؛ وإلى هذه الناحية اتجه مارسيليو وأوكام ، ويمثل هذه الروح فى عالم الأدب بوكاتشيو . وفريق رأى أن الدراسات القديمة لا تتعارض مع المسيحية ، وأن ما يؤخذ على الكنيسة من مساوئ إنما هو من عمل رجالها لا من فكرتها ، وفى طليعة الأدباء الذين نحوا هذا النحو فى ذاك العهد بتراركا .

هذا فى إيطاليا . أما فى روما فقد تأثر المفكرون بهذه النهضة الفكرية ، وظهر هذان التياران ، إلا أنه من الطبيعى أن يكون التيار الثانى غالباً . فروما لم تنس انها عاصمة المسيحية كما كانت عاصمة الدولة الرومانية العظيمة ، وقدظلت روما ألف سنة عاصمة المسيحية ، وهى فى تلك الأيام لم تعد كذلك ، وقد هجرها هؤلاء البابوات الفرنسيون ، فالمدينة فقدت مجدها القديم ، وهى تكاد تفقد مجدها الحديث ، وقد سادتها الفوضى وصار أهلها بلا معين أمام أسر أشرافها المتنازعين المتنافسين ، المتقاتلين بالأجراء من جنود البرابرة . ولم تعد تخترق شوارع المدينة تلك المواكب الدينية العظيمة التى كانت تخفى ما فيها من مناظر الفاقة . ولقد استطاع البابوات أن يعيشوا فى أفنيون فى كنف ملك أجنبى ، ولكن الرومانيين لا يستطيعون أن يعيشوا بغير البابا ؛ ولذلك كانوا فى تلك الفترة يرسلون الوفود إلى بابوات أفنيون يلتمسون منهم العودة إلى مدينتهم الخالدة . ولكن هؤلاء البابوات يؤثرون الأمن والدعة فى حمى الملك الأجنبى ، على العودة إلى عاصمتهم وفيها الأحداث والاضطرابات ، وبين أشرافها النزاع والنضال .

كان فتى من فتيان مدينة روما ، فى نحو التاسعة عشرة من عمره ، يشهد هذه الأحداث ويفكر فيها ، فتتألم نفسه ؛ ولكن ماذا يفعل وهو صغير لا يقوى على شىء ، وهو فقير ليس فى يده شىء ؟ فوالده صاحب حانة صغيرة لا يمتلك إلا قوت يومه . إنه لا يستطيع أن يفعل غير ما يفعله الفتى الجاد لنفسه ، فهو يقبل على تثقيف نفسه ويقبل على الدرس إقبالا عجيباً ، فيعكف على دراسة المؤلفين القدماء من يونانيين ورومانيين ، ودراسة التوراة والانجيل ، ويتعلم النحو منه والفلسفة والخطابة ، ويستظهر أقوال المؤلفين القدماء . وهو فى خلال ذلك يجوب أنحاء المدينة باحثاً عن آثار روما القديمة التى أخفاها الإهمال ، فاحصاً لها دارساً تاريخها ، ومن هذه الآثار كان يستوحى المجد الغابر ، ويشعر بالذل الحاضر .

بلغ رينزى السن التى كان عليه فيها أن يتخذ له مهنة ، فجنح إلى مهنة القلم ؛ لأنها أقرب إلى مواهبه وقلبه ، وصار محامياً ، وكان بارعاً فى صناعة القلم ، بليغ العبارة . ولكن الله وهب له موهبة كان لها تأثير بالغ فى حياته ، فقد كان ذلق اللسان ينفذ حديثه إلى القلوب ، ويتسلط بالقول على الجماهير . وكانت أحداث ذلك الزمن وما فى المدينة من فوضى واضطراب وإهمال وفاقة ، أكبر مجال للقول ، فهى تبعث أبناءها على أن يندبوا حظها ، ويقارنوا بين ما كانت عليه من عزة ورخاء ، وما هى فيه من ذل ومسغبة . وفى هذا المجال ظهر نجم رينزى وأخذت شهرته تتسع ، وأخذ يجد السامعين والمصغين إلى أقواله ، فتجول فى نفسه خواطر وآمال استقاها من تاريخ تلك الأرض التى لا يزال يطؤها ، ومن تلك الدماء التى يظن أنها تجرى فى عروقه صافية ، كما يظن أهل روما .

كان أهم ما يشغل المدينة فى تلك الأيام خاصة ، كما يشغل أهل إيطاليا عامة ، عودة البابا إلى مدينته الخالدة . ولقد توفى البابا نديتو الثانى عشر (١٣٣٤ — ١٣٤٢) فى قصره بأڤنيون ، وانتخب البابا كلمنتيو السادس (١٣٤٢ — ١٣٥٢) فرئى تأليف سفارة من كبراء المدينة ومتوسطيها وعامتها لتهنئته ولتسليمه السلطة الوطنية فى المدينة ، والالتماس منه أن يتولى كرسى القديس بطرس . وكان فى هذه السفارة شاعر النهضة العظيم بتراركا ، وكان فيها كولادى رينزى . وما لبث بفضله أن برز صوت الشعب ظاهراً ؛ فهو يتكلم فى عبارة طلية ويذكر أنه مندوب الشعب ونائب الفقراء والأرامل والأيامى ، ويعرض الحوادث وما حاق بروما بسبب ابتعاد البابا عنها ، ويتحدث حديثاً قريباً إلى تلك المثل التى كان يحلم بها الشاعر بتراركا ، حتى لقد تصور الشاعر أنه مبعوث من العناية جاء ليحقق تلك الآمال الجليلة التى تجيش فى نفسه نحو بلاده فيرد إليها الحرية ، ويرد إليها النظام ، ويعود زعيم المسيحية إلى مدينته ، وتحيا الإمبراطورية الرومانية ، كما كانت وليدة ، إرادة الشعب الايطالى ، وتصير روما بفضل ذلك سيدة العالم !

هكذا شعر الشاعر العظيم حين رأى نائب الشعب يتكلم ، وهكذا عقدت بينهما أواصر صداقة متينة .

وجد هذا الخطيب الجمهورى أذناً صاغية لدى البابا نفسه ؛ فقد تحدث إليه شارحاً ما فيه الشعب الرومانى من بؤس وضيق ، وما عليه النبلاء من صلف

وظلم . وكان البابا رجلا مثقفاً عليما بأصول الخطابة ، فقد كان أستاذاً للدراسات الدينية فى جامعة باريس ، وكان مستشاراً لدى فيليب دى ڤالوا ، فسُرَّ من الفتى الرومانى الذى يعرف فنون القول ، على أن أحد أمراء الكنيسة ، وهو الكردينال چيوڤانى كولونا ، كان حاضراً ، فلم يعجبه ما قاله الخطيب الشعبى فى حق بنى عمومته من أشراف روما ، فعرف كيف يباعد بين كولا وبين البابا ، وعرف كيف يغضب عليه البابا ، فمنعه من دخول القصر . وعاش كولا بعض الوقت فى تلك المدينة وقد هجره زملاؤه وتجافاه الناس ، فكان يقف كما يقول « فى الشمس مثل الكلاب » وكان رجال الكنيسة يقاطعونه ، وقد أضر به الجوع حتى كاد يسأل الناس .

على أن بتراركا ما علم بما وصل إليه الصديق حتى أخذ يسعى ويسعى ؛ ليزيل ما بنفس الكردينال منه ، حتى رضى عنه هذا السيد ، وتوسط له لدى البابا ، فعينه البابا عضواً فى المجلس البلدى بروما ، وحمله رسالة يثنى فيها البابا عليه وعلى إخلاصه وعلمه ، وحماه من الأشراف الذين كانوا يريدون مؤاخذته على ما فاه به عنهم .

كان مركز الزعيم يقوى لدى الشعب على مر الزمن ، وكان أعداؤه من الأشراف يزدادون . ففى ذات يوم من شهر إبريل سنة ١٣٤٤ كان المجلس ينظر فى أمر من الأمور ، فإذا الخطيب يقف فجأة ، وقفة شيشرون فى الماضى عندما أخذ فى اتهام كاتالينا ، وإذا هو يلقى خطاباً يحمل فيه على القضاة والحكام والأشراف ويقول : « لستم وطنيين . أنتم لا تبغون الخير بل تعملون للشر . إنكم تسفكون دماء الشعب ، وفى كل شارع وفى كل بيت تلجأون إلى النهب والعنف ، ترفضون كل نظام ، تدنسون كل مقدس ، تغتصبون الحقوق ، وتدَّعون الامتيازات ، وتتهربون من القوانين . . . »

سكت الأعضاء ، وقد أدهشتهم هذه الجرأة ، لكن أحد أفراد أسرة كولونا الشريفة ، قام فى التو وقصد إليه ولم يكلمه بل صفعه !

بعد هذا الحادث عدل الخطيب عن طريقته واتخذ طريقاً آخر ، فكان يلجأ إلى التلميح بدل التصريح ، وكان يفضل الإشارة ، فيعلق صوراً فى أمكنة ظاهرة من روما ترمز إلى مجد روما وعزها الماضى وذلها الحاضر .

وفى ذات يوم عثر على لوحة أثرية كتب عليها قانون ملكى ، فيه أمر من مجلس

الشيوخ الرومانى بمنح الإمبراطور فسبزيانو سلطة الإمبراطوريه ، فجمع أعضاء المجلس وحاضرهم فى هذا الأمر ، مظهراً ما كان لمجلس الشيوخ من عظمة ، وكيف كان سلطانه أقوى من سلطان الإمبراطور نفسه ؛ إذ كان منه يستمد الإمبراطور السلطة .

ثم عدل رينزى عن سياسته فى الحملة على الأشراف فصار يخالطهم وصاروا يدعونه إلى دورهم ، وأقلع عن تحديهم علناً . وكانوا يعتـدون بأنفسهم ، فلا يظنون أن أحداً يجرؤ على مناوأتهم . وزادت الخلطة بينه وبينهم ؛ ففى ذات مرة كان مدعواً إلى دار أسرة كولونا ، وقال له أحـدهم ممازحاً : « إنا لنالئك إذ نرى أوداجك قد انتفخت ، وقد تعتبر دوقا إن لم تكن إمبراطورا . » فأجابه رينزى : « سأكون بلا ريب إمبراطوراً ، والويل عندئذ لـكم ! » وحينئذ دعاه الحاضرون إلى أن يلقى عليهم بعض القول صائحين : « ألق موعظة من مواعظك » ورفعوه فوق مائدة . فأخذ يخطبهم مؤنباً طاعناً فيهم وفى أعمالهم ؛ وكلما زاد فى التأنيب ازدادوا ضحكا !

مع كل هـذا ، وفى غفلة من هؤلاء الأشراف كان رينزى يدبر أموره ، ويعد العدة لعهد أمن وإصلاح فى روما ، فـكان يجمع الأنصار وينظم الرجال من بين قوم يريدون لبلدهم خيرا .

وفى ١٩ مايو سنة ١٣٤٧ ، وكان زعيم أسرة كولونا أقوى الأسر الشريفة خارج روما مع رجاله ، جمع الزعيم الشعبى أنصاره قبيل الفجر ، وكان قد أخذ فى الصلاة منذ منتصف الليل ، وخرج إليهم من الـكنيسة ، وقد لبس الدرع إلا أنه كان عارى الرأس ، وكان إلى جانبه مندوب البابا الذى انضم إليه ، وتبعه أنصاره فى حفل حاشد ، وعلى رأسه تخفق ثلاثة ألوية ترمز إلى روما والبابوية ، وسار فى موكب إلى قصر الحـكم حيث خطب الناس خطبة عظيمة ، ثم قرأ أحد أعوانه النظام الجديد الصالح الذى يراد به الخير ، والذى يكون فيه السلطان للشعب لا للأشراف ، حيث يؤخذ المذنب بجريرته دون نظره إلى مركزه الاجتماعى ، ويسود الأمن وتسود الطمأنينة .

وصاحت الحشود تضع السلطة فى يد الزعيم ، وله أن يختار من الألقـاب ما يشاء ، فليكن طاغية ، دكتاتورا فى سبيل الإصلاح ، فليكن دوقا ، دوتشى ، أو ما شاء . ولـكن الزعيم يقنع بلقب رومانى معروف هو « زعيم

الشعب » ليحمل لواء الحرية والعـدل فى الجمهورية الرومانية المقدسة .
هكذا تم هذا الانقلاب من غير أن يسفك دم . وأخذ رينزى يعمل فى الحال على تنظيم المدينة وحفظ الأمن . وترامت أنباء هذا الانقلاب إلى الخارج ، وأرسل رينزى الرسل ، والرسائل ليعلم من لم يعلم من الأمراء بهذا الانقلاب . ولم تكن يداه خاليتين من العمل داخل روما نفسها ، فمن البديهى ألاّ يرضى الأشراف عن هذا النظام . وكان ستفانو كولونا زعيم الأسرة أول من غضب حين ترامت إليه الأنباء وهو فى رحلته ، فعاد فى التو إلى روما ليطرد الدعى فى رأيه . وكان ستفانو حديديًّا شارف التسعين من عمره ، ومع ذلك يمتطى جواده بلا مساعد ، وله من الأولاد والحفدة عدد كبير ، ألفوا السلاح ورضعوا من دماء أسرة أورسينى خصومهم منذ نعومة أظفارهم . وقد مرت بستفانو أحداث كثيرة فى عمره الطويل ، فهل يهتم بجنون هذا المهرج !

عاد ستفانو قاصداً روما ، فما أشرف عليها حتى جاءه رسـول الزعيم يعلنه بالعودة من حيث أتى ، فـكان جوابه فى بساطة : « قل لهذا المجنون إنى إذ غضبت عليه بعض الغضب ، فسألقيه من نافذة القصر » . وسمع الزعيم بهـذا التهديد فقرع أجراس المدينة ، وإذا الشعب يحتشد فى جموع هائلة ، وإذا ستفانو يضطر أن يتراجع أمام المجنون المهرج ويعود أدراجه .

أصدر الزعيم بعد ذلك أمراً إلى جميع الأشراف أن يلزموا ضياعهم وقصورهم واحتل رجاله الجسور والمواقع المحصنة ، ودمر ما أقامه الأشراف من متاريس وحصون داخل المدينة ، وقبض على رؤساء العصابات الإجرامية فى روما وفيما حـولها من بلاد ، وطلب إلى الأشراف أن يوافوه إلى مقر الحـكم حيث دعاهم إلى أن يقسموا بأن يخضعوا لقوانين الدولة ، ثم دعا من بعـدهم القضاة ثم المحامين ثم التجار ليقسموا يمين الإخلاص . وأقام محكمة العدل ؛ لتفصل فى الخصومات ، ولمعاقبة المجرمين ، فاستتب الأمن فى روما وفيما حولها من البلاد .

وكان الزعيم يعمل ليلا ونهارا للنظر فى أمور الدولة وفى مخاطبة الدول والأمراء ، وهو يملى على كتّابه رسائل بليغة يشرح فيها أغراضه ومراميه لخير روما وإيطاليا شرحاً وافيا ، فهو يطلعهم على ما حققه لروما من سعادة ، وهو يرجوهم أن يرسلوا إليه مندوبين وخبراء للجمعية الـكبيرة التى تحقق إقامة الدولة الصالحة ، وتعمل فى روما على عقد معاهدة تحالف عام لتحرير البلاد الإيطالية

عامة من استعباد الأجنبى ، وكانت هذه الآمال التى كانت تجيش فى صدره تجيش فى صدر كل إيطالى . ولئن كان من العجيب أن تجد هذه الآمال من يدعو إليها ويعمل على تحقيقها فى زمن انقسمت فيه المدن والإمارات الإيطالية وتفرقت شيعاً ، وكان يحارب بعضها بعضاً ، مستعينين بالقواد والجيوش الأجانب. وكان بعض الأراضى الإيطالية تابعاً لملك فرنسا ، وبعضها تابعاً لملك أسبانيا ، وبعضها تابعاً للإمبراطور الألمانى ، فليس عجيباً أن تهز هذه الدعوة القلوب وأن يجد كولا دى رينزى شاعراً عظيما ومفكراً جليلا مثل بتراركا يقول : « أكرموا أيها المواطنون هذا الرجل . أكرموه فهو يكاد يكون رسول العناية ، ونعمة نادرة من نعم الله ، وابذلوا حياتكم فى سبيل سلامته . »

كان الأشراف يتربصون به السوء ، وكان الزعيم الشعبى وقد زادت سلطته يتحداهم . وقد أتى فى سبيل ذلك بأعمال تؤخذ عليه ، وتدل على القسوة ، وإن كانت ليست بالمستغربة فى عصره . فمن ذلك أن أحد الأشراف لزم قصره ولم يأت ليقسم يمين الإخلاص للدولة الصالحة ، لعجزه عن ذلك ؛ فقد كان مريضاً بداء عضال لا يقوى معه على الحراك ، فأمر الزعيم بأن يقتل لعدم طاعته ، حتى يكون عبرة لغيره من الأشراف .

وفى ذات يوم دعا ثلاثة من أكبر رجال أسرة أورسينى ، واثنين من أسرة كولونا من بينهم ستفانو زعيم الأسرة ، وتحدث إليهم فى أمر دولته ، فأغلظوا له القول ، فأمر باعتقالهم على أنهم خونة للدولة وعزم على قتلهم ، وأرسل إليهم قساً ليعترفوا له اعترافهم الأخير ، وتجمع أهل روما ليروا مشهد الفتك بهؤلاء الأشراف . ولكن الزعيم الشعبى أخذته الرأفة فى اللحظة الأخيرة ، فاندفع يخطب الجمهور فى أمرهم ويلومهم على كراهيتهم للنظام الذى أقامه وتدابيرهم فى الخفاء للقضاء على الدولة ، ثم أعلن الصفح عنهم ، وعينهم قواداً لحماية دولته .

مثل هذا العفو لم يكن إلا ليزيد حفيظتهم وكراهيتهم للزعيم ، فاتحدت كلمتهم على مقاومته والسعى للقضاء عليه .

بدءوا يقاومونه فعلا بأن التجئوا إلى ضياعهم ومدنهم الحصينة حول روما وعملوا على منع الأقوات من أن تصل إلى المدينة ، فأخذ القوت يقل فيها ، وعجز عامة الناس عن الحصول عليه ، وأخذ رينزى يعمل على مقاومة من أعلن العصيان

منهم علانية ، وينظم الجنود من أبناء روما لقتالهم . ومن الطبيعى أن يمر على الناس بسبب الضيق نوع من عدم الثقة فى الدولة الصالحة . وشعر رينزى بالعسر المالى حين اضطر إلى تجنيد الجنود من أهل روما ، ففرض ضريبة على الملح ضاق بها العامة ، فلم تعد عبارات الزعيم تؤثر فيهم ، ذلك الزعيم الذى كان مثلهم فقيراً معدما ، وهو الآن ينافس الأشراف فى ثرائهم ويظهر لهم كل يوم فى ثياب الحرير المزركشة بالقصب أو فى دروع مزخرفة بالذهب .

يقال لهم إنهم يقاتلون من أجل الوطن ، ولكنهم لايرون فى تلك الحروب المتصلة مع الأشراف قتالا من أجل الوطن . وللأشراف بعدُ فضائلهم ، فهم إذا ظلموا العامة فإنهم يعرفون فى احتفالاتهم كيف يرضونهم ، وكيف يوزعون عليهم فى سخاء ما سرقوه ونهبوه منهم . وزعيم الشعب لايعرف هذا الفن فى حفلاته ، وهو أجدر فى هذه الحفلات أن يسمى زعيم الكلام .

استغل خصوم رينزى هذا الانقلاب فى عقلية الجمهور كما استغلوا خلافا من نوع آخر أشد خطراً فى ذلك العصر ؛ فمن الطبيعى أن يحدث بين الزعيم القوى صاحب السلطان وبين نائب البابا خلاف على السلطة ، ومن الطبيعى أن ينقل نائب البابا هذا الخلاف إلى المجال الدينى ؛ ففى تصرفات رينزى وبطشه بخصومه ما لايتفق مع سياسة الكنيسة ، وفى أفعال رينزى فى احتفالاته التى كانت مزيجاً من الاحتفالات الدينية والرومانية القديمة ما لايتفق مع الكنيسة ، وفى الآراء التى كان يفوه بها ما لايتفق مع الكنيسة ؛ وقد أدى ذلك كله إلى أن وقَّعت الكنيسة عليه عقوبة الحرمان ، فانفض الناس من حوله ، فنزل عن سلطانه لنائب البابا ، وفر من المدينة .

فى شهر يوليه من سنة ١٣٥٠ وصل إلى مدينة براغ رجل فى ثياب راهب ، وقصد إلى قصر لودڤج ملك هنجاريا ، وطلب مقابلته فى أمر خاص ، فوافق الملك على مقابلة الراهب المجهول . فلما مثل الغريب بين يديه تحدث إليه عن راهب يعيش فى مونتشللو اسمه الأب أنجيولا ، وقال : « لقد اختار سفيرين أرسل أحدهما إلى البابا فى أڤنيون ، وأرسل الثانى إليك أيها الإمبراطور . »

فنظر إليه الملك الهنجارى بعينيه الواسعتين وقال له : « إذن تكلم » .

فتكلم الغريب طويلا ، فذكر أن العالم يدخل فى طور جديد تكون فيه سعادة

ويكون فيه رخاء ، وتكون فيه عزة للأمم المسيحية . وعرف الملك من الحديث بعض آراء صاحبه فقال : « إنى لأكاد أعرف من أنت » . فقال الغريب : « من تظننى أكون؟ » قال الملك : « أظن أنك الزعيم الشعبى لروما . » فقال رينزى : « أجل ! إنى كولا الذى كان من فضل الله عليه أن حكم فى سلم وفى عدل وفى حرية ، مدينة روما . »

وتحدث كولا إلى الملك طويلا عن روما ومجدها القديم وما يريده لها من مجد حديث ، وعن الكنيسة وما ينتظر لها من رفعة فى ظل راع جديد يتوج الملك ، فيجعله إمبراطوراً وسيداً على بلاد الغرب ، ويعيد الزعيم الشعبى إلى روما ، فيمد سلطانها ، ويصير سيداً على الشرق . وكان الملك يسمع هذه الأحلام والآمال فى صمت ، ولكنه أرسل كولا دى رينزى إلى أسقف المدينة ، وعلماء الدين كى يباحثهم فيما عزته إليه الكنيسة من أقوال مثيرة اعتبرتها خروجاً على تعاليمها .

أقام كولا رينزى فترة من الزمن فى براغ يتردد على رجال الدين ، ويمضى أيامه فى مناقشتهم ، وقد أدهش علماء تلك البلاد بخصب تفكيره . وكان لا يعيش عيش التقشف ، بل يتبع الألمان فى كثرة أكلهم وشرابهم ، ثم نقله الملك إلى حصن على نهر الألب حيث بقى سجيناً عدة أشهر ، وكان الجو لا يلائمه ، ولم يكن واثقاً من مستقبله ، فكان يمضى الوقت فى كتابة الرسائل إلى الملك يرجوه أن يستحث محكمة رجال الدين على النظر فى مسألته ، فقرر الملك أن يرسله إلى البابا فى أفينيون فنقل إليها محروساً .

مثل رينزى أمام محكمة الكرادلة ، فلم يطلقوا سراحه كما فعلوا منذ زمن قصير بالملكة چيوفانا ملكة نابولى التى خانت زوجها ثم اشتركت مع عشيقها فى قتله ، بل قضوا بسجنه ، فوضع فى قلعة من أحصن قلاع القصر مكبلا بالأغلال ، وكان الغل مثبتاً فى جدار الغرفة .

ثم حدث فى هذه الأثناء أن توفى البابا القائم ، ووقع الاختيار على أسقف أوستيا ، فتولى عرش البابوية تحت اسم أنوسنزو السادس ، فعفا عن كولا وباركه وعينه مساعداً للكردنيال البورفوزو الذى عهد إليه بتهدئة إيطاليا وإعادة حقوق الكنيسة فى روما .

سافر رينزى إلى بروچيا وأقام فيها بعض الوقت إلى أن تمكن من مقابلة

الكردينال البورفوزو ، وفى حديثه الخلاب طاب إليه أن يعينه قنصلا على روما ، وهو يعرف كيف يعيد إلى الكنيسة حقوقها ، ويعيد الأمن إلى تلك المدينة ، فأجابه الكردينال إلى طلبه ، وعينه قنصلا على روما .

عاد إلى روما فى كوكبة من الرجال ، فقابله أهل المدينة كما يقابل الفاتح وزينت الشوارع والجسور وارتفعت أصوات الهتاف والتهليل إلى عنان السماء . فلقد عرف أهل روما فضله بعد ذهابه ، وذاقوا عذاب الفوضى والظلم . وقبض رينزى على زمام الحكم بقوة وعزم ، وأخذ يصرف الأمور بميزانه الذى لم يكن عدلا كله ، ولكنه فى ذلك العصر كان يعد ميزان العدل . وعاد الزعيم إلى كتابة رسائله وإرسالها إلى الملوك والأمراء كعادته يشرح فيها آماله من أجل روما وإيطاليا ، وما يرجوه لها من رفعة ومجد ، ويستحثهم على مؤازرته فى مقصده .

وحاول رينزى أن يخضع الأشراف للنظام والقانون ، فلم يستجيبوا له ، بل كانوا فى هذه المرة أشد عداء له ، وأكثر اتحاداً على مقاومته ، فعزم على كسر شوكتهم والقضاء عليهم وفى طليعتهم أسرة كولونا

اشتد رينزى على الأشراف ، وأخذ يقاتل الذين تحصنوا منهم فى حصونهم ، ويهاجم حصون آل كولونا وقراهم ، وسقط فى يديه بعض الأشراف من أسرة كولونا فما رحمهم ، بل نكل بهم تنكيلا ، متهما إياهم بالسرقة والنهب والعدوان . وكان من بين قواد الجيوش المرتزقة قائد كبير جمع ثروة كبيرة من الاعتداءات ومن تأجير عصاباته للأمراء ، وقد استعان رينزى بأخويه على قتال الأشراف فطالبا بزيادة أجرهما فلم يلب رينزى طلبهما ، فدخل أخوهما ضواحى روما غازيا ، وكان رينزى يحاصر حصاراً شديداً مدينة باسترينا معقل آل كولونا ، فرفع الحصار . فأرسل القائد إلى رينزى رسولا يطلب المصالحة على أن يدفع مبلغاً من المال ، فرضى رينزى وأمنه على نفسه ودعاه لمقابلته ، فما جاء إليه حتى أمر بالقبض عليه وحوكم على أنه قاتل ، وقاطع طرق ، وناهب ، فحكم عليه بالموت وقتل على مشهد جمهور كبير من أهل روما ، وصودرت أمواله جميعاً ، فذهب بعضها إلى رينزى ، وذهب بعضها إلى نائب البابا ، وبعضها ذهب إلى خزانة البابا نفسه .

ثم فترت حماسة الجمهور الرومانى المتقلب ، وأخذوا يرمون الزعيم بالظلم والقسوة ؛ فمقاتلته الأشراف ليست إلا العمل للقضاء على أبناء روما ، وقتله

قائد الجيوش المأجورة ليس إلا الطمع فى أمواله . وبدلا من أن يجد الرومانيون فى قتل هذا القائد القضاء على عامل من عوامل الفساد فى الحياة الإيطاليـة ، فإنهم ثاروا لموته ، وعدّوه شهيداً أو كالشهيد . ووجدوا أسباباً أخرى لاستيائهم ؛ فقد زاد رينزى ضريبة الملح كى يتمكن من مقابلة النفقات المتزايدة لجنوده من أبناء روما ؛ فإن هؤلاء أصبحوا لا يقبلون الأجور الزهيدة على اعتبار أنهم إنما يعملون لخير وطنهم ، بل طالبوا بأن تكون أجورهم مثل أجور الأجانب الذين يعملون فى خـدمة الأشراف . ألم يتغلبوا على الأجانب أكثر من مرة ؟ فلم ينقدون أجوراً أقل منهم ؟

تجمعت الأشياء كما تتجمع سحب الشتاء ، وشعر رينزى بهبوب العاصفـة وأخذ الأشراف يستعدون للموقف الفصل ، وفى ذات يوم سمع رينزى فى قصر الحكم صيحة معروفة فى روما : « أيها الشعب ! أيها الشعب ! » وهى صيحة أسرة كولونا المعروفة فى الحروب وإلى جانبها صيحة خطيرة ترتفع من أفواه الجماهير : « ليمت الخائن الذى فرض الضرائب » وكانت الجماهير تهاجم القصر .

وقف الزعيم حائراً ، وفـكر فى أن يرتدى درعه ، وأن يخرج مرة أخرى إلى الجمهور ، ويسلط عليهم سحر بيانه ، فارتدى الدرع وخرج إلى الشرفة ، ولـكنه قوبل بالحجارة والنبال فارتد إلى الداخل ، وخلع درعه فى سرعة ؛ ولبس ثياباً حقيرة ، وعمد إلى أغطية السرير وربطها وتدلى إلى الشـارع من خلف القصر ، وكان الجمهور بقيـادة الأشراف يشعل النار فى الأبواب الخارجية للقصر ، فما اجتازها حتى وجد أمامه الأبواب الداخلية ، فأخذ يشعل النار فيها .

سار الزعيم فى طريقه ، وتمكن من اختراق النطاق الأول من الحراس الذى ضربه الثائرون حول القصر ، فما وصل إلى النطاق الثانى حتى عرفه بعض الحراس فقبضوا عليه ، وتصايحوا بأنهم قبضوا على الخائن وعاجلته الطعنات من كل جانب ، فخر صريعاً فى أيدى الجمهور ، وجره أتباع آل كولونا إلى قصرهم فى روما حيث بقيت جثة الزعيم معلقة بضعة أيام إلى أن أمر أعداؤه بدفنه .

وهكذا حدثت مأساة الماضى القريب ، فى ذلك الماضى البعيد ، رينزى الذى وصفه أحد المؤرخين فقال إنه كشهاب لامع فى سماء روما ، أضاء فترة ثم انطفأ ، فأعقب ظلاما .

حسن محمود

رياضة الجبل

كل رياضة لا ينمو بهـا الجسم والعقل والُخلق جميعاً تفقد ركناً من أركان القوة التى يجب أن تتوافر فى الرجل السليم . فإن اشتد ساعدُه وهانت بصيرته فما هو بسليم ، وإن نما عضده وعقله وسقطت همته فما هو بسليم ، وإن كبر عقله وتضاءل عزمه وجسمه فما هو بسليم . . . ولقد حسِبَ الذين أصابهم الكِبَرُ قبل أن يبلغوا أجله أن الرياضة لعب ولهو ، وأن الحياة وقار ، وأن الوقار جمود ، وحملوا بنيهم وبناتهم على أن يتخلقوا فى ربيع الشباب بخلق الشيوخ . . . ثم سئموا بعـدها تـكاليف الحياة واستذلهم العجز والخمول فلا ينهضون لخير ، وهرمت أمم مختارةٌ ، واستمتع غيرها بالشباب والقوة والنهوض والعزم . . .

ولقدسألت نفسى فى مطالع الجبل سؤالا أبدئ فيه ثم أعيد ، عسى أن أجد وجه الصواب فيه لا ظالماً ولا مظلوماً . . . كيف يبصر وجه الحياة من شبَّ مكتوفاً فى منازل العسر والجهل ، وإن أبصر وجه الحق ضاقت حيلته ، ولا يسمع مرشداً يحبُّه ولا هادياً يهديه . والإنسان معدن قد يغفل فيترا كم عليـه التراب وقد يقدقد السيف فيكون حيًّا صارماً . . . وكيف يبصر جانب الحق شباب لايسأل نفسه عن شىء ولا يسأله سائل عن شىء ، فركب من الحياة مركباً هيِّناً ، ونعم بنعمـة الظل فى مطلع الربيع ، فذبلت زهرته التى لا تستقبل حرَّ الشمس ؟ . . . إن الإنسان فقير أبد الدهر إلى النور . . . فإن لم يأته نور من علم أومعرفة أوهداية أو تجربة ، نظر بعينيه فلا يبصر ، وأصغى بأذنيه فلا يسمع ... وكان حقًّا على القوى أن يضىء ظلام الضعيف ، وعلى العارف أن يهدى سبيل الضال . « فمثل رجل رأى ضالا فهداه الطريق كمثل الذى يضىء للناس من مصباحه فيعيش الناس فى ضياء ، ولا يمنع ذلك مصباحه من أن يضىء » .

ومن أولى بنشر ذلك النور ممن تولى قيادة الإنسان ، ومَنْ أمسك بيديه مصير الإنسان ، أى الذين نهضوا لحكومته . فإن نسى هؤلاء أنهم أئمة السعادة والنور ، وذكر هؤلاء أنهم مُسَلطون أشداء ، تردَّى من يحكمون فى ظلمات الحياة ، وكان جزاؤهم أن يكرهوا مثلما يُكره التسلط الغاشم الظالم .

ومن أولى بنشر ذلك النور من عالم يحب الإنسان وسعادة الإنسان . فإن أمسك عليه علمه كان مصيره كالشجرة التى يسقط ثمرها فلا يحيا به الناس . . . وخير ما يُنْعِم به الحاكمون فى أمة على شبابها وما ينعمون به على نفوسهم من جميل — سفينة فى البحر تحمل تجارة الأمة وتحمل شباب الأمة إلى كشف حجاب الطبيعة ، فيعلمون ما يعجز عن كشفه كل كتاب ، ويقرءون ما يقصر عن بيانه كل معلم . فكل معرفة لاتأتى من صحف الطبيعة صدى ليس من ورائه حياة . وكثير منها غرور وظن . ولا يزيدهم ذلك إلا تعطشاً للدار التى شبوا فيها وحنيناً للأرض التى ولدوا فيها . فإن جاءوا ديارهم بعد هذا جاءوها بعلم وقوة ، ومنعوها وأعزوها بعلم وقوة ، ولا يسأمون تكاليف الحياة والشباب . وكيف يسأم تكاليف الشباب من انغمس مرة فى أثير السماء ، ومن كشفت قدماه الصخور التى تتفجر منها البحيرات والأنهار ، ومن ملأ عينيه بالبسمات التى لا تحصى والتى تتوج رءوس الموج فى البحار ، ومن نام فى أحضان الأرض التى ولدت كل شىء وسار فى موكب الشمس التى تبصر كل شىء . . . ونمى عقله وعزمه وساعده .

مما أنعم الله به على الإنسان نعمتان . . . نعمة النسيان والفكر ، فكيف يخرج الفكر من النسيان . . . أوتار فى النفس تهتز من صفو ومن صدىً ومن نعيم ومن شجى ، وترسل الزهرة الناعمة وجهاً محبوباً وسعداً ، ويوقظ الطير الوديع بدعائه وندائه أوتار السماحة والرضا ، وتطاوع هذه الأوتار ماتسمع من خرير الحياة الدافقة التى تهبط عند مرمى العين من شاهق ، والتى تتلوى تحت قدميك فى ضمير المراعى ، والتى تترامى ضافية حية ، فإن اعترضها صخر دفعته فإن ثبت لها الصخر جرت من حوله عن يمين ويسار . . . وحينئذ يستوى الفكر والنسيان كما تستوى نعمة الفكر والنسيان إن ثملت الأوتار بالنغم العذب . وما تزال تتراوح هذه الأوتار من صدى إلى صدى حتى يغلبك الطرب على جمود الوقار ، وتغنى كما يتغنى من بين يديك كل شىء .

وفى ضحى الشمس نسيم تهتز فى آثاره أعطاف الأشجار، وأديم السماء صاف أزرق لا تختلط به الغيوم، وفى وضح النهار بياض مصفًّى لا تشوبه شائبة، وسكون وسلام وأمن . . . تقودك عصاك الطيِّعة من ظل الشجر إلى حر الشمس فوق الصخور التى يتبدل حولها ماء السحاب جليداً، والتى لا تبصر مكنونها العين، والتى خلقت مهبطاً للنور. وترى عند أقصى لفتاتك لوناً لا يكاد يستقر تحت الأبصار حتى يتبدل تحت طيف الشمس شيئاً آخر، وترسل الشمس ضوءها الوهاج فى قمم الصخور الباسقة فى كبد السماء، وفى أودية الثلج الأبيض الممتد بين هذه الصخور والقمم، وتشيع الشمس صفاء لاتدركه الأبصار وسلاماً لا يبلغه السمع، ويخرج من ثدى هذه الطبيعة كل شىء حى، وتنسيك الطبيعة كل شىء فلا تدرك خطو الزمان الذى يترك خطوه فى بعض الأرض الفناء . . . والهرم . . . ليس فى قلب هذه الطبيعة هرم ولا فناء؛ إنما ترسل هذه الطبيعة الفتوة وتثير هذه الطبيعة السعادة الكاملة التى توحى إلى النفس الخلود. فوق هذه الصخرة التى تشرف على قطع من الجليد، والتى يبلل جوانبها ماسال من قطع الجليد العليا إبر مدببة من رءوس الجبل عاتية مظلمة جرداء تعترض ضباب السحاب، وتعترض ما وراءها من سلاسل جبال تعلو وتنحدر كأنها رءوس الموج فى بحر عاصف، وتتلون هذه السلاسل بألوان قاتمة إذا حجب عنها ضياء الشمس. وإذا جلتها الشمس كشفت عما فى باطنها من مرعى أخضر تنفذ فى بساطه الأخضر القاتم كتل عارية من صخور حمر، حتى تلقى عند مدى العين سلسلة كلون السحاب بيضاء قد كسا رءوسها الجليد الذى تمزقه صخور سود. ويعترض مدى العين جانب شاهق يُسلم العين إلى صفحة السماء التى جرى فوق لونها المخضر الأزرق خطوط بيض وقطع من سحاب أبيض لا تستقر فى قرار وإنما تمرُّ مترفقة كأنها على سفر، ثم تهبط العين من شاهق السحاب إلى باطن الوادى فى هاوية تخضرُّ جنباتها ثم تكون صخراً مجرداً. واتخذت مياه القمم سبيلها من كل منزل واطىء إلى باطن ذلك الوادى . . . ولا تسمع فى رأس هذا الجبل سوى صوت مساقط الماء وهى تدوى فى جوف الصمت دويًّا يبدد عنفه فضاء الوادى . . .

وليس أعجب فى هذا الجبل من فعل الماء . . فهو كأنما يريد أن يغيث الناس من كل سبيل . . . فهو منبعث منطلق من شقوق الصخر ومن جيوب

الجبل . وإذا تجمع تدفق فأ كل باطن الصخر ، وهوى من صخر إلى صخر وبطون الصخر الأحمر والأبيض والأسود ملساء ناعمة لا تغير من بياض السيل شيئاً ، فهو صاف لا يخفى ما فى باطنه من شىء . وإذا لقى فى مجراه جندلا من جلاميد الصخر نفر فتناثر فوق رأسه بياض شاهق من فوقه رذاذ . فإن سد طريقه الجبل أكل ما استطاع من الأرض التى يستند عليها الجبل فيسقط مجرى السيل من رأس صخر سقط مما أكل السيل ، إلى رأس صخر هوى إلى ما انحدر من السيل . . فهى مساقط بعضها فوق بعض فى أعماق تتزايد كلما ضاقت جوانب الجبل . وكلما تجمع مجرى السيل فى هذه المضايق العميقة انبعثت منه قوة لا يقف فى سبيلها شىء . . . ويتجمع فى مجراه الضيق كتل من صخر موحش استقبلت سبيل الماء ولم تتجرد من طبيعتها الأولى ، فهى تحمل فوق رأسها شجراً حياً هبط معها من جانب الجبل ، وكلأ أخضر ما يزال مزهراً .

والله يغفر الذنوب جميعاً ، فقد مكثت عشرين يوما أنظر فى ثنايا الجبل إلى رءوس الجليد ومساقط الماء ، وأصغى إلى نفسى وإلى ما تجده من نعيم فى كبد الصمت ، وإلى ما يملؤها من فيح النسيم . ومضيت جامداً لا ألوى على هذه الزهور التى تناثرت فى المرعى الأخضر وعاشت فى عروق الصخر الجامد . . حتى قالت لى فتاة ذات صباح : « اجمع لى من زهر الجبل . . . » فأى نعيم فى هذه الحياة ينزل بنفوس الأحياء أنعم من هذه الساعة حين لا يبقى للنفس من شاغل سوى جمع الورد وتتبع الريحان والزهر . . . وتلفتُّ إلى هذا اللون الندى الأزرق الذى كسا رأس الزهر وتمايل فى ظلال الجبل مع النسيم . وتتلون الزهرات بحلى دَقَّ عن كل وصف . . .

ثم يحجب الصخر سحراً وعلماً لا يبلغه سوى القوى الفتىّ . وإن من الصخور لصخراً يأخذ بالألباب ويدعو بدعاء جُزُر الموسيقا التى دعت فى الأساطير كل عابر : أيها العابر الغريب ، من أتانا طرب بما لم يطرب به أحد رددناه إلى أهله بعلم . ومن جاءها هلك . ولا ينجو من التهلكة إلا من سد سمعه عن دعائها . وكذلك تدعو بعض الصخور : أيها العابر الغريب إنك لم تبلغ ضمير فِتْنتِى وسحرى ، فمن أتانى طرب بصمت وسلام لم يبلغه سمع ، ورددته إلى قومه بعلم ، ورأى ليلا لم يشهده أحد ، وشهد مطلع الشمس بسحر لا يعلمه أحد . ودون هذه الصخور كتل وأودية من جليد .

واتخذ فتية الجبل مغنماً من قيادة الرياضيين إلى تسلق هذه الصخور. وامتازت الرياضة فى الجبل بالصبر والتمهل والتعقل . . . والطريق البعيد خير دائماً من الطريق القريب . . . وأثقلت أحذية الرياضيين بقطع من الحديد تثبت فى الصخر وتقى من الزلل وتعصم من خفة الأحلام . وحمل الرياضيون طعامهم وبعض ما يحتاجون إليه فى حقائب يشدونها إلى ظهورهم ، وفى أيديهم عِصىٌّ تثبت فى الأرض بطوق من حديد مدبب ، ولها مقابض كهيأة الفأس أعدت لترفع ما عسى أن يعترض الطريق من ثلج ، وليحفروا بها موضعاً لأقدامهم فى الصخر الأملس والجبل القائم . . . ويقضون النهار فى مثانى مصعدة فوق الصخر الجامد والعشب اللين ، ويجتازون منازل السيل ثم يقضون الليل فى أكواخ عند أقدام أودية الجليد ؛ ليبرحوها قُبيل الفجر وراء الدليل إلى رأس الجبل ، وليشهدوا مطلع النهار والشمس .

ومن لم يأخذ لهذه الرياضة أهبتها ، ولم يتزود لها بالأناة والحكمة قد تزل به قدم إلى فج سحيق . . . وقد اخترت العزلة فى مطالع الجبل على تتبع الدليل ، ومشيت وحدى وسط النهار فى مثانى معلمة بخطى الذاهبين ، ولم أرد أن يكون لى صاحب يشغلنى بحديثه عما أرى وما أسمع ، فقد حرصت على أن أنفض عن قلبى فى صفو السكون ما عسى أن يكون قد اكتسب من ملالة بالناس فى حياة المدن . وكلما استقبلت بقلبى ما لم أكن أعلم من جمال وصحو أوت إليه الحياة والبشر والربيع والشباب ، وقرأت فى صفحة الطبيعة حكمة خفيت من قبل على قلبى ، وهى أن السعادة أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وأن الله قد ألزمها عنق الحياة حين قدّر الحياة للناس ، فنسيها الإنسان ونظر إلى حيث لا يشهد إلا الشقاء يوم استمسك بأهداب الطمع الذى أذل أعناق الرجال ، وبالمال الذى شتت الحبيبين . فمن استطاع أن يستقبل بملء جفنيه متهللا مستبشراً ثياب الفجر الوردية ويستقبل وجه الشمس بقلب سليم ، ويشرق قلبه كما يشرق الطير المغرد فى الصبح والزهر المتفتح فى مطلع النهار ، ومن استطاع أن يمشى فى الأرض تحت حرّ الشمس ، فيرى عند قدمه ظله حيًّا مشرقاً إذا فلح الأرض أو غرس الزهر أو مشى فى مناكب الأرض إلى معرفة وخير ، ومن استطاع أن يعمل نهاره فيثمر ما عمل وينمو عقله وعزمه وساعده نمو الخير ، ومن استطاع أن يطلق نفسه من كل عقال ، ويحرر قلبه من كل ذل مختار ، ومن استطاع أن يسير فى موكب الحياة

والشمس ، وأن يغمس قلبه فى أصيل الشمس ، ولا يحدثه الليل ببغيضة أو نقمة ويحدثه بالخير أبداً ، ومن استطاع أن يجمع ما غرست يمينه من زهور فيهديها للتى تحبه والتى لا تريد أن تحبه ، ومن استطاع ألا يفسد صفاء الليل بطمع وجمال النهار بجشع — من استطاع ذلك فقد كسب نعيم الحياة جميعاً ، وهو نعيم لم يختص الله به غنيًّا دون فقير ، ولا كبيراً دون صغير ، بل هو مال مشاع من سبقت إليه يده فهو له .

على حافظ

النهضة السياسية فى أندونيسيا

دراسة تاريخية عن يقظة الشعب الأندونيسى

إن الوضع الجديد الذى اتخذه الشعب الأندونيسى لنفسه فى هذه الحياة، منذ استسلام الإمبراطورية اليابانية فى شهر أغسطس ١٩٤٥ للقوات الحليفة، قد أثار الرأى العام العالمى وأعجبه! لأن علمه بحقائق الحياة الحديثة فى أندونيسيا لايؤدى إلى إشباع رغبة النفس فى التطلع إلى طبيعة النفس الأندونيسية التى اصطبغت بصبغة الحرية، وتقمصت روح الاستقلال. ولو أراد الباحث أن يستقصى الأسس التى تركزت عليها الجمهورية الحديثة فى أندونيسيا لما استطاع أن يدركها؛ لأن السياسة الاستعمارية قد ضيقت الخناق على الحركات الاستقلالية الأندونيسية خشية تسرب أنبائها إلى العالم. ونحن فى هذا البحث ندرس الحياة الأندونيسية الحديثة من الناحية السياسية دراسة تاريخية؛ ليطلع العالم على القواعد التى بنيت عليها دعائم الجمهورية الأندونيسية منذ ١٧ أغسطس ١٩٤٥.

منذ انبثق فجر القرن العشرين على أندونيسيا ظهر جيل جديد فيها مشبع بالروح الديموقراطية، متطلع إلى المثل العليا. وكانت الجامعات والمعاهد العليا الأندونيسية والهولندية تقذف إلى ميدان الحياة الاستقلالية شباب أندونيسيا، الذين على نشاطهم المتدفق نهضت أندونيسيا فى حياتها الحديثة، وعلى جهودهم العظيمة استطاعت أن تتمتع بالحرية السياسية التامة فى عام ١٩٤٥؛ ففى عام ١٩٠٦ أسس الدكتور وحيدين ناديًا للمعلمين انضم فى سلك عضويته طلبة الجامعات والمعاهد العالية ورجال السياسة والأدب والصحافة، وزمرة ممتازة من أقدر الموظفين الأندونيسيين فى الحكومة الهولندية. وهدَفُ النادى نشر الآداب الأندونيسية الرفيعة بين طبقات الشعب؛ لتستوحى منه الروح السامية التى خلقت شعبًا حيًّا كان له السيادة المطلقة فى المحيط الهادى والهندى فى عهد إمبراطورية سريويجايا ومجافائيت الأندونيسيتين منذ القرن الثامن حتى القرن

الخامس عشر . وقد أبدى نادى المعلمين نشاطاً ملموسًا فى توجيه العقول نحو التجديد والابتكار لمسايرة التطور العالمى فى شؤونه العامة . وكان الاحتكاك الأدبى بين الجاليات الأوروبية وبين طبقات الشعب الأندونيسى قد أثر تأثيراً كبيراً فى حياته الأدبية والسياسية والثقافية ، فأنتج هذا الامتزاج الأدبى وضعاً جديداً فى حياة الشبان الأندونيسيين أعضاء نادى المعلمين ، فالتمسوا طرقا متنوعة لتحقيق المثل العليا لأندونيسيا المستعبدة . وكان خير الطرق وأيسرها قلب النادى إلى هيئة سياسية تسعى إلى تحقيق الاستقلال السياسى لأندونيسيا الكبرى بالطرق العلمية الحديثة . فكفاح الاستعمار لاينتج ما لم تكن وسائله مبنية على الاطلاع التام بحقائق الحياة الغربية الاقتصادية والسياسية . واستعمال العلوم الغربية الحديثة فى الكفاح والنضال أس أولى لمقارعة السلاح بالسلاح ؛ إذ التضلع من العلوم الحديثة سلاح قوى فى أيدى الشعوب المستعمرة لاسترداد حريتها .

أصبح نادى المعلمين هيئة سياسية تسمت بأسمى المقاصد ، إشعاراً لنزعة الشعب الحديثة ، وتدليلاً على روحه الجديدة ، ورغبة فى تحقيق المثل العليا فى وضعه الحديث .

فما هو هذا الاسم الساحر ؟ وما هى تلك المقاصد السامية ؟

هو «النزعة الفاضلة» . النزعة إلى التجديد والابتكار فى طرق الحياة . النزعة إلى السمو فى العمل وفى مناهج أدائه . وقد قابل الشعب هذه النزعة السامية بعاصفة من الترحيب المشبع بروح الحماسة والمشاعر الملتهبة . ففى يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ استهل الشعب الأندونيسى حياته الجديدة تحت إرشاد جمعية Bœdi Œtomo — النزعة الفاضلة — فافتتحت أعمالها بنشر الروح القومية بين طبقات الشعب ؛ لتهيئة الأفكار لقبول الآراء الحديثة فى السياسة وفى الاقتصاد . فكانت عاصفة هوجاء عصفت بعالم الاستعمار الهولندى ؛ إذ كانت الروح القومية قد اشتعلت والتهبت قبل أن تثير جمعية « بودى أوتومو » النفس الأندونيسية للجهاد فى سبيل التحرير السياسى . فطلب الزعماء الأندونيسيون من السلطة الهولندية تعديل النظام السياسى ، وتغيير سياستها الاستعمارية ، بإعطاء الشعب حقه فى إدارة وطنه ، واستغلال جهوده فى تنمية الإنتاج الصناعى والزراعى . وأسهل طريق لتنفيذ طلب الزعماء إنشاء حكومة أندونيسية

ترتبط بالتاج الهولندى أدبيًا ؛ كيلا تفقد هولندا مكانتها الممتازة ومركزها السياسى والاقتصادى فى الشرق الأقصى . واستند الزعماء فى أحقية مطالبتهم بالحقوق السياسية لأندونيسيا على غنى الوطن الأندونيسى بالأيدى العاملة والرءوس المفكرة . يدل على ذلك إنتاج الجامعات والمعاهد العالية ، والمدارس الصناعية والتجارية والزراعية العليا من الشبان المثقفين ثقافة عالية ، وانغماسهم فى ميادين الأعمال الحرة أو فى دوائر الحكومة الهولندية . فالمصانع الهولندية والشركات الأوربية المتحدة ذات المصانع والمعامل زاخرة بالأيدى الأندونيسية العاملة والرءوس المفكرة ، زيادة على المشتغلين بالمحاماة والقضاء والصحافة والسياسة والتجارة والصناعة والزراعة . وقد أنتج هؤلاء أعمالاً سياسية واقتصادية تثبت تضلعهم من مناهج الحياة الحديثة ومسايرة التطور العالمى فى السياسة والعلوم والاقتصاد . وإزاء هذه المطالب الأندونيسية واندفاع الروح التحررية فى ميدان السياسة لم تجد الحكومة الهولندية بدًّا من مسايرة التيار الأندونيسى وفسح المجال له كيلا تصطدم به ؛ لأنها أدركت أن المشتغلين بالحركات الاستقلالية ممن تثقفوا ثقافة عالية من الجامعات الهولندية والأندونيسية ، ونالوا ألقابًا علمية رفيعة منها يؤازرهم خريجو الجامعات الأمريكية . وهم على اطلاع واسع ومعرفة وثيقة بدقائق السياسة الاستعمارية الغربية وطرق مقاومتها . وقد أنشأ المستر فان دفنتر المحامى الهولندى وأحد الهولنديين الخلقيين مقالاً فى مجلة « الدليل » الهولندية الصادرة بلاهاى فى شهر مايو ١٩٠٨ حول اليقظة الأندونيسية ، وظهور الجمعية السياسية « بودى أوتومو » تقود الشعب الأندونيسى فى طريق السياسة الشائكة ؛ للوصول إلى تحقيق الأمل القومى للشعب الأندونيسى . وقد جاء فى هذا المقال الكلمات التى اختلجت فى مخيلة هذا الهولندى الذى نظر إلى موقف حكومته إزاء الحركات الاستقلالية الأندونيسية التى بدأت تتطور وتشمل كل الجزائر الأندونيسية ، فحفزته وطنيته إلى تبيين الخطة التى تستطيع بها هولندا أن تحتفظ بمركزها الاقتصادى فى أندونيسيا إذا انتهجتها ، وإلا انهارت إمبراطوريتها انهياراً تاما !

قال المستر فان دفنتر : « إننا نعجب من يقظة هذه الفتاة الجميلة ! فيجب علينا أن نحذر مستقبلها ؛ فقد تثير علينا روح البغض والكراهية لسيطرتنا عليها ،

فيثير هذا الشعور تياراً يجتث جذور استعمارنا . وليس الوقت الذى نجد فيه أنفسنا غير قادرين على مقاومة الروح القومية للشعب الأندونيسى ببعيد، فيجب على السلطات الهولندية أن تتيقظ وتستعد للمستقبل، المستقبل الغامض . إن مستقبلنا فى سياستنا الاستعمارية للشعب الأندونيسى يتركز على أساسين . الأول : الضرب بيد من حديد على الحركات التحريرية الأندونيسية للقضاء عليها . والثانى : مسايرة الشعب الأندونيسى فى حركاته ، وهى الطبيعة اللازمة لحياة الدول الاستعمارية . فالسير على الأساس الأول غير صحيح ؛ إذ يؤدى بنا إلى الاندحار فى ميدان الشرق السياسى والاقتصادى . وأما العمل على الأساس الثانى فهو السياسة الرشيدة ، وهو شرف لنا وتمكين لحياتنا السياسية والاقتصادية . وسوف نجد من الشعب الأندونيسى التعاون المشترك والحب المتبادل . ويجب أن ندرك أننا نحيا على الإنتاج الأندونيسى ، فإذا فقدناه فطريقنا ستؤدى إلى الفناء المحتوم ! »

أثار هذا الرأى الهولندى الحر الدوائر الهولندية فى أندونيسيا وهولندا ؛ لأنه كان بمثابة قنبلة ألقيت على النظام الاستعمارى الهولندى . وتجاه هذا التحول الفكرى فى بعض ساسة هولندا اتخذت الحكومة الهولندية خطة قاسية للقضاء على الحركات السياسية الأندونيسية ، فألغت بعض الهيئات العلمية والرياضية والأدبية الأندونيسية ؛ لأنها رأت منها اتجاها نحو مناوأة الاستعمار المتمثل فى شخصية الهيئة الحاكمة الهولندية . وقد أبدى الشعب الأندونيسى جلداً وعزماً من هذه الضربة القاسية التى حطمت مؤسساته القومية ، فاستعد لتتابع النضال والدعوة إلى السياسة السلبية تجاه الحكومة الهولندية .

تشير برامج جمعية « بودى أوتومو » إلى العمل بكل الطرق الممكنة لتحرير أندونيسيا من الاستعمار ، وإلى تعميم الثقافة العالية بين طبقات الشعب ، ثم إلى إصلاح الحالة الاقتصادية . وقد سارت الجمعية فى تنفيذ هذه البرامج ، فأوجدت قسما إداريا عاملا لوضع السياسة القومية للمطالبة بالاستقلال ، ونشر المعلومات الدقيقة عن مستوى التربية السياسية للشعب ، ولجنة خاصة للدفاع عن حقوق الشعب المغتصبة والدفاع عن أعماله . وأنشأت أيضاً مدارس عالية ومكاتب وأندية للتهذيب العالى ، وأسست أيضاً مصارف ومحلات تجارية ، وساعدت الفلاحين وصغار المزارعين والتجار بإقراضهم الأموال لرفع مستوى أعمالهم .

فى عام ١٩١٢ ظهر فى المسرح السياسى الأندونيسى حزب Sjarekat Islam أو « الرابطة الإسلامية » برئاسة الزعيم المسلم الشهير شكرو أمينوتو . ظهر هذا الحزب ليؤدى الرسالة الإسلامية الإصلاحية مازجاً معها ما أنتجه العقل الغربى من علوم حديثة .

ويستدل من أعمال الحزب برنامجه القومى . وهو يدل على أداء العمل السياسى لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى ، ثم نشر التعليم العام مقروناً بالتهذيب الإسلامى ، ثم إصلاح الحالة الاقتصادية بتنمية الإنتاج الزراعى والصناعى وتحسين وسائله ، وإنشاء إدارات رئيسية لتتولى إدارة شؤون مختلفة من المصالح العامة لتكون حكومة مصغرة داخل الحكومة الهولندية . وأهم هذه الإدارات هى : إدارة المالية والاقتصاد والتعليم والشؤون الخارجية والزراعة والدين والرياضة . وأنشأ أيضاً السلطات الثلاث الكبرى — القضاء والتشريع والتنفيذ — لتدريب زعمائه ورجاله على أصول الحكم . وقد طلب من الحكومة الهولندية إنشاء حكومة أندونيسية ليشترك الشعب فى الإدارة والحكم . وكان قد سبر غور نفسه ومقدار كفايته فى إدارة الحكومة ، فالهيئة العاملة فيه من أقطاب السياسة والإدارة . ويدل هذا على استطاعة الحزب تكوين الإدارات الرئيسية فيه ، والسلطات الكبرى الثلاث .

وأبرز أعضاء الحزب السيد عبد المعيذ ، ويشغل وكالة الحزب ، وهو يمثل الناحية العصامية فى القوة النفسية والإدارية بين أعضاء الحزب ، والمستر أغوس سالم أكبر مؤرخى الجيل الحديث فى أندونيسيا ، ومن أشهر العلماء المفكرين . ويشغل جانباً كبيراً من الناحية السياسية والاقتصادية فى الحزب فيلسوف من فلاسفة القرن العشرين له مؤلفات كثيرة فى السياسة والاقتصاد ، أشهرها « الأسواق العالمية » و « تاريخ العالم » ، وقد مثل حزبه وزميله السيد عبد المعيذ فى المجلس النيابى فى دورته الثانية ، وفى عام ١٩٢٢ انتخب عضواً فى المؤتمر الدولى لنقابات العمال بجنيف ممثلا نقابات العمال الأندونيسيين . وقد استطاع بحنكته الإدارية والسياسية وتضلعه من العلوم الاقتصادية الحديثة وما يرتبط بها من فروع المعرفة أن يؤثر فى المؤتمرين تأثيراً كبيراً ، ويبنى لأندونيسيا مركزاً ممتازاً فى الاقتصاد . ومنذ أعلنت الجمهورية فى أندونيسيا فى ١٧ أغسطس عام ١٩٤٥ أصبح المستر أغوس سالم مستشاراً لرئاسة الجمهورية ، ثم متكلماً

باسم وزارة الخارجية فى وزارة الدكتور شهرير ، ثم عين وكيلا لوزارة الخارجية . ولا يزال يشغل هذه الوظيفة ويؤدى أعمالها بدقة أثبتت كفايته السياسية فى ظرف تجتاز فيه أندونيسيا أكبر عملية امتحان دولى ؛ لتثبت أحقيتها بحريتها السياسية واستقلالها التام .

انتهج الحزب السياسة التعاونية مع الحكومة الهولندية ؛ ليُفْسِحَ للشعب مجال العمل فى ميدان أوسع حرية ؛ فقدم مذكرة إلى السلطة الهولندية تعرف باسم « مذكرة شكرو » ووقعها أبرز رجالات أندونيسيا . وقد ورد فى هذه المذكرة طلب إنشاء حكومة وطنية ذات برلمان ، فوعدت الحكومة الهولندية بلاهاى الزعماء الأندونيسيين بإنشاء الحكومة وبرلمانها حينما يصفو الجو الدولى وتضع الحرب أوزارها (الحرب العالمية الأولى) فقبلوا هذا الوعد . ولم تدفعهم سياستهم القومية إلى ختل السلطة الهولندية والقيام بثورة عنيفة تقضى على الاستعمار الهولندى فى ظرف أصبحت فيه المملكة الهولندية كريشة فى مهب الرياح !

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، أنشأت الحكومة الهولندية مجلساً نيابيًّا مختلطاً ، وانتخب أعضاؤه من الهولنديين والأندونيسيين والشرقيين . فعدت الأحزاب السياسية الأندونيسية هذا المجلس ملعباً هولنديًّا تمثل فيه المهازل السياسية ! فعدل حزب الرابطة الإسلامية سياسته ، واتبع السياسة اللاتعاونية ؛ لعبث الحكومة الهولندية بمطالب الشعب . ثم شرعت فى إرسال الزعماء وكبار المشتغلين بالحركات الاستقلالية إلى جزيرة غينيا الجديدة أو الأرض الحمراء ؛ ليلاقوا حتفهم جزاء بما كسبت أيديهم من مناوأة السياسة الاستعمارية !

إن السياسة الهولندية بعد الحرب العالمية الأولى كانت تفسح المجال لاندفاع الأندونيسيين فى ميدان التحرير السياسى . فالشعب الأندونيسى لم يرعبه منفى غينيا الجديدة أو السجون الحالكة ؛ لآرائه السياسية ، ومقاومته السياسة الهولندية . وأعظم ظاهرة لهذا الجهاد الأندونيسى ، انتشار فروع حزب الرابطة الإسلامية فى المدن والقرى ، حتى بلغ عدد أعضائه ثلاثة ملايين عضو زعزعوا دعائم الاستعمار الهولندى وهزوا عرشه بالأرض المنخفضة ! ثم ظهور أحزاب سياسية لتحرير أندونيسيا من النظام الاستعمارى الهولندى . وأشهرها :

حزب أنسولندا أنشأه ثلاثة من زعماء أندونيسيا هم الدكتور دويز ديكر ، والدكتور شفتوماعون كسومو ، والبروفيسور ديوانتارا ، فى ٦ سبتمبر ١٩١٢ . وسياسته توحيد مواليد أندونيسيا الأوربيين فى الوحدة الأندونيسية ؛ ليشتركوا فى الدفاع عن أندونيسيا . ولما انتشرت روح الوحدة بين الطبقات الأوروبية حلت الحكومة الهولندية حزب أنسولندا ، ونفت زعماءه إلى الجزر الأندونيسية النائية ، ثم رُحِّلوا إلى هولندا ومكثوا ست سنوات بعيدين عن الأعمال والحركات السياسية . وفى عام ١٩٢٢ ترك البروفيسور ديوانتارا الاشتغال بالسياسة ، وخاض ميدان الثقافة ، فأنشأ مؤسسة ثقافية « تامن سيسوا » لنشر التعليم الحديث للجيل الجديد . وبلغ عدد المدارس التابعة لهذه المؤسسة فى عام ١٩٢٧ سبعمائة مدرسة من رياض الأطفال حتى العالية . وفى ابتداء سلطة الجمهورية الحديثة تولى البروفيسور ديوانتارا منصب وزارة المعارف .

ثم فى مايو ١٩١٣ هبت على أندونيسيا العاصفة الاشتراكية الكبرى ! فتأثرت بنظمها الحديثة فى الاقتصاد والسياسة . والشعب الأندونيسى شعب شرقى يلاقى الأمرَّين من السياسة الاستعمارية الهولندية . فحينما سارت التيارات الاشتراكية من أوربا تقبلتها أندونيسيا بصدر رحب ؛ لأنها ستقضى على الرأسمالية العالمية التى تؤيد السياسة الاستعمارية الهولندية ، فتستنشق نسيم الحرية وتحلق فى أجوائها .

سنفليت . . . اشتراكى هولندى ، أرسلته الهيئة الاشتراكية العالمية بالروسيا إلى الشرق الأقصى لنشر الروح الاشتراكية فيه . وصل إلى أندونيسيا فى عام ١٩١٣ ، فاتصل ببعض العمال والموظفين الهولنديين فى مدينة «سمارانج» وخاض معهم فى أحاديث ذات شجون ، واستطاع بخبرته الواسعة جذب نفوس العمال والموظفين إلى حظيرة الاشتراكية العالمية ، فبرز منهم عدد ذو ميول متطرفة . فأسس سنفليت بمساعدة الاشتراكيين الهولانديين والأندونيسيين الحزب الاشتراكى الديموقراطى ، وأعلن برامجه وهى [١] إيجاد حالة اجتماعية واقتصادية جديدة للشعب الأندونيسى [٢] العمل لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى [٣] قلب نظام الحكم رأساً على عقب . وسعى الحزب إلى تنفيذ هذه البرامج بكل الطرق الممكنة ، فظهر فى محيط العمال

تأثير المذهب الاشتراكى الحديث ؛ فحدثت عدة إضرابات واعتصابات ، نتيجة لمطالب العمال بتحسين حالتهم من الهيئات المسئولة ورفضها الموافقة عليها . كما حدثت عدة تطورات فى ميدان السياسة أدت إلى وضع الحكومة الهولندية نظاماً داخلياً يستطيع معه الشعب أن يبدى آراءه السياسية تجاه السياسة العامة للحكومة الهولندية فى أندونيسيا . ولما توسعت الحركة الاشتراكية وامتد نفوذها إلى الدوائر الهولندية الاستعمارية خشيت هولندا أن تتحول سياستها من استعمارية إلى اشتراكية وطنية تؤيد السياسة التحريرية الأندونيسية ! فقبضت على بعض زعماء الحزب الديمقراطى الاشتراكى من الهولنديين وأعادتهم إلى هولندا . وأما المستر سنفليت زعيم الحزب ، فقد مكث فى أندونيسيا يرقب عن كثب السياسة الاستعمارية الهولندية فى كفاحها الحركات الاستقلالية الأندونيسية . ولما تهيأ الجو الداخلى للسياسة الاستعمارية بالضرب على الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، حلت الحكومة الهولندية هذا الحزب . وبذلك فقدت الحركة الاستقلالية الأندونيسية عضواً عاملا أثبت عصاميته وثباته خلال أربع سنوات فى مقاومة السياسة الهولندية الاستعمارية ١٩١٣ — ١٩١٦ ، وكفاح الرأسمالية العالمية .

وفى شهر سبتمبر ١٩١٤ أسس بعض زعماء أندونيسيا حزباً سياسيا باسم حزب فاسوتدان ترأسه الزعيم الأندونيسى الشهير رادين إسكندر ديناتا ؛ للعمل لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الغربى . وانضم إلى عضويته كثير من الموظفين ورجال التجارة والصناعة والصحافة وطلاب الجامعات والمعاهد العالية . ويعتبر هذا الحزب حزب الأرستقراطيين الأندونيسيين ، ومثله فى المجلس النيابى زعيمه ديناتا . وقد اتبع السياسة التعاونية مع الحكومة الهولندية منذ نشاته حتى عام ١٩٢٢ ، ثم أعلن السياسية اللاتعاونية متضامناً مع سائر الأحزاب السياسية الأندونيسية .

وفى عام ١٩١٧ أسس رجال سومترا حزب شركت سومترا أو رابطة سومترا للاشتراك فى ميادين الجهاد المقدس لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى . وقد أنتج الحزب قوة سياسية داخلية هزت جزيرة سومترا وأقعدتها ، فأحرجت مركز هولندا السياسى فى هذه الجزيرة العظيمة .

وفى عام ١٩٣٥ اتحد حزب شركت سومترا مع عدة أحزاب سياسية لتكوين حزب سياسى زاخر بالعقول المفكرة ، والرءوس المدبرة ، والأيادى العاملة .

وفى مايو ١٩٢٠ فاجأ الدوائر السياسية ظهور الحزب الاشتراكى الأندونيسى تحت رئاسة الزعيم الاشتراكى الشهير الدكتور سمعون . وقد ساعده فى إنشاء هذا الحزب المستر تان ملاكا والمستر دارسونو والمستر عالمين . وأعلن الحزب برامجه السياسية بين وجل الحكومة الهولندية القاتل ، وبين فرح الشعب الأندونيسى العظيم ! فالحكومة الهولندية قد درست مغامرات زعماء الحزب الاشتراكى حينما كانوا أعضاء عاملين فى حزب الرابطة الإسلامية ، ولم ينفصلوا منه إلا لسياساتهم المتطرفة ، ومغامراتهم العظيمة فى ميدان الاستقلال ، وآرائهم الاشتراكية فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وأبرز منهج الحزب ، قوة اشتراكية قومية تطوح هيكل الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا ، وإيجاد حالة اقتصادية ترفع مستوى العامل والفلاح ، ثم القضاء على العادات والتقاليد البالية ، أو التقاليد الغربية المشبعة بروح التهتك والفساد

احتل الحزب الاشتراكى المسرح السياسى دون غيره ؛ فهو قوى برجاله وماله . فقد انتسب إليه كثير من العلماء والأدباء والمحامين والصحفيين ، ورجال الأعمال وزعماء العمال من مختلف النقابات . كما انتسب إليه الفلاح فى كوخه والعامل فى مصنعه والمرأة فى دارها والطالب فى معهده . وقد اعترفت بقوة الحزب الاشتراكى جميع الأحزاب الأندونيسية حيث لا يضع الإنسان قدمه فى أى مدينة أو قرية إلا يجد أمامه فرعاً للحزب منظماً تنظيما دقيقاً . وقد حدث بينه وبين حزب الرابطة الإسلامية صراع عنيف حول المبدأ . فالحزب الاشتراكى مبدؤه الاشتراكية المتطرفة التى تناقض الشريعة الإسلامية ، وحزب الرابطة الإسلامية مبدؤه الإسلام الذى وضح حقوق الإنسان . ولما ازدادت فورة الدم الاشتراكى الأحمر فى أعضاء الحزب تصدت الحكومة الهولندية لها ، فصارت تضرب على الحزب الاشتراكى بوضع الرقابة الشديدة على فروعه وعلى مؤتمراته وعلى اجتماعاته العامة ، فأثار هذا العدوان السياسى شعور الاشتراكيين الأندونيسيين ، فحملوا حملات شعواء على الحكومة الهولندية فى ميادين السياسة والصحافة والاقتصاد ، فقابلت ذلك بحملات مماثلة

لحملات الاشتراكيين ، فاتهمت الحكومة الهولندية الحزب الاشتراكى بانه ينشر المذهب الشيوعى الروسى بين طبقات الشعب الأندونيسى ، وأنه يستمد سلطته المعنوية من الحزب الشيوعى بروسيا ، ثم شرعت فى اتهام بعض زعماء الحزب بإثارة الروح الثورية ، وإخلال الأمن العام ، فتوصلت بهذه التهم إلى القبض على أقطاب الحزب وزجهم فى غياهب السجون ، أو نفيهم إلى غينيا الجديدة ، بعد مشادات طويلة بين محامى المتهمين وبين القضاة الهولنديين الذين نصبوا أنفسهم فى آن واحد قضاة وحكاما . فما أغرب الحياة ! وما أكثر مهازلها ! قوم يعيشون فى وطنهم غرباء ! فإما أن يعيشوا هادئين ، وإما أن يخرجوا منه! فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

وفى يونيو ١٩٢٢ قام زعيم الحزب الاشتراكى الدكتور سمعون برحلة عالمية ، واتصل بأقطاب الأحزاب الاشتراكية فى أوربا وأمريكا وآسيا ، واطلع على دقائق النظم الاشتراكية الروسية ، وعلى مؤسساتها الصناعية والثقافية ونظام العمل . ثم مثل حزبه فى المؤتمر الشيوعى العالمى المنعقد بموسكو خلال مكثه بها ، فأطلع الأوربيين على المجهودات الجبارة التى تبذلها أندونيسيا للتحرير السياسى . ولدى عودته ضجت الصحافة الهولندية من رحلة الدكتور سمعون وقيامه بشرح قضية وطنه لزعماء الأمم والشعوب . وقد أنتجت هذه الرحله روحاً طيبة فى الدوائر السياسية العليا فى أوربا ، وتفاؤلا حسناً فى الأندية الأندونيسية .

الحزب الاشتراكى الأندونيسى يشرف على الحركات الاستقلالية ويديرها حسب سياسته القومية . فاضطرت الحكومة الهولنديه إلى استعمال القوة والبطش به ، فسعت للحصول على أعمال تسوّغ لها القبض على المستر تان ملاكا وبقية زعماء الحزب ، ولكنها لم تستطع ! فالأعضاء العاملون فى الحزب الاشتراكى من أقدر المحامين والسياسيين والصحفيين ، وهم على اطلاع دقيق على الأنظمة العالمية الخاصة والعامة . وبعد معارك سياسية عنيفة فى المسرح السياسى بين الحزب الاشتراكى والحكومة الهولندية رأت هولندا أن خير وسيلة للقضاء على الحزب الاشتراكى إثارة التهم واختلاق الأكاذيب حول سياسة زعماء الحزب . فشرعت فى تهيئة الوسائل العملية للقبض على تان ملاكا العمود الفقرى فى الحزب الاشتراكى . فشعر تان بما تنويه السلطة الهولندية من القبض عليه ، فقفز إلى جزيرة سنغافورة واشتغل محركا فى إثارة الرأى العام فى ملايا . ثم أسس الحزب الجمهورى

الأندونيسى للعمل لاستقلال أندونيسيا ، فضيقت السلطة المحلية عليه بسنغافورة حتى اضطرته أن يتركها ويحط رحاله فى الفيلبين . وهناك اشتغل فى الأعمال السياسية لتحرير أندونيسيا وبورما والهند الصينية وأندونيسيا من سيطرة الأمبريالية العالمية . والمستر تان ملاكا سياسى مشهور فى شعوب الشرق الأقصى لما قام به من خير الأعمال لتحرير الشرق الأقصى من الاستعمار الغربى .

وخلال السنوات الطويلة التى مرت على الحكم الهولندى منذ خروجه من أندونيسيا حتى عام ١٩٤٢ كان المستر تان ملاكا متنقلا بين عواصم البلدان الشرقية للدعوة إلى الحرية والاستقلال . وكان يدخل إلى أندونيسيا مختفياً فى أشكال مختلفة من السمات والملابس . وفى عهد الاحتلال اليابانى كان تان ملاكا يشتغل عاملا فى أحد مناجم الفحم الحجرى بجاوة الغربية . ولم يستطع إبراز نفسه لأن الحكومة اليابانية تناوىء السياسة الاشتراكية المتطرفة . وبعد مرور ثلاث سنوات على استقلال أندونيسيا ظهر تان ملاكا فجأة فى ميناء جاكرتا ، فعلمت السلطات الجمهورية بذلك ، فرحبت به ترحيباً عظيما دلت به على تقدير أندونيسيا لخدمات أبنائها المجاهدين الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم فى سبيل تحريرها من النير الهولندى ، ثم عين مستشاراً للجمهورية ورئيساً لمائة واربعين هيئة سياسية أندونيسية تعمل لتقوية دعائم الاستقلال ، والدفاع عن كيان الجمهورية التى تضم خمسة وسبعين مليون نفس . وفى شهر يوليو ١٩٤٦ عين داعياً لنشر استقلال أندونيسيا التام فى أنحاء العالم .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٦ أشعل الحزب الاشتراكى الأندونيسى ثورة عامة للقضاء على الاستعمار الهولندى ، واستعمل الأندونيسيون القنابل اليدوية والديناميت والمسدسات والبنادق ، واستطاعوا فى ظرف وجيز السيطرة التامة على بعض المدن الأندونيسية الكبرى ، وكادت العاصمة تسقط فى أيديهم . وكان العامل الأساسى فى نجاح الثورة فى ابتداء أمرها ، التكاتف المشترك بين طبقات الشعب وهيئاته العاملة ؛ إذ أن نقابات العمال وسائقى السيارات والترام والقطر الحديدية ، ونقابات الحمالين واتحاد الموظفين فى دوائر الحكومة الهولندية ورجال البحرية الأندونيسيين ، ورجال الشرطة والحربية الوطنيين ، انتظموا فى سلك الثورة ، فصارت نيران القوات الأندونيسية تصلى جنود الحكومة الهولندية وتقضى على حياتهم . أما الهولنديون فقد استعملوا كل أنواع الأسلحة

الحديثة التى تحت سيطرة جنودهم ، وقذفوا بجيوش جرارة أتوا بها من أنحاء الجزر الأندونيسية إلى جزيرة جاوة حيث الثورة فى أشدها ، واستطاع البحريون الأندونيسيون من رجال الأسطول الهولندى السيطرة على البارجة الهولندية ستيفن روبنصون واستعملوها فى القضاء على بعض السفن الحربية الهولندية . ولما تيقظت السلطات البحرية الهولندية إلى مصير البارجة ستيفن روبنصون أرسلوا طائرة حربية تبحث عنها فى المياه الأندونيسية . وبعد لأى وجدوها سائرة نحو الشمال ، فأنذرت الطائرة رجال البارجة بالعودة إلى قاعدة الأسطول فرفضوا مضحين بحياتهم فى سبيل تحرير أندونيسيا ، ثم قذفت الطائرة قنبلة على البارجة وأتبعتها بأخرى ، حتى اشتعلت النار فى هياكلها وغرقت تودع حياتها بين حسرة البحرية الهولندية وبين حقدها على هؤلاء الرجال !

وفى نهاية شهر فبراير ١٩٢٧ انتهت الثورة الاشتراكية بانتصار الحكومة الهولندية ، فاكتظت السجون بالثوار الأندونيسيين ، كما غصت المحاكم بزعماء الحزب الاشتراكى ومحاميهم . ثم سجنت الحكومة الهولندية ٤٥٠٠ شخص من الاشتراكيين بعد محاكمتهم ، كما نفت إلى غينيا الجديدة ١٣٠٨ عضو ، بارز من أعضاء الحزب الاشتراكى ، وآلافاً أخرى إلى بعض الجزائر الأندونيسية النائية ، ثم أصدرت السلطة الهولندية نظاماً يمنع الاجتماعات وتأسيس الأحزاب وراقبت الصحافة الوطنية والهيئات العلمية والأدبية ونقابات العمال مراقبة دقيقة .

وأما زعيم الحزب الدكتور سمعون والمستر سرجونو فقد خرجا من أندونيسيا خفيـــة وتابعا سيرهما حتى حطا رحالهما فى أوربا . فالدكتور سمعون اتخذ مدينة موسكو مقراً له ، وأما المستر سرجونو فقد أقام فى مدينة برلين ، ينشران الدعاية للحركة الاستقلالية الأندونيسية . وفى نهاية الحرب الأخيرة تخطى الدكتور سمعون البلدان الأوربية حتى وصل إلى بلدان الشرق الأوسط فعرفته قيادة القوات المتحالفة فقبضت عليه . ولما عرفت مكانته السياسية أعيد إلى روسيا .

بعد سقوط الحزب الاشتراكى مضرجا بدمائه حيًّا بروحه ، تسلّم راية الجهاد شاب فى الخامسة والعشرين من عمره طموح النفس رقيق الشعور قوى الجاذبية ، تلقى دراسته السياسية الأولى على يد الزعيم شكرو أمينوتو ، ثم

ولج ميدان السياسة فى عام ١٩٢٧ وأنشأ الحزب الوطنى الأندونيسى ، ذلك هو الدكتور سوكارنو رئيس الجمهورية الأندونيسية .

اشترك فى إدارة الحزب المستر سرتونو حاكم جزيرة جاوة اليوم . والمستر إسحق والمستر بوديترات والمستر سوجادى ثم الدكتور شفتو مانجون كسومو . ومبادىء الحزب : الجهاد الإيجابى لاستقلال أندونيسيا التام . فأنشأ فرقاً عسكرية للهجوم والدفاع ، وهيئات وطنية تشرف على الحياة الأندونيسية الاقتصادية والثقافية والسياسية والتجارية والصناعية ، فازدادت الحكومة الهولندية اضطراباً وقلقاً . فهذه حركات ثورية منظمة يديرها خريجو الجامعات الغربية وأقدر السياسيين ، تساعدهم الصحافة الوطنية لإثارة الرأى العام الأندونيسى على الاستعمار ، والدعوة إلى الجهاد العملى .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٢٩ انقضّت الحكومة الهولندية بقضها وقضيضها على الحزب الوطنى للقضاء عليه ، فداهمت فرقة مسلحة من جنودها دار الدكتور سوكارنو ليلاً واعتقلته ثم ساقته إلى السجن انتظاراً للمحاكمة . وبينما كانت الأعمال العسكرية تجرى فى الهجوم على خمسين مدينة فيها فروع الحزب للقضاء عليها وجمع أوراقها ودفاترها ، كانت أعمال أخرى تسير فى تفتيش ثلاثمائة منزل فى مدينة باندونغ يملكها بعض أعضاء الحزب . فعمل الجنود فظائع تنفر منها النفوس ، وتشمئز منها الإنسانية . والسبب الأساسى لإجراء السلطة الهولندية هذا الهجوم المفاجىء ادعاؤها بأنها تلقت أنباء تشير إلى أن الحزب الوطنى سيقوم بثورة عامة فى مستهل عام ١٩٣٠ . وبعد تحقيقات طويلة استمرت سبع عشرة جلسة مع الدكتور سوكارنو وزملائه فى المحكمة الهولندية قررت الحكومة الهولندية سجن الدكتور سوكارنو أربع سنوات ، ومدداً مختلفة على المستر غاتوت والمستر ماسكون والمستر سوفريا . ثم أصدر الحاكم العام الهولندى المستر دى خرايف أمراً بسجن الدكتور سوكارنو عامين ، فقضى الزعيم الأندونيسى فى محبسه عامين لاقى الأمرين خلالهما . وفى ٣١ ديسمبر ١٩٣١ خرج من السجن وانضم إلى الحزب الوطنى برئاسة المستر سرتونو ، فعمل على إصلاح برامجه وتنظيم أعماله ، ثم أسندت إليه رئاسة الحزب ، فقادها خير قيادة . وفى ٥ مارس ١٩٣٣ قبضت الحكومة الهولندية عليه للقضاء على حركاته السياسية ونفته إلى جزيرة فلوريس .

أقصت السلطة الهولندية الدكتور سوكارنو وزملاءه عن ميدان السياسة لعلها تستطيع القضاء على الحزب الوطنى . ولكن عزائم الرجال كالصخرة الصماء لاتؤثر فيها الضربات . فاستعاد المستر سرتونو رئاسة الحزب وسار قدماً به نحو الحياة الحرة ، ثم تنحى عن الرئاسة وأسندها إلى المستر سوديرا ، فعمل هذا بنشاط ملموس فى تقوية الحركات الاستقلالية .

فى عام ١٩٢٧ كوّنت الأحزاب السياسية : الحزب الوطنى ، حزب الرابطة الإسلامية ، حزب بودى أوتومو ، حزب فاسوندان ، حزب قوم بتاوى ، حزب شركت سومترا ، حزب شركت مادورا ، نادى المعلمين — هيئةً سياسية ، باسم « الهيئة السياسية الأندونيسية » لتوحيد العمل ، والوقوف صفًّا واحداً أمام السلطة الاستعمارية . وتولى رئاسة الهيئة المستر محمد حسنى تمرين . وبظهور هذه الهيئة هبت على النظام الاستعمارى الهولندى عاصفة سياسية قوية . واستمرت هذه الهيئة فى العمل حتى أدت واجباتها السياسية تجاه الاستقلال الأندونيسى .

وفى عام ١٩٣١ أنشأ الدكتور محمد حتى نائب رئيس الجمهورية والدكتور سوتان شهرير رئيس الوزارة حزب التربية الأندونيسى للعمل على تحقيق استقلال أندونيسيا . وحدثت بينه وبين الحزب الوطنى مصادمات عنيفة فى الميدان السياسى ، كما هى العادة الطبيعية فى الأحزاب السياسية . وفى ٢٥ فبراير ١٩٣٤ أمرت الحكومة الهولندية مدير الأمن العام بمدينة ماتارام بالقبض على الدكتور محمد حتى والدكتور شهرير والدكتور سوكيمى . ثم نفت الدكتور محمد حتى إلى جزيرة بندانيرا ، والدكتور شهرير وسوكيمى إلى غينيا الجديدة .

وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٥ وحد الدكتور ستومو الزعيم الشرقى الشهير سبعة أحزاب سياسية وأبرز منها حزباً سياسيًّا كبيراً ، هو حزب أندونيسيا الكبرى . وغاية الحزب ، السعى لاستقلال أندونيسيا ، وتعميم الثقافه العالية ، ونشر الاقتصاد القومى

وللحزب مؤسسات ثقافية واقتصادية ، منها : المصرف الوطنى وفروعه ، وشركة التأمين على الحياة وفروعها ، وشركة الملاحة وفروعها ، ومعهد الزراعة والتعليم والمعهد الإسلامى ، وإدارة الصحافة والنشر ، وفرق الكشافة ، عدا دور للأيتام ورياض للأطفال . وله أيضاً جرائد يومية أشهرها « الرأى العام » و « الفكر » .

وفى عام ١٩٣٦ أنشأ الدكتور امير شرف الدين حزب النهضة الأندونيسيه : لتحقيق استقلال أندونيسيا ، وانتشرت فروعه فى أنحاء أندونيسيا . وهذا الحزب يعد من أكبر الأحزاب السياسية ؛ إذ اشترك فيه كبار المشتغلين بالحركات الاستقلالية . وحين ظهرت الحكومة الجمهورية تولى الدكتور أمير شرف الدين وزارة الاستعلامات ، ثم وزارة الداخلية ، ثم وزارة الدفاع ، ولا يزال يشغلها حتى اليوم . وفى نفس هذا العام أنشأ المستر محمد يمين حزب الاتحاد الأندونيسى لتحقيق الحرية السياسية التامة لأندونيسيا . وبعد إعلان الحكم الجمهورى قبضت الحكومة الأندونيسية عليه لسياسته المتطرفة ؛ إذ كان يريد الإسراع فى القضاء على معالم الاستعمار الهولندى بالأسلحة الحديثة ، ثم أفرج عنه وعين حاكما لجاوة الغربية .

وفى عام ١٩٣٧ أنشأ المستر ويووهو الحزب الإسلامى واشترك معه الدكتور سوكيمان والدكتور سوكاردى والمستر كسمات والمستر ولى الفتح والمستر محمد رشيدى والمستر عبد القهار مدكر والأستاذ محمد منصور . واتبع الحزب دستوره القرآن والحديث النبوى . ولهذا الحزب عضوان فى الوزارة الأندونيسية بعد اندغامه فى الأحزاب الإسلامية التى كونت حزب ماسجومى أى مجلس شورى مسلمى أندونيسيا .

وفى ٢١ مايو ١٩٣٩ ظهر فى المسرح السياسى عامل جديد لتحقيق الاستقلال لأندونيسيا ، وهو تشكيل الأحزاب السياسية هيئة سياسية باسم « رابطة الأحزاب السياسية الأندونيسية » وتولى رئاستها المستر محمد حتى تمرين .

قامت الرابطة بحركات سياسية واسعة النطاق ، فنشرت دعايات قوية فى المجتمع الأندونيسى لإنشاء برلمان وحكومة أندونيسية . ولهذه الغاية أنشأت الرابطة ما يزيد عن مائة هيئة سياسية للدعوة لمشروع البرلمان فى أنحاء أندونيسيا ، ثم أقامت مؤتمراً قوميا لبحث مشروع البرلمان ووضع مذكرة ترفع للسلطة الهولندية العليا . وبعد انتهاء المؤتمر قدمت الهيئة مذكرتها إلى المجلس النيابى ، وهذا بدوره رفعها لحكومة لاهاى . فغضت الحكومة الهولندية نظرها عن هذه المذكرة . ثم اضطربت سياسة هولندا للاعتداء الألمانى على الأراضى المنخفضة . ثم فى ٩ مارس ١٩٤٢ احتلت القوات اليابانية الجزائر الأندونيسية ، وشكلت حكومة وطنية فيها ، وأجبرت الشعب على

التجنيد الإجبارى . وفى ١٧ اغسطس ١٩٤٥ أعلنت آندونيسيا الحكم الجمهورى واستقلالها السياسى التام .

لقد ظهر للعالم كيف نهضت أندونيسيا ، وكيف أنشأت الجمهورية ، وكيف تدافع اليوم عنها بدماء أبنائها وأرواحهم . وسيظفر الشرق بنصر مبين إذا وقف موقفاً سلبيًّا تجاه السياسة الاستعمارية الغربية .

محمد جندى

ابراهيم بن المهدى : حياته الفنية

كان إبراهيم بن المهدى من أنبغ المغنين وأخبرهم بالأنغام والوتر والإيقاع، ومن أجملهم صوتاً، وأطبعهم غناء، جيد الصنعة، حسن الأداء.

وهو أول من نبذ الغناء القديم وحوّره ؛ لأنه كان مقصراً فيه، وابتكر الغناء الجديد، وأصبح زعيم المذهب الجديد فى الغناء، فى حين كان إسحاق الموصلى زعيم المذهب القديم، والخصم العنيد، والمنافس الخطر لإبراهيم ابن المهدى.

وكان المغنون ذوو الأصوات الجميلة فى العصر العباسى الأول : ابن جامع، وعمرو بن أبى الكنَّاب، وإبراهيم بن المهدى، وهم من الطبقة الأولى فى الفن.

أما من اتبع طريقة إبراهيم الجديدة، فمخارق وشارية وريِّق ويحي المكى وحسين بن محرز وإسماعيل بن جامع وسواهم.

كانت صنعة ابراهيم فى الغناء لينة ورقيقة. وطالما نسب مايصنع إلى جاريتيه شارية وريِّق لئلا ؛ يفسح مجالا للناس لانتقاده ولومه، حتى قلت أغانيه بين الناس مع كثرتها.

وحينما كان يلام لتعديله فى الغناء القديم وتبديله وتجديده ما طاب له التجديد، يقول : « أنا ملك وابن ملك، وإنما أغنى على ما أشتهى وكما ألتذ. »[1]

ذكره ابن النديم فوصفه بقوله : « أول نابغ نبغ من بنى العباس. له ترسل وشعر، وصنف كتباً . . . لم يُرَ فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه، ولا أشعر. وله مع ذلك صنعة فى الغناء يتقدم بها كل أحد. وكان إسحاق وإبراهيم قبله يأخذان عنه، ويتحاكم المغنون إليه فى صناعته . . . وله من الكتب :

---

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٦.

كتاب أدب ابراهيم » و « كتاب الطبيخ » و « كتاب الطب » و « كتاب الغناء . » (١)

وبلغ من جمال صوته أن قال ابن أبى ظبية : « كنت أسمع ابراهيم بن المهدى يتنحنح فأطرب . » (٢)

وقال الأصفهانى : « . . . وكان رجلاً عاقلاً ، فهما ، ديناً ، أديبا ، شاعراً ، راوية للشعر وأيام العرب ، خطيباً فصيحاً ، حسن العارضة . وكان إسحاق الموصلى يقول : ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس ، رجلاً أفضل من إبراهيم بن المهدى . فقيل له : مع ما تبذّل له من الغناء ؟ فقال : وهل تم فضله إلا بذاك ! » (٣)

وكانت أخته عُلَيَّة بنت المهدى ندًّا له فى الغناء والشعر ؛ فقد كانت على مقدار كبير من الحذق والنبوغ فى الشعر والتلحين والغناء . وكانت تتمتع بصوت رخيم عذب ، حتى قال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع : « ما اجتمع فى الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته عُلَيّة . وكانت تقدّم عليه . » (٤)

وقال ابن الطقطقى : « . . . وكان فاضلاً ، شاعراً ، فصيحاً ، أديباً ، مغنيًّا ، حاذقاً . وإليه أشار أبو فراس بن حمدان فى ميميته بقوله

منكم عُلَيَّة أم منهم وكان لكم   شيخ المغنين ، ابراهيم أم لهم (٥)

ويستطرد الأصفهانى بقوله : « . . . لو ذهبت إلى شرح سائر أخبار إبراهيم ابن المهدى وقصصه لما ولى الخلافة ، وغير ذلك من وصفه بفصاحة اللسان ، وحسن البيان ، وجودة الشعر ، ورواية العلم ، والمعرفة بالجدل ، وجزالة الرأى ، والتصرف فى الفقه واللغة وسائر الآداب الشريفة ، والعلوم النفيسة ، والأدوات الرفيعة ، لأطلت . . . فلذلك اقتصرت على ماذكرته من أخباره دون مايستحقه من التفضيل والتبجيل والثناء الجميل . » (٦)

---

(١) الفهرست : ص ١٦٨ .
(٢) الأغانى : ج ١ ص ١٠٧ .
(٣) الأغانى : ج ١ ص ٩٦ .
(٤) الأغانى : ج ١ ص ١٦٣ .
(٥) الفخرى : ص ١٦٠ .
(٦) الأغانى : ج ١ ص ٩٧ .

لم يكن إبراهيم يغنِّى إلا فى مجالسه الخاصة ، وفى مجالس الخلفاء . وكان يغنى سرًّا ترفعاً وأنفـة ، أو إذا دعاه الرشيد أو الأمين . فلما ظفر به المأمون وعفا عنه ، أسرف فى صنعة الغناء وشرب النبيذ فى مجلسه ، وغـدا يخرج من عنده ثملاً مع المغنين ، وذلك لفرط شغفه بالغناء . فانتهز المأمون هذه السانحة ، وشجعه على سلوكه ، وأذاع بين الناس أن عمه عزف عن المطالبة بالخلافة ، وأنه لا يصلح لها لمجونه

روى الأصفهانى عن جمال صوت إبراهيم بن المهدى ، أن الحسين بن إبراهيم ابن رياح قال : « كنت أسأل مخارقاً : أى الناس أحسن غناء ؟ قال : كان إبراهيم الموصلى أحسن غناء من ابن جامع بعشر طبقات ، وأنا أحسن غناء من إبراهيم الموصلى بعشر طبقات ، وإبراهيم بن المهدى أحسن منى بعشر طبقات ... أحسن الناس غناء أحسنهم صـوتاً ؛ وإبراهيم بن المهدى أحسن الجن والإنس والوحش والطير صوتاً ، وحسبك هذا . »[1]

وذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى عن تأثير جمال صوت إبراهيم وعذوبته قال : « . . . وعن منصور بن المهدى : كان أخى إبراهيم إذا تنحنح طرب من يسمعه ، فإذا غنى أصغت إليه الوحوش ومدت أعناقها إليه ، حتى تضع رءوسها فى حجره ، فإذا سكت نفرت وهربت . وكان إذا غنى لم يبق أحد إلا ذهل ويترك ما فى يده حتى يفرغ . »[2]

ذكر النويرى ما يدل على عبقرية إبراهيم فى الغناء ، قال :
« وحكى عن إسحاق بن إبراهيم ، قال : لما صنعت صوتى الذى هو :

قل لمن صَدَّ عاتبا ... ونای عنك جانبا
قد بلغتَ الذى أرد ... تَ وإن كنتَ لاعبا
واعترفنا بما ادَّعيـــتَ وإن كنتَ كاذبا
فافعل الآن ما أرد ... تَ فقد جئتَ تائبا

اتصل خبره بإبراهيم بن المهدى ؛ فكتب إلىَّ يسألنى عنه ، فكتبت إليه

(١) الأغانى : ج ١ ص ١٣٣ .
(٢) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ج ٢ ص ٢٤١ .

الشعر ، وإيقاعه ، وبسيطه ، ومجراه ، وأصبعه ، وتجزئته ، وأقسامه ، ومخارج نغمه ، ومواضع مقاطيعه ، ومقادير أدواره ، وأوزانه ، فغناه . ثم لقينى ، فغنَّانيه ، ففضلنى فيه بحسن صوته . » (1)

غنى إبراهيم فى داره هذه الأغنية من نظمه وتلحينه :

وإذا تباع كريمةٌ أو تُشْتَرَى ... فسواك بائعها وأنت المشترى
وإذا صنعتَ صنيعةً أتممتها ... بيدين ليس نداهما بمُكَدَّر

وكانت جارية رومية لا تفهم العربية ، تكنس فى جانب من الدار ، وكان إبراهيم يطرح هذه الأغنية على جاريته شارية ؛ وإذا بالجارية الرومية تذرف دموعاً حارة . ولما ماتت الألفاظ فى حنجرة إبراهيم وتلاشت فى عالم العدم ؛ جفّ الدمع من عينى الرومية . فكان صوت إبراهيم الشجى أثار فى نفسها ذكريات عزيزة ، ما تمالكت معها عن صون دمعها الحبيس من الانطلاق من مكمنه ، فانسلّ من الأحداق سخيناً غزيراً ، حيث أطفأ جمرة تضطرم فى فؤادها الكليم .

دخل إبراهيم يوماً نشوان إلى مجلس الرشيد ، وكان فى مجلسه إبراهيم الموصلى وابن جامع . فقال الرشيد فى دعة :

— بحياتى يا إبراهيم غننى !

فتناول ابراهيم العود ، ولم يلتفت إلى الموصلى وابن جامع ، وغنى فى شعر لجرير من تلحين ابن عائشة :

أسرى بخالدة الخيالُ ولا أرى ... شيئاً ألذَّ من الخيال الطارقِ
إنَّ البليةَ من تَمَلُّ حديثَه ... فانقعْ فؤادك من حديث الوامقِ
أهواكِ فوق هوى النفوس ، ولم يزل ... مذ بِنْتِ قلبى كالجناح الخافقِ
طرباً إليك ولم تُبالى حاجتى ... ليس المكاذِب كالخليل الصادقِ

فقال إبراهيم الموصلى لابن جامع ، وقد لمس تفوق إبراهيم وحذقه :

(1) نهاية الأرب فى فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

— لو طلب هذا بهذا الغناء ما نطاب ، لما أكلنا خبزا أبداً !
فأجابه ابن جامع متململاً :
— صدقت .
ولما انتهى إبراهيم من غنائه أجابهما قائلاً فى رزانة :
— خذا فى حقكما ودعا باطلنا !

كان الرشيد يحب أن يستمع غناء أخيه إبراهيم ، إلى أن تسنى له أن ينفرد به مرات . وذات يوم حضر مجلسه سليمان بن أبى جعفر ، فقال الرشيد لإبراهيم فى لين :
— عمك وسيد ولد المنصور بعد أبيك ، وقد أحب أن يسمعك .
فإذا بإبراهيم يغنى شعراً للأحوص من تلحين ابن سريج ، وهو :

سقياً لربعك من ربع بذى سلمِ ... وللزمان به إذ ذاك من زمنِ
إذ أنت فينا لمن ينهاكِ عاصيةٌ ... وإذ أُجرُّ إليكم سادراً رسنى

وقد بلغ من طرب الرشيد أن أمر له بألف ألف درهم .

قال هارون الرشيد ذات ليلة لأخيه إبراهيم ، وكان فى مجلسه جعفر ابن يحيى فقط :
— أنا أحب أن تشرف جعفراً بأن تغنيه صوتاً .
فغرد إبراهيم فى شعر الدارمىّ من تلحينه :

كأن صورتها فى الوصف إذ وصفتْ ... دينارُ عينٍ من المصرية العتُقِ
أو دُرّةٌ أعيت الغواص فى صدف ... أو ذَهَبٌ صاغه الصواغ من ورقِ

فاهتز الرشيد وجعفر من الطرب ، حتى بلغ منهما الجذل أقصاه .

كان إبراهيم يحسن الإيقاع على الطبل والناى . وقد أوقع مرة على الطبل إيقاعاً أذهل الحاضرين بإتقانه . وطلب إليه الأمين يوماً أن يزمر ، فأجابه بأنه لم يحاول ذلك بعد ، ولن يحاول ؛ ولكنه سأل الأمين أن يحضر جارية من

موالى المهدى ، فأمرها أن تنفخ فى الناى ففعلت ، فأمسكه إبراهيم وشرع يمر بأصابعه على فتحاته كلما مر الهواء ، فى لباقة وتفنن ، حتى ملك لب الحاضرين . وقد بلغ من براعته إذ ذاك أن أجمع الحاضرون على أنهم لم يتمتعوا بسماع عزف على الناى أجمل من هذا العزف السحرى .

لما اخرج عيسى بن محمد بن أبى خالد من السجن ، وهو من أنصار إبراهيم فى خلافته ، وقد سجن لخيانته ، كان إبراهيم يغنى المأمون بعد ظفر المأمون به ، أغنية من شعره وتلحينه :

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتْ منى ... هوى الدهرُ بى عنها وولى بها عنى
فإن أبكِ نفسى أبكِ نفساً عزيزة ... وإن أحتسِبها أحتسبها على ضَن
وأفلتنى عيسى وكانت خديعةً ... حَللتُ بها مُلكى وفلّت بها سِنى

فأشفق عليه المأمون ، وقال له فى عطف ورقة :

— والله لا تذهب نفسك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين ، فطب نفساً ، فإن الله قد أمنك ، إلا أن تُحدِثَ حدَثاً يشهد عليك فيه عَدْلٌ ، وأرجو ألاَّ يكون حَدَثٌ إنْ شاء الله .

رغب المأمون إلى إسحاق الموصلى أن يغنى لحناً من شعر الأخطل :

يا قلَّ خيرُ الغوانى كيف رُغِنَ به ... فشرْبُهُ وَشَلٌ منهن تصريدُ

فغناه إسحاق ببراعة ، فأعجب به المأمون . ثم سأل إبراهيم أهو لحن هذا الشعر ؟ فقال نعم ، وغناه غناء رائعاً . فغمرت المأمون نشوة لذيذة من الطرب ، وفضله على غناء إسحاق الذى لم يكن فى وسعه أن يفنده ، لحذقه فيه وتفوقه عليه .

غنى إبراهيم ذات يوم فى مجلس المأمون غناء ممتعاً ، فاستحوذ الطرب على أبى زيد ، وهو كاتب لطاهر ؛ فوثب وقبّل طرف ثوب إبراهيم اعجاباً به وبصوته الرخيم . فرمقه المأمون شزراً مستهجناً فعله . فقال له فى حماسة :

— ما تنظر ! أقبِّله والله ، ولو قتلتُ عليه !

فلاحت بسمة لطيفة على ثغر المأمون ، وهمس فى دعة :

— أبيتَ إلا ظرفاً !

كان المعتصم يضم فى يده طاقة يانعة من النرجس ، فطلب إلى إبراهيم أن يقول فيها شعراً ويغنيه . فأطرق إبراهيم هنيهة ينكت فى الأرض بقضيب ، ثم ارتجل هذه الأغنية :

ثلاثُ عيونٍ من النَّرجسِ على قائمٍ أخضرٍ أملسِ
تُذَكِّرنى طِيبَ ريَّا الحبيبِ فَيمنَعنَنى لذة المجلسِ

فأعجب به المعتصم وغمرته البهجة وتملكه الطرب ، فأمر له بجائزة سنية .

وفى ٧ رمضان سنة ٢٢٤ سكت قلب إبراهيم بن المهدى عن الخفقان ، وخبا النور المتألق فى عينيه ، فخرست تلك الحنجرة الذهبية الشجية عن التغريد الحنون ، ومات عبقرى بنى العباس ، بعد أن ملأ الدنيا شعراً ونثراً وفنا ؛ وبعد أن فاض فصاحة وبلاغة وبياناً ، وغمر الحياة أنساً ومرحاً وطرباً ، وبعد أن زخرت حياته الصاخبة الوثابة ، بجلائل الأعمال والحوادث الجسام ؛ وأنتج من روائع عبقريته ما يخلده على تعاقب الأزمان ومدى الأعوام .

منير الحسامى

طرف من فلسفة القانون

القانون الطبيعى

لم يألف الناس أن يقرءوا فى المجلات الأدبية الشائعة عندنا شيئاً عن القانون، كما لم يألف المشتغلون بالقانون عندنا الكتابة إلى هذه المجلات. ولعل هذا أو ذاك راجع إلى مايعتقده الناس — عامتهم وخاصتهم — من أن القانون مادة جافة يستعصى على الكافة فهمها، ويتعذر على أفهام غير الفنيين إدراكها والألفة بها. وتلك عقيدة هى إلى الوهم أقرب منها إلى الحقيقة. فليس من شك أن الأدب قوام القانون؛ فهو للقانون لحمته وسداه. وشأن القانون فى ذلك كشأن سائر العلوم، لايجد القارئ متعة فى قراءتها إلا إذا امتازت بطلاوة العبارة، ومتانة الأسلوب، وحسن انتقاء الألفاظ، لتقريب المعانى إلى الأفهام.

وأخصب ميدان للأدب فى نطاق القانون نجده فى تلك الأسفار النفيسة التى ترد القانون إلى الفلسفة، فتجرده من قيود النصوص وأغلال التشريعات؛ لتسمو به إلى علياء المثل العليا التى توحيها الطبيعة وتكمن فى سر الوجود. وهذا هو المعنى الذى تنطوى عليه فكرة القانون الطبيعى.

انبعثت فكرة القانون الطبيعى من فلاسفة اليونان. فقد استرعى نظرهم تشابه سلوك الناس فى المجتمع، على اختلاف ميولهم ومشاربهم ومناطق وجودهم، فعزوا هذا التشابه إلى وجود مبادئ أساسية مثالية تسود فى سائر المجتمعات ولا تتأثر باختلاف المكان ومر الزمان. تلك المبادئ هى التى يرمز إليها باسم الضمير والشرف والاستقامة والفضيلة، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، ويخضع لسلطانها البشر فى مشارق الأرض ومغاربها، دون أن يكون لهم عليها أدنى سلطان؛ لأنها أسمى من أن تساير الإرادة البشرية، أو تخضع لسلطانها.

وقد تطرّق فلاسفة اليونان من هذه المشاهدات إلى البحث فى أصل هذه المبادىء وعلة اتساقها وعدم تحولها. فلاحت لهم بارقة قانون أبدى، لايتحول

أو يتبدل ، وإليه تشخص أبصار الذين حاق بهم ظلم من جراء تطبيق القوانين الوضعية . واستهوت هذه الفكرة شعراء اليونان ، فطفقوا يشيدون فى أشعارهم بمزايا هذا القانون وسمو مبادئه ، وقالوا عن هذه المبادئ إنها « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وإن كل انسان يولد على هذه الفطرة . وخلع فلاسفتهم على هذا القانون الذى يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الشر والبغى اسم « القانون الطبيعى » ، ونعتوه بأنه سمة « العقل المستقيم » ليس كمثله شىء ؛ لأنه من وحى الله ذى الجلال .

وتلقف فقهاء الرومان فكرة القانون الطبيعى ، ونسجوا بصددها على منوال فلاسفة اليونان ، فوصفوه بأنه القانون الذى يهدى دائماً إلى سبيل العدل والخير ، ولا يتحول عن هذا السبيل . وهذا مايعنيه الفقيه Ulpian بقوله : « إن حدود القانون هى الاستقامة ، والكف عن الأذى ، وأن تعطى كل ذى حق حقه » .

وبذلك يبدو القانون الطبيعى فى ثوبه التقليدى كمجموع المبادئ التى يهتدى إليها المرء بفطرته ، وينساق إليها بإرشاد عقله وهوى سليقته . فهناك من مبادئ السلوك مايحس الفرد بطبيعته بوجوب التقيد بها فى علاقته بخالقه ، أو بأمثاله فى المجتمع ، أو فى محاسبته لنفسه . فيرى نفسه مدفوعا إلى إتيان بعض الأفعال التى تنسجم مع طبيعته كفعل الخير ومراعاة النظام ، أو منصرفا عن الأفعال التى ينفر منها بطبيعته أيضاً ؛ لأنها مجلبة للأذى أو مخلة بالنظام .

فالعبادة والخضوع والإيمان من مقومات السلوك فى علاقة الفرد بربه ، وكلها نتائج حتمية لحقيقة أساسية هى أن الانسان خلق ضعيفاً ومحتاجا إلى الرعاية ؛ فهو ينزع بطبيعته إلى أن يستمد من قدرة الخالق مايقوى به ضعفه ، ويلتمس منه أن يكلأه ويرعاه . كما أن حب ذوى القربى والوفاء بالعهد وطاعة أولى الأمر ، كحدود لعلاقة الفرد بأمثاله فى المجتمع ، تنسجم كلها مع كونه نزاعا إلى الاجتماع بطبيعته ؛ فيهتدى بغريزته إلى أن القتل والسلب أمور تتنافى مع الطبيعة ، وتأباها النفوس السليمة .

أما فيما بين الفرد ونفسه ، فإن كبت جماح النفس عن الانغماس فى الشهوات ، وصرفها عن الانصراف إلى الملذات ، نتيجة حتمية لتنازع عنصرين هما الروح والجسد . ولما كانت الروح أسمى من الجسد ، كان تغليب العنصر الأدنى على العنصر الأسمى متنافراً مع مايجب أن يكون ، أى مع مقتضيات العقل السليم .

على أن الإجماع لم ينعقد بين أنصار القانون الطبيعي على مصدر هذا القانون . فنهم من يجرده من كل صبغة دينية فيسنده إلى طبيعة الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا مدركا . وبذلك لايلزم للتسليم بوجوده الإيمان بالله ؛ بل يستوى فى ذلك المؤمنون والملحدون . وفى هـذا يقول جروسيوس عن القانون الطبيعى إنه من « إملاء العقل السليم الذى يهدى إلى مايتضمنه كل فعل من خير أو شر تبعاً لتوافقه أو لتنافره مع الطبيعة المدركة نفسها . » ثم نراه يلقى بعبارته الجريئة « لو أن الله غير موجود لظل القانون الطبيعى فى الوجود . » وقد سرت هذه النظرية إلى أنصار الفكر الحر الذين نجد منهم فى فرنسا برودون وأوجست كونت وليترى وفوييي ، وفى إنجلترا ستيوارت ميـل وداروِن وهربرت سبنسر وهكسلى ، وفى ألمانيا مولسخوت وبيخنر وهيجل وغيرهم .

أما الفريق الآخر من أنصار القانون الطبيعى ، فإنهم يخطّئون الفريق السابق فيما زعموه من أن وجود القانون الطبيعى مستقل عن وجود الله . فهؤلاء يرون أن الطبيعة البشرية مع قدرتها على الميل إلى بعض الأفعال والنفور من بعضها الآخر ، فإنها عاجزة بذاتها عن أن تجعل من ميلها أو نفورها قواعد ملزمة أو أوامر قطعية . فالتسليم بوجود القانون مع إنكار وجود المشرع هراء غير مفهوم . فلو محونا تدخل إرادة أسمى من إرادة البشر فى خلق القانون الطبيعى لاستحال أن نفهم الضرورة الأدبية التى تحمل الإنسان على اتباع مقتضيات العقل والحـكمة . وقد يرد على ذلك بأن الإنسان إنما يتبع هدى العقل بدافع من مصلحته . ولـكن المصلحة الذاتية لاتصلح وحـدها أساساً لإلزام الفرد بأن يسير على مقتضى العقل ؛ فقد يكون من سعة الحيلة أو من القوة بحيث لايخشى مغبة السير على هواه .

ويخرج أنصار هذا الاتجاه من هـذا التدليل بتقرير أن الله يملى القوانين الطبيعية ويبـصّرنا بمكانها من الأشياء والأفعال بما يمنحه إيانا من نور العقل ووحى الضمير . ولا يسوغ أن نستنتج من القول بأن هذه القوانين مطبوعة فى قلوبنا ، وكائنة فى ضمائرنا ، أنها مستمدة من طبيعتنا ، بل إن لنا مجرد القدرة على تحصيلها من مشاهدة الوقائع المختلفة واستخلاص مختلف النتائج من هـذه المشاهدات .

ومهما يكن من أمر الخلاف حول مصدر القانون الطبيعى ، فإن فكرته استقرت فى نطاق القانون ، فانتقلت من أيدى الشعراء والفلاسفة ورجال الدين

إلى أيدى علماء القانون الذين حاولوا — منذ القرن السادس عشر — أن يقابلوا بينه وبين القانون الوضعى. فقسموا القانون بمعناه العام إلى طبيعى ووضعى. وعرفوا الأول بأنه مجموع المبادئ الأزلية، السابقة على خلق البشر، والتى تفرض سلطانها على كل كائن حى، دون أن تتأثر بالزمان والمكان؛ لكونها مستمدة من طبيعة الأشياء، ومن ثم لاتخضع لعوامل التحول. أما القانون الوضعى فهو مجموع التشريعات التى يضعها الإنسان بدافع الضرورات الاجتماعية. فالأول تالد سماوى على حين أن الثانى طريف بشرى. واستطردوا من هذه المقارنة إلى القول بوجوب وضع القانون الطبيعى موضع الصدارة من القانون الوضعى، وفرضوا على المشرع أن يستلهم قواعد الثانى من الأول، وأن يحاول جهد الطاقة أن يكون تشريعه مطابقا للمبادئ السامية التى يتضمنها القانون الطبيعى، وبذلك يكفل الخير للناس جميعاً؛ إذ يبصّرهم بأنجع الوسائل لتحسين حالهم وتحقيق سعادتهم وهناءتهم.

على أنه إذا تم شيء بدا نقصه؛ فما إن بلغ القانون الطبيعى قمة المجد بحيث أصبح عماد فلسفة القانون فى القرن الثامن عشر حتى لقى مقاومة عنيدة من جانب بعض المفكرين. واشتدت هذه المقاومة حتى انقلبت إلى هجوم عنيف فى منتصف القرن التاسع عشر، حين تراجع القانون الطبيعى أمام هجمات المذاهب الوضعية الواقعية التى اجتذبت إليها كثيراً من فطاحل علماء القانون؛ لما امتازت به من بساطة ووضوح مرجعهما استناد هذه المذاهب إلى الوقائع المادية الملموسة، وإنكار تأثر القانون بما عداها من العوامل المعنوية أو المبادئ المثالية.

فمن معترض بأن القول بوجود قانون عام شامل لايتأثر بمرور الزمان ولا بتغير المكان ضرب من ضروب الخيال. وفى ذلك أرسل پاسكال عبارته المشهورة: «Justice en deça, injustice au delà des Pyrénées» التى أثارت ثائرة أنصار القانون الطبيعى، فرموه بالمهاترة وإلقاء القول على عواهنه.

ومن منكر لوجود قانون مستقل عن إرادة البشر ومستمد من طبيعة الأشياء، وهؤلاء هم فقهاء الألمان ومن نحا نحوهم من المفكرين الذين لايرون فى القانون إلا حدثا بشريا، ويرون أن البحث فيما وراء ذلك لايدخل فى علم القانون؛ إذ أنه من قبيل البحث فيما وراء الطبيعة، وليس ذلك من شأن علماء القانون.

ويستندون فى ذلك إلى أن التاريخ لايحوى فى أى عصر من العصور مايؤيد هذه النظرية . بل إن القانون الرومانى والقانون الفرنسى القديم تضمنا أنظمة تتعارض تماما مع أخص المبادئ المعتبرة من القانون الطبيعى فى نظر أنصاره .

إزاء هذه الحملات المتكررة عمد بعض الفقهاء المحدثين من أنصار القانون الطبيعى إلى تناول فكرته ببعض التعديلات حتى تساير اتجاه الفكر الحديث . فأعلنوا أن أساس هذا القانون هو تلك المبادئ المستقرة التى لايعتريها التغيير ، والتى توحى وجوب تحقيق العدالة بين أفراد المجتمع ، وتفرض على كل فرد أن يشعر أن من ألزم واجباته أن يحترم حقوق الأفراد الآخرين بالقدر الذى يقتضيه تحقيق العدالة الاجتماعية وكفالة النظام الاجتماعى . أما تحديد ذلك القدر ومقتضى تلك العدالة وحدود هذا النظام ، فأمور لاسبيل إلى وضعها على أساس مستقر ؛ إذ أنها مرتبطة بأحداث المجتمع ، وهى دائمة التطور والتغير والتحول ، كما أنها تتأثر باختلاف وجهات النظر فى تحديد معنى العدالة والنظام ، وتباين الأفكار عن حدود السلطة والحرية ، وعن حق الجماعة وحقوق الفرد ، ومايترتب على ذلك الاختلاف وهذا التباين من تغلب بعض هذه القوى المتعارضة على بعضها الآخر . فترجيح إحدى الكفتين على الكفة الأخرى لايخضع لمعيار ثابت ولا يسير على وتيرة واحدة . فكلما تبين الخطل من الانتصار لإحدى هذه القوى وتغليبها على الأخرى تغير الاتجاه وقُلبت الأوضاع ، وهو مايؤدى إلى تعديل جوهرى فى نظام المجتمع ، ثم إلى تغير حدود العدالة كرد فعل مباشر لهذا التعديل .

وما من شك فى أن هذا التحوير فى فكرة القانون الطبيعى — كما أورثتنا إياه التقاليد — يؤدى إلى مسخها . فكيف يتصور أن يتخذ هذا القانون نبراساً لهداية الإنسانية بعد أن أصبحت مبادئه عرضة للتبدل والتحول على هذا النحو ، فتجرد بذلك من أهم خصائصه ؟ أفلا يؤدى القول بتغير حدود القانون الطبيعى إلى تقويض دعائمه وهد كيانه ؟ وماذا يجدى المشرع أن يستلهم أحكامه من تلك المبادىء التى لايقر لها قرار ! ثم إن عيب هذا المذهب الأساسى هو فى إغفاله تعيين السلطة التى يؤول إليها أمر تحديد هذه الحدود المتغيرة بطريقة لاتقبل الجدل . فمن ذا الذى يخضع الحد القانونى الطبيعى لحالة اجتماعية معينة فى زمن معين ؟ لاشك أن كل هذه الاعتراضات كفيلة بالاعتراض عن مسايرة

أنصار « مذهب القانون الطبيعى ذى الحدود المتغيرة » فيما ذهبوا إليه من المباعدة بين هذا القانون وبين أصله التقليدى .

ولقد زادتنا الحرب الأخيرة حماسة لفكرة القانون الطبيعى كما بدت فى ثوبها التقليدى . فقد كشفت هذه الحرب الطاحنة عن الهاوية السحيقة التى تردّت فيها الإنسانية من جراء ذلك العدوان الوحشى على أوليات مبادئ العدالة . فازدادت بذلك حاجتنا إلى مضاعفة الجهود بغية تحقيق العدالة بين الناس على وجهها الأكمل . ولعل أشد الناس عداوة للقانون الطبيعى لايمارون فى وجوب أن يكون للإنسانية مثل أعلى تهدف إليه وتسعى جاهدة إلى تحقيقه . فيجب إذن أن تتركز كل الجهود حول تقريب النظام القانونى الوضعى من هذا المثل الأعلى ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وليس عسيراً أن نلمس هذا المثل الأعلى فى فكرة القانون الطبيعى ، إذا عمدنا إلى تخليصه من تلك الأفكار الخيالية التى تلحقه بما وراء الطبيعة ، فتجعله بذلك فوق مستوى إدراك البشر .

فمن المسلم به أن جوهر القانون هو النظام الذى يكفله الحاكم . فليس ثمة من يجادل فى أن المجتمع لايمكن أن يقوم إلا على دعائم ثابتة من نظام مستقر . واستقرار النظام فى المجتمع يقتضى نوعا من التوجيه الذى يُفرض على الأفراد بدافع أسمى من إرادتهم . ففكرة النظام يجب أن تسبق فى وجودها وسائل تحقيقه . والقانون الطبيعى هو منبت هذه الفكرة ومستقرها ، فهو باعتباره قانوناً كامناً فى طبيعة الإنسان كفيل بأن يفرض نفسه كضرورة لإعداد الجماعة لقبول النظام ورسم الخطة الاجتماعية التى تهدى أعضاء المجتمع إلى الطريق القويم .

محمد على عرفة

من تجارب الشعر

نهاية الأبطال

قصيدة فى خمسة أناشيد

[« وكان الملوك إذا أشرفت عليهم مناياهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا فى سفن، ثم ترسل السفينة فى اليم منشورة القلاع تدب فى خشبها نار بطيئة المسرى. فاذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح، تأججت فى بدنها النار وطار فى أركانها شواظها. وكذلك يلقى البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا . . . »
توماس كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١)
الأبطال وعبادة البطولة، تعريب محمد السباعى]

توطئـــة

امتد العهد الوثنى فى البلاد الإسكندناوية إلى نحو سنة ألف للميلاد حين ثبّتت المسيحية أقدامها فى تلك الربوع. وهذه البلاد الشمالية تمتاز بمنظر الشفق القطبىّ الرائع، والجليد الذى يغطى أراضيها معظم أيام السنة، ونهـارها الذى يمتد طول أشهر الصيف ولياها الذى يستمر طول الشتاء . .

شهدت البلاد الإسكندناوية فى عهدها الوثنى عصور صراع ونزال مجدت فيها القوة والبأس، وألهت الحرب تأليهاً. تلك أيام الأبطال — الڤايكنج — المحاربين الأشداء الذين بلوا فنون القتال وغامروا فى البحار على متون سفنهم الشراعية، وأغاروا على السواحل الأوربية قاصيها ودانيها، فألقوا الرعب فى قلوب أهليها وعادوا بغنائمها وأسلابهـا واستوطنوا بعض أقطارها. وكان الإسكندناويون — كغيرهم من أقوام الشمال فى جاهليتها — يعبدون آلهـة متعددة كبيرها « أُودن » الإلـه الأب رب النصر والخلود، الذى أعد للأبطال جنة عرفت باسم « وَلْهَلاَ » أى بلاط القتلى لا يدخلها إلا من مات

قتيلا . وكانوا يقربون للآلهة على المذابح قرابين من البشر — ولا سيما أسرى الحرب — حيناً ، ومن الخيول والثيران والكلاب والصقور أحياناً .

عرف الإسكندناويون فى عهودهم تلك بالقسوة والبسالة . وكان من عاداتهم أن البطل الذى غامر فى المعارك وألقى بنفسه فى المهالك فلم يَلقَ حتفه ، إذا أدركه الهرم ودهمه مرض الموت أشفق على نفسه أن يذهب بعد وفاته إلى عالم الأشباح السفلى ، فانتحر بطريقة غريبة عديمة النظير ؛ لكى ينال الخلود ويدخل « وهلا » فردوس الأبطال . فكان يُسَجَّى فى سفينة تزيَّن له وتحمّل بعدة حربه ومتاعه وأسلابه ، ثم تطلق فى عرض البحر بعد أن تضرم فى شراعها النار . وهكذا يقضى البطل الهرم الذى لفظته المنية فيما خاض من الوقائع العديدة نحبه بين الحرق والغرق ؛ لكى يصيب السعادة الأبدية التى يصبو إليها ، سعادة الحروب العظيمة والمآدب الفخمة فى جنة « أودن » .

والقصة الشعرية التالية من وحى بلاد الشمال فى جاهليتها ، وقد وصفت طرفا من حياة الفايكنج ومماتهم على حقيقتها فى تلك الأزمنة الهمجية :

النشيد الأول : ميلاد

شَفَقٌ حائل يَجُرُّ ذيولا شفّ فى لُمْعَةٍ تلاشت نُصُولا
وصل الأرض والسماء ببحرٍ قد كساه الضَّباب شبه هَيُولَى

رممته شمس الصباح شُعاعا زائفاً ، فاتراً ، نحيلاً ، مُضاعا
فى نهار جهْمٍ مَداهُ شهور كل ساعاته تلوح وَدَاعا

فى أقاصى الشمال حيثُ الأراضى ترتدى الثلجَ حُلّة من بياض
وتهُبُّ الرياحُ تحمل قرًّا جمّد الماء فى قلوب الغياض

أنشأ الربُّ موطِنَ الأبطال « اودن » الرب ذو الحِجى المتعالى
وهداهم إلى القتال فنونا ودعاهم إلى الوغى والنزال

وأعدَّ الفـــردوس للشهـداء «وَلْهَـلاَ» موئل السَّنا والهنـاء
لا ينال الخلودَ فى مُنْتداها غيرُ رَهْط قضى بسُوح الدماء

ما حياة الرجال غـيرُ حِمام قد تسامَى إلى العُـلا بالأنام
والذى مات فى الفراش ذليـلا ليس أهـلا لدائم الإكرام

هكذا قُدِّر النظام قـديما حين كانت أرضُ الأناسِ سَـديما
فمضت أعصرُ الزمن حِثاثاً ومُدامُ الحروبِ تُحيِيى الرميا

وبيَومٍ صافى الأديم، سعيد أشرق الدهرُ فى جَبين وليـد
قد دَعوْهُ «سيغُورْد» لما رَوه أيمنَ الوجه فى سـناء فريد

شبَّ فى منبت الإمارة عزّاً وارتوى من فيض الفروسة نَهْزا
فاذا ناهز الشبابَ زكيًّا بزَّ كلَّ الأقران فى الفضـل بَزَّا

فى ليـالى الصفاء والأسمار أنشـد المُنشِدون حول النار
قد رَوَوْا اخبار البطولة قِدْماً وحـديثَ الأمجـاد والأبرار

وفتانا أصغى بسَمْع وقلبِ حالماً فى المنـام أحلامَ حَرْبِ
عقـد العَزْمَ أن يعيـدَ عهوداً للمعـالى خلت بطعن وضَرْبِ

بلغ القصـدَ من فنون القتال فى طعان القَنَا ورَمْى النبـال
وعنـاق السيوف تلمع وهْجاً وضِرابِ الفُؤوس عند النِضـال

فى صِراع الفِتْيان أحرز مَجْدَا وبراز الفُرسـان فاز وأرْدَى
وبِساحِ الوَغَى أغارَ وجلَّى وأسالَ النجيع يُرْوى الفِرِنْدا

حينما صال فى المجَال وكرَّا لابساً لأمة القتـال، أغرَّا

يعصُبُ الرأسَ مِغْفَرٌ لمّاعٌ وعطوفُ الشباب تهتز سكرا

خاله الناسُ من كُماة السماء زُمْرةِ الخالدين أهل البهاءِ
حلَّ فى الأرض مرشداً لأنامٍ مارسوا فى الوَغى فنونَ العلاء

النشيد الثانى : قران

فكرةٌ قد تمثلتْ فى الخيالِ وتجلت بغير رَسْم مِثالِ
صَبَّها العقلُ نُطفة عَذْراء من رَحيق الأهواء والآمال

وحباها من الأثير وجودا وكساها من الجمال برودا
وسقاها ماء الشباب صَبيباً فائضاً فى دَمِ الحياة خُلوداً

قد تَروّتْ من السماء بهاء ومن الفجر روْعة وضياء
ومن الورد رقة وأريجاً ومن الخمر نشوة وصَفاء

واستعارت من النجوم عيونا شع منها نورٌ يُشيعُ فُتونا
ومن الزَّنْبَق النَّدىّ خدوداً أوْدعَ السِّحرُ فى جَناها فنونا

ومن الدُّرِّ ثغرَها الوَضّاء ومن الغُصْن قامة هَيْفاء
نَشرَ الشَّعْرُ فوقَها سِترَ حُسْنٍ من خيوط التِّبْر المُشِعّ سَناء

فإذا ما تجسمَّت بكِيانٍ وأطلت على رسوم الزمان
تخِذَتْ شكلَ غادة وتبدَّتْ فى حياء ورَوْنق لِلعيانِ

بَرَزَتْ وسْطَ رَغْوة الدَّأماءِ كَكَعاب من غانيات الماء
والأواذِى تزفّها حاملاتٍ مُنْيَة الأرض ، مَنْزِل الظلماء

زُهْرَةُ (١) اليونان ابنة الأمواج بُعِثَت فى الشمال غُرَّة تاج
دُعيت « إبرُ نهيلد » حين أضاءت مثل شمس فَرَتْ حجاب الدياجى

نشأت فى بحبوحة من نعيم مَعْ لِدَاتٍ كدُرٍّ عقد نظيم
هُيِّئَت للأمير خيرَ عَروسٍ من كرامٍ قد زُوِّجَت بكريم

محَضَتْهُ الودادَ أنقى شعُور وحبته بحبها الموفور
فأقاما فى خَفْضٍ عَيْش طويلا زينةَ المجد والهوى والحبُور

النشيد الثالث : أسى

سُنَّةُ الدهر من قديم الزمان لا يموت الشُّجاعُ موتَ الجبان
لا يموت الأبىُّ فوق سرير صاغراً فى مذلّة وهَوان

فاذا أخطأت حشاه السِّهامُ وتحامَاهُ فى الجِلاد الحِمامُ
خاف أن يتركَ الحياةَ مَهيناً هَرِماً ، مضَّهُ الأسى والسَّقام

مِيتَةٌ لا تليق بالأمجاد لم تحِقْ بالكماةِ والأنداد
بعدَها تشقَى الروح فى ظُلمات من جحيم دَجا إلى الآباد

فى مَهاوى السكون والأشباح حيثُ لاذِكرَ للوَغَى والسماح
لا ولا ذِكْرَ للهوَى وصبايا خالدات قد طُفنَ بالأقداح

وأبو الخالدين « اودِنُ » أوْرَى للَظَى الحرب فى الملاحم سعْرا
فى رِحَماهُ العلىَّ فوق الثريَّا حيثُ يجرى فَيضُ المجرة نَهْرا

أقام البِراز للأبطال فى ميادينَ صولةٍ ونِزال

---

(١) الزهرة : فينوس ربة الجمال .

ليس يَهْوِى الصريعُ إلا لِيحيا ويعيدَ الكرّات غير مبال

ثمَّ يَحْلو للأقوياءِ الطِّعانْ في نعيم يَرُفُّ فيه الجَنانُ
وإنتشاءٌ بخمرة ورُضَابِ وأناشيدَ رنمتها القيان

أيُّ سَعد بَدَا وأيُّ هناءِ نَاق حُسْن الرؤى وطيب الرجاءِ
رُخصَت في سبيله - وهو حلمٌ - زَهْرة العُمر والمنى من فداءِ

نَبِّئونى يا أيُّها الكُهَّانُ من حَبَتْهُم علومَها الأزمانُ
أخبرونى بكُنه أمرى ورُدُّوا لى صوابى ، فإننى ولهان

إننى مشفقٌ حزينُ الفُؤاد هل أذوقُ الفناء بَعْدَ الجهاد ؟
هل ألاقى الرَّدَى ذليلاً معنًّى حَتْفَ أنفى فى غير سُوح الجلاد ؟

من حياة الثَّرَى بلغت عِتِيًّا بعد عمر مضى هنيئاً رضيّا
قد تَقَضَّى ما بين حرب وحب ورجاء أطل عَذباً نديّا

ليتنى قد لقيت حُلو المنَايَا فى صِراع أفْنَى عزيزَ البرايا
لم أخفْ رَقدة الظلام خلوداً لم أكابدْ إذن عناء الرزايا

هكذا وَجَّه الأميرُ الخطابا فتلَقَّى من الشيوخ الجوابا
أيُّها السيدُ المطاع المعلَّى خلَّد الدهرُ مجْدك الغَلَّابا !

قد عَلِمْنا مَشيئة الأرباب قدَّرَتْ منذُ مَبدأ الأحقاب
فدَع الكَمْدَ واطَّرح إشفاقا إن نيلَ النعيم رَهْنُ الطِّلاب

إنْ أطالت بقاءك الآجال فستقضى كما قضى الأبطال
ليسَ بالسَّيف فى القراع ولكن فى ضِرام عَنَت لَهُ الأجيالُ

موتُ حرٍّ ما بين نارٍ وبحرِ ينطلقُ النفسَ من شقاءٍ وأسرِ
ويُنيلُ الخلودَ أعذبَ وِردٍ أو يَغلو لأجلِهِ أيُّ مهرِ ؟

النشيد الرابع : خلود

يا بلادَ الجليد ، أرضَ الشمالِ إشهدى اليومَ مِيتةَ الأبطالِ
أوقدى النَّدَّ فى المذابح ناراً واحرُقى الطيبَ فى رُؤوس التلال

قرِّبى التَّقدماتِ فوق الصخورِ من خيولَ وأبقُرٍ وصقورِ
قد أَحبَّ الإلٰه ريحَ قُتارٍ تَتعالى ذكيَّةً بالنُّذور

واخرُجى فى مواكبَ تتبارى زَفَّت القَرْمَ باسلاً مِغوارا
بزُمورٍ شجيَّةٍ وطُبُولٍ وتراتيلَ من شِفاهِ العذارى

زَيَّنوا مركباً طويلَ الشِّراعِ جهَّزوهُ كفارسٍ للقِراعِ
حمَّلوه من الغنائم وَسْقاً وسِلاحَ الوَغى وخيرَ المتاع

ثم سجَّوا «سيغُورْدَ» فوق الدروعِ قد جلَوهُ كالشمس عند الطلوع
وإذا ما دَنا الأوانُ وشيكا أجَّجوا النار فى سَوارى القلوع

أطلقوا فى الخضم زَيْنَ الجوارى (1) كلواءٍ هفا بنورٍ ونار
فتهادت على أواذِىِّ جَزْرٍ بين تهليلٍ هزَّ جَنْبَ البِحار

تبِعَتها القلوب والأحداقُ وأضاءت بنورها الآفاقُ
ومضت فى سنائها نحو موتٍ كتمتهُ فى صدرها الأعماقُ

---

(1) الجوارى : السفن ، جمع جارية .

نمْ سعيداً أيا فتى الهيْجاءِ قد وَرِثتَ الخلودَ بعد الفناءِ
هذه الأرضُ ردّدت فى خشوعٍ : الوَداعَ الوَداعَ حتى اللقاء !

نشيد

هلّلى يا ربوع العلا
والجلال
هيْكلَ المُصطفَيْن الالى
برزوا فى الوغى والقتال
وأراقوا دما واستباحوا حِمَى من عدو سَما
فى النزال
مجِّدى يا ذُرَى « وَلْهَلا »
مجدى البطل الأمثلا
زَيْنَ أهل الوغى فى الرجال

مجدى الفارس المُجتبَى
فى الأنام
من جَنَى فى العُلا الرتبا
وسما بالفِعال الجسام
قد علا مُحْتدا وصفا موردا وأذلّ العِدى
بالحُسام
وابتغى المجد مُنْتسَبا
وارتجاه له سببا
للخلود برُغم الحِمام

هزَأتْ روحه العاتيه
بالحُتوف
فى حروب جرت داميه
حصدت أهلها بالألوف

لم يَهَبْ جمَّهـا حينما أمَّها نافثاً سمَّها
في الصفوف
أخطأتْه القنـا العـاريه
فأعِـدُّوا له الجـاريه
كىْ يموتَ ممـاتَ الأنوف

جهِّزُوا للعُلا مَركبا
ذا شِـراع
زَيِّنـوا للردى منصبا
أضرموا ناركم فى القلاع [1]
وارفعوا عَلما فى خضم طَما قد حوى عدَما
لِلشـجاع
غنّ يا بَحرُ لحنَ الرَّدَى
رجِّعى يا قِـلاع الصَّدى
رَدِّدى اليومَ آى الوَدَاع

هللى يا ربوع العـلا
والجـلال
هيكل المُصطَفَيْن الالى
برزوا فى الوغى والقتال
وأراقوا دما واستباحوا حمى من عدوٍّ سما
فى الـنزال
مجِّدى ياذرى « وَلهـلا »
مجِّـدى البطل الأمثـلا
زين أهل الوغى فى الرجال

---

(١) القلع : الشراع ، يجمع على قلوع وقلاع .

النشيد الخامس : وفاء

وَجْمَةٌ خيَّمتَ على الأرجاء هَـدأةٌ بعـد فورة الضَّوضـاء
كسكونٍ جهمٍ تلا إعْصاراً كظلام ألمّ إثرَ ضيـاء

رجع القوم من وداع الأمير وركابُ الموت اختفى فى السـعير
فعيونٌ حسيرة ووجوهٌ كالحـات وأنفسٌ فى هـدير

إيه ! لكن أين الأميرة أينا ؟ فقـدت من غُرِّ الأعزّة زَيْنا
خفّفوا لوْعة الكآبة عنها إن جِنسَ النساء أدمَعُ عَينا

واصَلُوا البحثَ فى البلاد زمانا دونَ جدْوى فأينَ حلّتْ مكانا ؟
كيف غابت وأى سرٍّ طواها ؟ أين صارت ؟ ظل الورَى حيرانا

غيرَ أن الإله « أودن » يدرى بخفايا قـد غيَّبتها وسِرِّ
فهى فى « ولهلا » العلية تثوى نالت الخُلْد بالوفاء الأبَرِّ

حين حُمَّ القضاء لا رَيْبَ فيه طالبـاً زوجهـا الذى تفتـديه
قد عرتهـا هواجس وشجون أسْعَرَتْ فى الفـؤاد وحشة تيه

هل تخون الوداد تنقضُ عهدا لقرين قضت بظليـه عهدا ؟
شاركتـه فى نِعْمة وبُؤوسٍ قاسمتـه عزًّا رفيعاً ومجدا

أتراها تنسى الوصال وترضى ببعاد من المنيـة أمضى
أم تُراها ضنينةً بحيـاة فى التياع ووحدة الروح تُقْضَى

لم يكن ذاك شأنَ بنت القُروم من تبارَوْا فى كل مجد مَروم
فازلوا الموت باسمين خِفافاً وسَمَوْا فى العُلا سموّ النجوم

لم يكن ذاك خلْقها فى الإباءِ — لم يكنِ ذاك أمرَها فى الوفاءِ
لم يكن ذاك فِعْلها ، فلماذا — لا تضمُّ الحِمام يوم اللقاء ؟

عقدتْ بكرةً على الموت عزما — وأسرَّت فى صدرها الأمر حزما
جَلدةً لا تعافُ وِرْدَ المنايا — مع زَوْج يَعْنو له الموت رغما

فاذا سُجّيَ الأمير الحليلُ (1) — فى ركاب له شَعُوبُ (2) دليل
وتعالى الضجيج بين جموع — شُغِلت بالحِمام — وهو جليل —

دَلفتْ فى مَسرَّة وسُكونِ — نحو عُرْسٍ مُهيَّأ للمَنُونِ
وثوت فى سفينة النار تبغى — رِفْقةَ الزوج ـ شأنَ زوج حنون

صَعِدَت نحو « ولهلا » رُوحان — فى اوار اللهيب تصْطحِبان
طابَ مَثْواكما بدار خُلودٍ — بين جَمعِ الأبطال والشُّجعانِ !

هلى يا ربوع العلا
والجلال
هيكل المصطفين الالى
برزوا فى الوغى والقتال
وأراقو دما واستباحوا حمى من عدو سما
فى النزال
مجدى ياذرى « ولهلا »
مجدى البطل الأمثلا
زين أهل الوغى فى الرجال

[بغداد] — مير بصرى

(1) الحليل : الزوج .   (2) شعوب : الموت .

مشكلات التعليم فى لبنان

كانت سياسة التعليم فى لبنان ورسم مناهجه ، وتوحيد برامجه ، وتحديد أغراضه ، من اعقد المسائل التى واجهها المشرفون على التعليم فى تلك البلاد . وكان حلها معجزاً إلى عهد قريب . فتركت أموره موزعة بين الطوائف والجمعيات ، تستقل بتصريفها ، ولا ضابط لها ولا رباط إلاّ ماكان من نظم صورية توحّد بينها شكلاً ، وإن لم تستطع أن تؤلف منها موضوعاً فتوجه الشباب وجهة وطنية صحيحة .

وقد يبدو ذلك عجيباً ، لولا أنا نعلم أن لبنان الكبير باسمه الصغير فى حجمه ، قد احتوت مساحته المحدودة جماعات مختلفة الأجناس والعقائد متعددة النزعات والمذاهب .

فهذا العدد اليسير من السكان الذى لايزيد على مليون ومائة وسبعة وخمسين ألفاً قد كثرت طوائفه وزادت مذاهبها على أربعة عشر مذهباً . ولكل جماعة عقيدتهم الخاصة ومبادئهم وتقاليدهم التى تؤثر فى اتجاههم ، ثم لهم نزعاتهم وميولهم وما خضعوا له من عوامل خارجية ، كان لوضع البلاد السياسى السابق وحالتها الاجتماعية والنفوذ الأجنبى فيه تأثير كبير .

نشأ من كل هذا أن التعليم فى البلاد لم تستطع الحكومة الاستقلال به ، أو السيطرة عليه سيطرة حقيقية ، بل إن مساهمتها فى نشره وتوجيهه أقل من القليل ، على حين كان من حظ الجمعيات الدينية والأهلية والبعثات الأجنبية النهوض بالقسط الأكبر .

وعلى ذلك نرى التعليم فى لبنان تتقاسمه ثلاث جهات : وزارة التربية ، والجمعيات الوطنية ، والبعثات الأجنبية .

أما وزارة التربية فلم يكن لها قبل عهد الاستقلال إلا عدد محدود من المدارس لايزيد على ٢٠٠ مدرسة ابتدائية و ٤ مدارس ثانوية غير كاملة تنتهى

عند الابتدائية التكميلية « الكفاءة » ، عدد تلاميذها لا يتجاوز ٢٠ ألفاً فى حين كانت المدارس الحرة قد بلغ عددها نحو ١٦٠٠ مدرسة بين أجنبية وأهلية (ابتدائية وثانوية) كلها صرحت بها المفوضية العليا الفرنسية ، فهى وحدها التى كانت قبلا تمنح إجازات فتح المدارس الخاصة ، وطنية أو أجنبية .

وكان مجموع تلاميذ مدارس الجمعيات الوطنية نحو ٨٠ ألفاً ، وتلاميذ البعثات الأجنبية ٤٠ ألفاً تقريباً ، وقد تأثرت هذه الأرقام فيما بعد بعوامل مختلفة ارتفع معها رقم المدارس الرسمية حتى بلغ نحو ٣٠٨ مدارس وزاد عدد تلاميذها حتى جاوز ٣٠ ألفاً كما سيأتى بيانه .

وينقسم التعليم الابتدائى إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة سنتان ، الأولى قسم التجهيز ويبدأ بعد مدارس الحضانة . والثانية القسم الإعدادى . والثالثة القسم الوسط . ويتقدم التلميذ فى نهايته للشهادة الابتدائية الإعدادية ، ثم يقضى سنة فى الابتدائى العالى ، فسنتين فى الدراسة التكميلية ، لينال الشهادة الابتدائية التكميلية ، وبعد سنتين أخريين يتقدم للبكالوريا (القسم الأول) ثم سنة ثالثة للبكالوريا (القسم الثانى) .

وينبغى أن يلاحظ أن الكثير من الأقسام الثانوية بالمدارس الخاصة كامل يعد طلابه للبكالوريا بقسميها على عكس المدارس الرسمية كما قدمنا . وتستمد مدارس الوزارة مدرسيها من خريجى دار المعلمين التى يدخلها حامل الابتدائية التكميلية بعد امتحان مسابقة ، ويقضى فيها سنتين يمنح بعدهما دبلومها .

أما التعليم العالى فليس للحكومة منه شىء ، وإنما هو قسمة بين الجامعة اليسوعية الفرنسية والجامعة الأمريكية . وكان إقبال أبناء البلاد على الجامعة الفرنسية أكثر منه على الجامعة الأمريكية حتى بدأ النزاع السياسى الأخير ، فتحول الاتجاه شيئاً ما . وقد أنشأت الحكومة هذا العام قسما لدراسة الحقوق اللبنانية ، مدة الدراسة فيه سنة بعد الليسانس ، وألحقته بمعهد الحقوق الفرنسى ، فكان ذلك مثار نقد بعض الصحف الوطنية .

مما تقدم نرى أن أمر التعليم فى جملته كان متروكا للطوائف توجهه جمعياتها حسب ما يتفق وعقائدها ومذاهبها وميولها ، لا يحد من حريتها شىء إلا النظام العام وبعض قيود صدر بها مرسوم بتنظيم التعليم الحر سنة ١٩٣٥ .

وإذا عرفنا أن المعلم بمدارس الحكومة ليس مطالباً بشهادة عليا حتى اليوم

(وقد ذكرنا نظام دار المعلمين) فهمنا السبب فى أن مرسوم تنظيم التعليم الحر لم يشترط مؤهلا لمزاولة مهنة التدريس بالمدارس الخاصة من أى درجة كانت إلا حصول المعلم على الشهادة الابتدائية ، واشترط فى مدير المدرسة الابتدائية أن يكون من حملة الشهادة الابتدائية التكميلية ، وأما مدير المدرسة الثانوية فيشترط أن يكون حاصلا على شهادة البكالوريا .

وهذا أهم قيد موضوع لمزاولة مهنة التدريس أو إدارة المدارس الخاصة ، وإن كان بعض المدارس الحرة يتخير فريقاً من الأساتذة من حملة الشهادات العليا .

وقد ترك للمدارس المختلفة الحرية فى اختيار أساليب التعليم وانتقاء الكتب ، كما ترك لها حرية التعليم الدينى ، فموقف الحكومة منه موقف سلبى اكتفاء بالنص فى المنهاج على أنه يمكن القيام بالتعليم الدينى فى المدرسة ومنهاجه متروك لرأى السلطات الدينية .

وكانت البرامج متأثرة بالنظام الفرنسى إلى حد كبير ، ولا تكاد تختلف البكالوريا اللبنانية عن البكالوريا الفرنسية فى شىء إلا العناية بدراسة الأدب العربى أو الفلسفة الإسلامية للقسم الأدبى . ولهذا كان تدريس المواد المختلفة باللغة الفرنسية غالباً ، حتى تتاح للطلاب فرصة التقدم للشهادتين اللبنانية والفرنسية .

ظهر من البيان السابق أن نسبة المدارس الرسمية إلى غيرها من المدارس الحرة نسبة هزيلة جدا لا تكاد تبلغ ١٣ ٪ وقد تبدو غريبة ، على أنى أظن إمكان تعليلها :

ذلك بأن لبنان كان جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ، التى كانت عنايتها بالتعليم محدودة أو قاصرة ، وكان للمدارس الرسمية المنشأة فى عهدها صبغة إسلامية فهى المدارس الوطنية المعترف بها فى نظرها ، فمن الطبيعى أن يختلف إليها من يريد من أبناء المسلمين .

أما أبناء الطوائف الأخرى فقد ألجأتهم الظروف أن يسعوا إلى طلب حماية دينية خارجية أو رعاية أجنبية ، وقد تم ذلك بمعاهدات عقدت فى فترات متعاقبة مع الدولة العثمانية كان من أثرها هذه البعثات التبشيرية والجمعيات الدينية المختلفة وما أسست من مدارس تمتعت بحريتها التعليمية وبالإشراف الدينى من هيئات أجنبية توطد بها مركز تلك المدارس الطائفية الوطنية والأجنبية .

وقد مر بتلك المدارس وغيرها أدوار من التطور ساير الزمن والظروف... فلما انفصل لبنان فى أعقاب الحرب الماضية عن الدولة العثمانية وخضع للانتداب

الفرنسى ورثت الدولة الناشئة تلك المـدارس الرسمية التى أخذت تتحول إلى مدارس مفتوحة للجميع ، وإن ظلت الـكثرة فيها للمسلمين .

وفى أثناء ذلك قوى سلطان المدارس الخاصـة : وطنية وأجنبية ، وتغلغل نفوذها ، فـكانت كل واحدة تعمل من جانبها على تنشئة طلابها على النحو الذى ترتضيه ويطمئن له رجالها الدينيون أو الجهـات المسيطرة على التعليم فيها . . . وليس بينها من رابطة إلا الإعداد لشهادة البكالوريا يتقدم إليها من يريد من الطلاب . ولهذا انصرف أبناء الطوائف المختلفة عن المدارس الرسمية إلى مدارسهم الخاصة ، وقد حرص الـكثير منها على أن يجعل له شهادة خاصة تمنح لخريجيها .

ولعل مما ينير سبيل البحث وندرك منه مبلغ الاضطراب فى سير التعليم حينذاك ، واتجاهه وجهات أخشى أن أقول إنها متعارضة من حيث الغاية ، أن نذكر أن الهيئات المشرفة على التعليم الحر الوطنى والأجنبى متعددة بالغة الـكثرة .

فالمدارس الحرة تابعة لنحو ٢٠ هيئة دينية أو مدنية ليس منهـا المدارس الفرنسية التى يتولى الإشراف عليهـا جمعيات وهيئات مختلفة قد تبلغ العشرين وكلها يندرج تحت اسم واحد هو المدارس الفرنسية .

ويمكن أن نعد من هـذه الهيئات البعثات التبشيرية والعلمانية فضلا عن مدارس الطائفـة المارونية والمدارس الـكاثوليكية والأرثوذكسية لـكل من طوائف الروم والسريان ، والـكلدان ، والأرمن ، والإليانس الإسرائيلية ، ثم مدارس الجمعيات الإسلامية .

فهذا العدد الضخم المتنوع من المدارس مهد لـكل طائفة أن تبعث بأبنائها إلى مدارسها الخاصة بها ، حيث تشعر بكامل حريتها الدينية وإرضاء نزعتها الطائفية ، وعصبيتها المذهبية ، وإن أنتج من ناحيـة أخرى تنافراً بين بعض الطوائف وبعضها الآخر من جهة ، وبينها وبين المسلمين من جهة أخرى .

وقد شاءت الظروف السياسية أن تفرق بين جماعة المسلمين أيضاً ، فصاروا شيعاً ، منهم السـنى ، والشيعى ، ثم الدرزى ؛ وقد تعددت جمعياتهم وهيئاتهم التعليمية تبعاً لذلك .

نذكر منها على سبيل المثـال للسنيين : جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ببيروت ولها مدارسها فى العاصمة والقرى المسلمة وكلية للبنين وأخرى للبنات فى بيروت نفسها . وجمعية أخرى بهذا الاسم فى صيدا ولها كليتها ، وجمعية ثالثة

فى طرابلس ولها كلية التربية والتعليم . وللشيعة مدارس جمعية الإصلاح العاملية ، والجمعية العاملية الكبرى . وللدروز مدارسهم وكلية فى عبى (مدرسة الداودية) . . . وإلى جانب ذلك توجد فى بيروت كلية شرعية إسلامية تابعة لدائرة الأوقاف ويشرف عليها سماحة المفتى الأكبر للجمهورية اللبنانية، هى كلية فاروق الأول الشرعية .

وهذه الكليات والمدارس المنثورة فى القرى المسلمة وفى المدن لا تكاد تختلف فى نظامها عن غيرها من المدارس المدنية التى تعد للشهادات الرسمية إلا بالعناية بالثقافة الإسلامية وإذكاء الروح العربية فى نفوس أبنائها ما عدا كلية فاروق الأول الشرعية ، فإنها معهد دينى يعنى بتخريج الطلاب المثقفين ثقافة مدنية إلى جانب التخصص الدينى ؛ ليضطلعوا بأعباء الوظائف الدينية على اختلافها فى الجمهورية اللبنانية بعد إتمام دراستهم العليا فى كليات الأزهر أو جامعة فؤاد الأول .

ولو أردنا أن نكوِّن فكرة واضحة عن توزيع أبناء الطوائف المختلفة من مسيحيين أو مسلمين على المدارس الرسمية وغيرها ، وأن نتعرف نسبة من يتعلمون فى مدارس غير مدارس طائفتهم إلى مجموع تلاميذ تلك المدارس ، لوجدنا بيان ذلك فى آخر إحصاء شامل صدر فى سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٠ .

ومنه يتبين أن الكثرة المطلقة لتلاميذ المدارس الرسمية من المسلمين ، فهى تبلغ نحو ٧٠ ٪ ، وأن نسبة من يختلفون إلى مدارس غير مدارس طائفتهم قليل جداً لا يكاد يصل إلى ٤ ٪ وأن عدد الذين يتعلمون فى المدارس الفرنسية (قبل عهد الاستقلال) يزيد على أربعة أمثال من يذهب إلى المدارس الأجنبية الأخرى ، وهو أمر طبيعى يفرضه الوضع السياسى الذى كانت عليه البلاد ، وهو السبب أيضاً فى أن ثقافة السواد الأعظم من المتعلمين فرنسية .

على أن هذا الاتجاه أخذ يتحول والميزان قد اضطرب بعد أن اشتدت المنافسة بين الفرنسية والإنكليزية وكثرت المغريات . . .

ثم نلاحظ أخيراً أن نسبة المتعلمين من المسلمين أقل من نسبة المتعلمين من المسيحيين . وربما أثر فى انخفاضها قلة المدارس فى المناطق التى يسكنها الشيعة .

وقد شعر المسلمون عامة بخطر هذه الناحية، خصوصاً حين رأوا أن للمسيحيين

الحظ الأوفر من وظائف الدولة الكبرى ، فشرعوا يتداركون هذا النقص بشدة الاقبال على التعليم العام والاتجاه إلى التعليم العالى خاصة ؛ كما أن هذا الوضع كان له اثره النفسى ؛ إذ جعلهم يشعرون فى العهد السابق انهم لا يستطيعون أن يتنفسوا كما يريدون بحكم الظروف ، فكانوا يتلفتون إلى غيرهم يستمدون منه العون ؛ ومن أجل هذا كانوا يحرصون على الانضمام إلى الكتلة العربية يستنفرون بها ويستشعرون العزة فى ظلها . فلما أهل العهد الجديد على البلاد وبسط عليها سلطانه اطمأن له الجميع وعملوا فى سبيله مخلصين متآزرين .

وقد صحب هذا الطور توسع فى إنشاء المدارس الرسمية وإقبال عليها من جميع الطوائف ، حتى بلغت بمقتضى إحصاء وزارة التربية لسنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥

عدد المدارس الرسمية	عدد التلاميذ	تقسيمهم بحسب الطوائف									
		مارونى	روم كاثوليك	روم أرثوذكس	مسلمون			بروتستانت	أرمن	إسرائيلي	مختلف
					سنى	شيعى	درزى				
٣٠٨ بنين وبنات	٣٠١٢٢	٥٤٤٠	١٦٠٨	٤٣٨٣	٨٧١٩	٧٤٦٢	٢٧٠٠	١١٠	٨	١٠	٧٣

أما طلاب المعاهد الخاصة وطنية وأجنبية فليس من الميسور إعطاء إحصاء دقيق عنهم الآن ، وكل ما يمكن ذكره على وجه التقريب ان عدد الطلاب فى لبنان أخيراً يتراوح بين ١٦٠ و ١٧٠ ألفاً منهم نحو ٣٠ ألفاً بالمدارس الرسمية كما ذكرنا و ٤٥ ألفاً أو تزيد قليلا بالمدارس الأجنبية عامة ، وباقيهم فى المدارس الخاصة الوطنية .

هذه كانت حالة التعليم واتجاهاته والمؤثرات التى أثرت فيه فى العهد السابق.

وقد أدرك رجال العهد الاستقلالى مبلغ ما فى هذا التبلبل والاضطراب من خطر على وحدة الأمة ، وشاهدوا آثاره البغيضة فى تفريق كلمتها وإضعاف شخصيتها فعملوا من طريق تغيير المناهج على التحرير من نير الاستعمار الثقافى وتوجيه الشباب وجهة وطنية صادقة .

من أجل ذلك ألفت وزارة التربية لجنة تنظر فى تعديل المناهج وتنقيحها واقتراح ما تراه كفيلا بتحقيق الأغراض التى يتوخاها العهد الجديد فى الجيل الجديد .

شرعت اللجنة تعمل — فى العام الماضى — وصادفتها عقبات مختلفة ثبتت

لها حتى أمكنها أن تضع مشروعاً لتنظيم التعليم العام ، وكانت تبغى من وراء ذلك هدفين :

أحدهما يتصل بنظام التعليم ونوعه ومدته فى المدارس المختلفة .

والثانى تحديد أغراضه وما ينبغى أن يرسم لتوجيهه وجهة صالحة لخير المجموع .

وقد انتهى الرأى إلى توحيد نظام التعليم الابتدائى وجعله عاما للجميع ، فلا تكون هناك مدرستان ابتدائية وأولية (كالنظام المصرى) . وقدرت مدته بخمس سنوات تبدأ من السادسة (بعد الحضانة) ثم يأتى التعليم الثانوى المتوسط فى أربع سنوات ، تليها مرحلة التوجيه وهى ثلاث . اثنتان للبكالوريا قسم أول ، وواحدة بعدهما للبكالوريا قسم ثان .

وعدل نظام التعليم الفنى بحيث أتاح لكل تلميذ ينتهى عند مرحلة من مراحل التعليم العام أن يتجه إليه . فبعد أن كانت هناك مدرسة فنية واحدة هى مدرسة الفنون والصناعات يدخلها الطالب بالابتدائية ليتعلم نوعاً من الصناعات على نحو ما كان بمدارسنا المتوسطة ، جعل منه نوع مهنى يدخله التلميذ بعد الابتدائية ويقضى سنتين يتعلم فيهما الصناعة أو الزراعة ليصبح زارعاً أو صانعاً أو عاملا فنياً .

ونوع ثان بعد المرحلة الوسطى ، ومدته ثلاث سنوات ، وينتهى منه الطالب بدبلوم كدبلوم المدارس الفنية المتوسطة فى مصر .

ثم نوع ثالث بعد البكالوريا ، ومدته ثلاث سنوات ، يمنح الطالب بعدها دبلوماً عالياً . وبذلك يمكن مواجهة حاجات البلاد الملحة وإمدادها بالزراع والعمال والصناع المهرة والمهندسين والإخصائيين .

كذلك لوحظ عند وضع المنهاج أمر أساسى يتصل بالجوهر هو التوجيه الوطنى والاتجاه العربى . من أجل ذلك اشتدت العناية بالجغرافيا والتاريخ القومى غير مرتبطين بجغرافية فرنسا وتاريخها (كما كانت الحال سابقاً) وأضيفت مادة جديدة إلى المنهاج هى التربية المدنية (التربية الوطنية فى مصر) كتوجيه وطنى يعرف منه الطلاب مقومات الدولة والسلطات المختلفة واختصاصها والحقوق والواجبات القومية والوطنية .

وإلى جانب هذا حرص المنهاج على العناية بالتاريخ العربى واللغة العربية عناية

صحيحة ، لما لهما من جليل الأثر فى بناء الشخصية وتعزيز الشعور بالقومية .

وقد أصبحت اللغه العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة لتدريس مواد العلوم جميعها فى المدارس الابتدائية وفى المدارس الثانوية أيضاً . إلا أنه أجيز بصفة مؤقتة أن تدرس العلوم والرياضيات بلغة أجنبية فى المرحلة الثانوية فقط ريثما يتهيأ للأساتذة إعداد الكتب اللازمة لتدريس هذه المواد .

كذلك نزلت اللغة الأجنبية الواحدة عن عرشها فشاركها غيرها ، وأصبحت المدارس مخيرة بين إحدى اللغتين الفرنسية والإنجليزية يتقدم الطالب للامتحان فى إحداهما كما يريد ، كما ألغيت الفرنسية من رياض الأطفال بعد أن كانت فرضاً عليهم. أما فى المدارس الابتدائية فقد بقيت اللغة الأجنبية فرنسية أو إنجليزية ، لاعتبارات فنية — فى رأيهم — لا يجوز التسامح فيها .

وشىء آخر له قيمته اهتم له واضعو المنهاج حتى تصطبغ المدارس كلها بصبغة واحدة . ذلك أن المناهج الجديدة أصبحت ملزمة لجميع المدارس اللبنانية على تعدد طوائفها ومذاهبهم ، ولجميع المعاهد الأجنبية على اختلاف جنسيتها .

ولتنفيذ هذا ألغى امتحان معادلة البكالوريا اللبنانية بالنسبة للبنانيين ، فأصبح على كل طالب أن يتقدم لامتحان البكالوريا اللبنانية إذا أراد الالتحاق بإحدى الجامعتين ؛ وبذلك تتيسر الرقابة على جميع المعاهد التى فى لبنان من غير تفرقة بين جنس أو دين .

على أن هذا الإجراء السليم لايزال نظريًا ، ويحتاج فى تنفيذه إلى مفاوضات سياسية ليصبح أمراً واقعاً . فإن المدارس الأجنبية فى لبنان ، بل المدارس الخاصة الوطنية ، لا تخضع للحكومة اللبنانية ولا تملك الحكومة الإشراف عليها أو مراقبتها حتى اليوم ، وإنما هى تخضع لنظام يستمد قوته من معاهدة فرساى التى تنص على أنه يسمح للدول الموقعة على المعاهدة أن تعلم بحرية اللغة الأجنبية التى تريدها على النحو الذى تراه من غير أن تتعرض للمسائل الطائفية ، وقد وقّعت فرنسا هذه المعاهدة باسم لبنان (بوصفها دولة منتدبة) فكان لها حق التعليم باللغة الفرنسية فى مدارسها طبعاً ، فضلاً عما فرضه الانتداب من تدريس اللغة الفرنسية فى جميع المدارس الوطنية . واستفاد الإنجليز أيضاً من هذه المعاهدة باعتبارهم من الموقعين عليها . أما الأميركان فقد عقدوا معاهدة خاصة مع فرنسا منحتهم نفس الحقوق التى خولتها معاهدة فرساى .

فلما عدّل الدستور اللبنانى سنة ١٩٤٣ وألغى كل ماله علاقة بالانتداب جدد الأميركيون معاهدتهم مع لبنان لحفظ حقوقهم المشروعة .

أما الفرنسيون فإنهم أرادوا أن يستفيدوا من ملحق معاهدة سنة ١٩٣٦ بينهم وبين لبنان (وهى المعاهدة التى لم يقبل الفرنسيون التصديق عليها حينذاك) فطلبوا تطبيق القسم الخاص بالاتفاق الجامعى ، وبه تمنح فرنسا مركزاً ثقافياً ممتازاً فتفرض اللغة الفرنسية فى سنوات معينة وبعدد خاص من الدروس ، وتكون نسبة النجاح فيها عالية ، وأن يفضل المتخرج فى المعاهد الفرنسية على غيره فى وظائف الدولة . فلما لم يظفروا بالموافقة على هذا الطلب رفضوا هم أيضاً أن يسلموا برقابة الحكومة على المعاهد الأجنبية والخاصة طائفية أو غيرها . فالإشراف على هذه المعاهد لا يزال وقفاً عليهم حتى اليوم ، وإن لم يمارسوه عمليا فى العهد الأخير .

من ذلك نرى أن الاتجاه نحو الإصلاح الوطنى والتحرر الثقافى من طريق المناهج أخذ سبيله نحو التنفيذ ، ولم يبق إلا أن يجتاز المراحل التشريعية ليصبح قانوناً يجب العمل به ويسرى على الجميع نظريًا ، وإن بقى معلقاً عمليًا بالنسبة للمعاهد الأجنبية حتى تحل العقدة السياسية

وإلى أن يتحقق إشراف الحكومة الكامل على جميع معاهد التعليم تبقى بعض مشكلات قائمة ومصاعب تعترض سبيل الاتجاه الوطنى السديد .

ولعل لجنة المناهج قاست الكثير من العناء والعنت حتى وصلت إلى هذا الحد من التعديل والتحوير ، وحتى ظفرت بإقرار مبدأ شخصية الدولة اللبنانية كأمة تحرص على قوميتها واستقلالها مع محافظتها على صلاتها الوثيقة بجيرانها . وهى فى ذلك تنزع نزعة وطنية خالصة من كل زيف متحررة من كل مؤثر أجنبى .

وبذلك يتبوأ لبنان المكانة الجديرة بشعب عرف بالنشاط والمثابرة والذكاء ، وساهم رجاله بجهود مشكورة موفقة فى خدمة الثقافة والعلم .

وإنه لحبيب إلى النفس أن نرى ذلك البلد — وقد اكتوى بنار التفرقة — أصبح يدرك نعمة الاتحاد ، فاجتمعت كلمته والتقى أبناؤه فى صعيد واحد بعد أن نبذوا الطائفية أو كادوا ، وتحرروا من العصبية فصاروا صفًا واحداً نحو الهدف المنشود ، لا غاية لهم إلا أن يعيش الوطن عزيزاً كريماً ، مستقلاً حرًا .

عبد العزيز أحمد

الأزمة الأولى

حنت الشفاه فالتقت وأبت أن تفارق الرحيق .
واستيقظت من نومى صارخاً :
— أحبها . . .
وطارت الأحلام فتحولت حياتى إلى أذنى . . .
صمت مطلق . . .
إذن فمن الهاتف بتلك الكلمة الحلوة . . .
وذهب الرعب بقلبي . إننى أهذى فى منامى ، وأهذى بصوت مرتفع يوشك أن يوقظ القرية بأسرها . إننى أهذى بتلك الكلمة التى لم أجرؤ أن أقولها فى النور ، بل لم أجرؤ أن أقولها فى اليقظة . إنها كلمة حلوة ولكنها رهيبة :
— أحبها . . .
وهل لفتى قروى فى السابعة عشرة من عمره أن يهتف بتلك الكلمة الساحرة الدنسة :
— أحبها . . .
ومن هى تلك التى أحبها ؟
أستيقظ القلب ، وانطلق الخيال يسبح فى ضباب من الصور اللامعة المخدرة .
ثلاث سنوات قضيتها بالقاهرة بعد أن انتقل أبى إليها ، ولكن تلك المدينة العظيمة لم تحول من أخلاق الفتى الريفى ، ولم يستطع سحرها أن ينال من أخلاقه .
ثلاث سنوات . . . ثم هفا بقلبى حنين إلى قريتى ، فعدت إليها مع الصيف أحدث عهداً بمن بقى من الأهل ، وألتمس فى مراتع الطفولة حنان النشأة الأولى . وظفرت بالحنان .
ظفرت بماذا ؟

لست أدرى ! ولكنى أذكر فاطمة زوج قريبي وهى تحيطنى بدفء من رطايتها وبدفء من حنانها . لقد قبلتنى يوم أوبى قبلة الأمومة . ثم قبلتنى فى اليوم الثانى فانتفض جسدى من القبلة الثانية . إن لها مذاقاً لم يكن فى الأولى.
وانقطعت القُبل . ولكنى لا أكاد أرفع بصرى حتى يلتقى بعينها الضاحكة ، فأحول بصرى ، ولكننى أشعر بعينها تجول فى صدرى ووجهى ، وتغمرنى بسيل من شعاع دافىء مخدر .
وتتابعت الأيام فأحسست شيئاً فشيئاً أننى لا أغادر المنزل ولا ألهو مع لداتى وصحبى . فأنا أسمر وأسمر مع فاطمة . ولم أكن كارها لهذا السمر ، ولكننى أيضاً لم أكن صاحبه ، فهى التى تتحدث ، وهى التى تمسكنى لديها وتربط حياتى بحياتها .
وما خطر لى السوء . وما كان لمثل قلبى الساذج أن يجول السوء به فى موقف يحوطه سياج من قداسة .
ولست أدرى أكان عفواً أم قصداً أننى لا أكاد أرمى ببصرى إليها حتى أشاهد ذراعاً عارية يلمع بياضها ويتفجر سحرها ، أو ساقاً ممدودة فى وضع فاتن يتراقص حوله الخيال . ولكننى أحس بأنها ما كانت قط تستر ذراعاً أمامى أو تغير من وضع ساقها إذا جال حولها بصرى .
وكان زوج فاطمة يدلف فى سرعة إلى شيخوخة مبكرة ، وكان كشأن الكثيرين من أبناء القرية لا متاع له فى الحياة إلا أن يسمر مع صحبه فى ليالى الصيف المقمرة فى ذلك المكان المرتفع بجوار مسجد القرية . ويمتد السمر عادة حتى يوشك صائح الصباح أن يهتف بدعوة النور .
وفاطمة امرأة لا تطيق الوحدة ، فهى تؤمن بالأشباح والأرواح الشريرة ، وتخشى عبثها وعدوانها بالليل ، فلا عجب إذا تعلقت بى ؛ لأسلى وحدتها حتى يؤوب زوجها .
واطمأن الزوج واستراح إلى وجودى ، فهو كفيل بأن يعفيه من الشجار الدائم بينهما بسبب سهرته الليلية .
وكنا إذا جن الليل سارعت فاطمة فبسطت على سطح المنزل فراشاً وثيراً ، ونادت أن أصعد إليها تحت شعاع البدر فى هواء الصيف الفاتن لنمضى فى سمرنا .
وعلمت من فاطمة ما هى الحياة .

إنها تحدثنى عن تلك الأسرار الخفية الحبيبة، أسرار الغرام بتلك القرية الصغيرة. وهل لفتى مثلى أن يعرف أن فى القرى غراماً ونجوى؟

كنت لا أومن بهذا، ولكن فاطمة ذكرت لى ألواناً وساقت إلى شتيتاً من قصص عجب.

وكنت أستلقى وأسلم إليها أذنى، ثم أحلق بخيالى فى تلك الدنيا السحرية التى أستمع إليها، وأسبح فى أحلام اليقظة.

وهل هناك أشهى إلى قلب فتى من أن يستمع إلى مثل هذا الحديث! وفاطمة تعجب لجهلى، ويعلو ضحكها لسذاجتى، وتعجب أكبر العجب من فتى عاش فى القاهرة بلد الهوى والجمال، ولم يحب، ولم يسمع أقاصيص المحبين.

وكنت أعجب أنا أيضاً لهذا، ثم اطمئن قلبى بأننى فتى آثر النقاء على العبث والمجون. ألم أشاهد زكية تلك الفتاة العبلة الفاتنة التى سلبت نعمة البصر، وهى ترفع ثوبها، فلم أكد أنظر حتى غضضت بصرى وأغمضت عينى واستعذت بالله.

ولكن فاطمة تمضى فى حديثها، فأشعر بدبيب غريب يتمشى فى قلبى، وأشعر بشىء حى يتواثب فى صدرى بل فى جسدى كله ... شىء حار متدفق، ثم يغمر روحى خدر حنون فاتن حالم، ثم يحتوينى ضباب أسبح فيه وأسبح، فيصل إلىَّ صوت فاطمة أشبه بهمس يأتى من عالم مسحور.

ثم يطرق الباب طارق، فأعلم أن صاحب المنزل قد آب، فتهبط فاطمة وأهبط معها لاستقباله، ثم ينصرف كل منا إلى حجرته.

ولست أدرى هل نامت فاطمة، وهل نام زوجها؟ ولكننى أنا لم أنم! إننى أحلم وأتخيل بل أشعر بيقظة فى جسدى، يقظة متوثبة متمردة لا تطيق الفراش ولا يواتيها النوم.

القمر والنجوم وكل شىء فى الطبيعة يهمس بالحب والجمال. هكذا خيل إلى وأنا سادر مسحور، وفاطمة منى غير بعيد يغمرها ضياء القمر، ويتلألأ على وجهها وجسدها شعاعه، وهى تقص علىَّ قصة زوجها.

— إنه رجل بخيل مقتر، ثم إنه عليل مريض، ثم إنه ...

ولكنى صرخت:

— كلا يا فاطمة! إنه رجل نبيل، إنه سيد القرية ورجلها.

قالت فى عبوس :

— إنه قريبك فلا عجب إن مدحته .

— قريبى ؟

أجل إنه قريبى ، وهذه المرأة زوجه تنال من كرامته بالقول وبغير القول .
وانهالت علىَّ خواطر عجيبة عن الحياة وألوانها .

ولست أدرى أى صورة من صور الألم والغضب لبسها وجهى ، ولكننى سمعت صوت فاطمة تقول فى دلال :

— هل غضبت ؟

— كلا !

— لو ذكرت لك سرًّا فهل تبقى عليه ، ولا تغضب منه ؟

— إن السر عندى مقدس .

— قريبك يحب !

— ماذا ؟

— يحب !

فقلت ضاحكا :

— مزاح غريب منك !

فأقسمت بالأولياء والصالحين أنه يحب فلانة التى توفى زوجها ، وهو يزورها ويهدى إليها الهدايا .

فهتفت بها :

— سيدتى ، إنك تتخيلين الدنيا كلها حبًّا وغراماً ، فكل إنسان يحب حتى زوجك الكهل الشريف .

قالت :

— نعم ، كل إنسان يحب إلا أنت !

— كل إنسان يحب إلا أنا . . .

حقيقة كل إنسان يحب إلا أنا . . .

ألحت علىَّ تلك الفكرة القاسية : كل إنسان يحب إلا أنا ، وأنا لماذا لا أحب ؟ ولكن من التى أحبها ؟

استعرضت حياتى . إنها خالية من النساء . إننى أحب أمى ، وأحب عمتى ، وأحب

خالتى ، وأحب ... كدت أذكر اسمها ، ولكن وجهى التهب وركبنى الخجل ...
وظل الخجل يلازمنى حتى أنقذنى الكرى .

ولكن هل نمت حقاً ؟ كلا لقد انتقلت إلى دنيا غير دنياى ، دنيا أحلام وأمانٍ ، عربد فيها الحلم ، كما عربد الخيال .

وكانت يقظة الصباح رهيبة . أشعر بخدر يلف أعضائى ويمسك بروحى ، وأحس رهبة من أن أغادر فراشى . إن الفراش هو دنياى ، وأنا غريب إذا فارقته .

ومرت ساعات النهار بطيئة ثقيلة ، وقلبى معلق بسهرة المساء ، وروحى تحن إلى سمر الليل . . .

وصور هذا الجسد الفاتن تراودنى وتحادثنى ، وتتمثل لى فى أوضاع يلونها الشيطان ، وتلونها الأمانى . . .

وفسد مذاق الحياة فى فمى ، وكرهت حديث لداتى ؛ لأنه يقطع علىّ تصوراتى ، وعفت لهو أمثالى فى القرية ؛ لأنه يعطل أحلامى اليقظى . . .

غدوت فريسة للوجوم والذهول !

وجاء المساء . . .

وآن وقت السمر . . .

وتلون حديثنا بلون جديد . إنها تحدثنى عن موقف زوجها . إنه يصبو إليها ولكنها تصد ، لما أخذ يدركه من أعراض الشيخوخة والضعف . . . وهى الفتاة اللدنة الغضة التى اشتهى الزواج منها فلان وفلان ، وداعبها السيد العظيم ، وتمناها الرجل الكبير .

إنها ترثى نفسها بقصيدة نسوية معطرة بعبادة الجسم ، وترثى نفسها بدموع نسوية تثير الحنان وتثير القلب . . .

وأنا ، لى الله ، كنت أتقلب وأتلوى ، وأطوى جسدى وأنشره . تعصف بصدرى ريح عاتية أحس توثبها وثورتها . أحسها حبيسة تبغى الانطلاق والتدمير .

إن جسمى ثائر ، ونفسى تئن تحت ثقل الإحساس بالواجب . إننى أقاوم نار الرجولة الأولى فى دمى ، وصيحة النداء العنيف القوى . . .

أقاوم وأحترق ، ويكاد يقتلنى الظمأ إلى الرحيق . . .

وتسلمنى الفراش خامد الروح ثائر الجسم ، وتلاحقت الصور فى رأسى وطارت الكلمات بقلبى . . .

ثم طاف بذهني خاطر جديد . إن ملامح فاطمة فى خيالى صورة من المعانى لا صورة من عالم الحس . إننى إلى اليوم أرهب النظر الدقيق إلى عينها . إن عينى لم تشبع من محاسنها . . .

آه . . . إننى ظامئ إلى جمالها . . .

هذا الحياء ، هذه المبادئ الجامدة البالية . إنها تصدنى وتردنى وتحول بينى وبين الفردوس .

— إننى ثائر . سأملأ عينى بجمالها . . .

ما هـذا الجحيم ؟ إننى أحس الحر ينضح من وجهى ، ويثب من أظافرى . دفء وحر . . . سعار من الجوع الملح العنيف . إن فى جسـدى زلزالا ، وأنا أسمع دمدمته ، وفى أعصابى بركانا أحس أزيزه . إننى قطعة من النار ، بل من الجحيم . . .

ومضى الليل بطيئا ثقيلا لم أنعم فيه بالـكرى ، ولم أهنأ بتلك الغفوة الجميلة المريحة التى هى نعمة كبرى من نعم الحياة لا يحسها إلا من فقدها .

وكان صباح أحببته وما تمنيته . إننى أريد الظلام . أريد الخلوة والابتعاد عن صخب الحياة . أريد أن أعيش فى عالم كل مافيه خيال فاطمة وإشارة يديها وضحكتها الجميلة المتكسرة ، وعينها المنادية المحرقة .

وازداد مذاق الحياة فسادا فى فمى . إننى أجلس إلى الطعام فأتصور فاطمة ، فيشرد خاطرى حتى ينبهنى إلى الوجود من بجوارى . وأجلس إلى صحبى أصم أبكم حتى ينادينى مناد أو يسخر منى عاتب . ويعجب من أمرى من يعجب !

إن فاطمة هى حياتى .

ولـكن هل أحب فاطمة هـذا الحب الطاهر الساحر الجميل الذى يضيف إلى الانسانية عطراً من عالم الروح ؟

هل أحب فاطمة هـذا الحب الذى تخيله الشعراء إلهاما وأنغاما ، وتخيله الرواة والقصاصون عالما من المعانى العلوية ؟

كلا . . .

ليس ما أحسه أنغاما من موسيقى الفردوس ، ولست أشعر بذلك النور العلوى ، ولا بتلك الأجنحة الملائـكية تحملنى إلى سموات المعانى والجمال .

إننى أحس شخصها يزحم شخصى ، ونداءها يوقظ قلبى ، وأشعر بخيالى يحوم حول ذراع وساق . . .

لقد تفتحت رجولتى على إغراء وإغواء . . .

لم أعرف تلك السعادة التى يتحدثون عنها فى أقاصيص الحب وأشعاره ، ولم أر الفردوس المفقود ، بل أحسست الجحيم الموجود . . .

إنه اشتهاء جسم لا نداء روح . . .

وهذا الاشتهاء تثور عليه طفولة طاهرة ، وتثور عليه نفس لم تتدنس ، بل تنفر أكبر النفور من العبث ، وتنفر أكبر النفور من هذا اللون من الخيانة .

لقد كانت طفولتى سعيدة ساذجة عابدة حتى أيقظها من أحلامها ذلك النداء .

وإن كان جسمى صبا ، فإن روحى لم تستسلم بل قاومت وأصرت على الوفاء .

ولكن هل لروح فتى مراهق أن تتغلب فى مثل هذا الصراع ؟ وهل تشعر فاطمة بتلك المعركة الرهيبة التى تمزق أعصابى وتحرق قلبى ؟ إنها أنثى تنشد الفوز ولا تعرف المعانى .

إنها أنثى كاملة : جسم ناضج دافئ حى ممتلئ بفورة الرغبة ، وقلب متوثب متطلع ينشد النعيم ويحن إلى التذوق ، وروح مرحة عابثة خفيفة ساحرة .

إنها أنثى كاملة ، ربطت حياتها إلى جواد كليل محطم كثير الأوراد والتسابيح .

أنثى ضاقت بها تقاليد القرية ، فأحاطتها بجدران من فولاذ لا تفارقها ، حتى ظفرت بى فكنت دنياها وكنت فريستها .

كنت أحس أنها تشعر بلذة فى إغوائى ، وتشعر بلذة حين ترانى مرتبكا خجولا ، وتشعر بلذة إذ ترى أنوثتها تغزو قلبى وتملك روحى ، وتتنفس فى أعصابى .

كنت المجال الحيوى لأنوثتها ، فتملكتنى فى عنف وحماسة .

وأسرفت فاطمة فى عبثها ، فما عادت تخجل أن تبدو أمامى متبذلة ، وما عادت تبالى ، فهى تضطجع أمامى ، وتتخذ ما شاءت من الأوضاع .

وأتى المساء وصعدت مع فاطمة إلى أعلى المنزل ، واحتوانا ظلام الليل الذى تضيئه أشعة باهتة من نجوم الصيف .

والليل سحر على الروح والجسم ، وللحديث سحر على الروح والجسم .

وكان سمرنا بخوراً فى معبد الشيطان ، وأحسست أن فاطمة اعتزمت أمرا وهيباً ، وأحسست أن روحى قد سرقت . . . سرقها جسمى ، فغدوت جسما ملتهباً لا شأن للروح به .

وتشعب الحديث ، ومحور الدائرة واحد .

قالت فاطمة :

— أى النساء أحب إلى قلبك : أهى المرأة العبلة اللدنة الناعمة أم الغادة الهيفاء الرشيقة بدلها وتوثبها ؟ وأى العيـون أشهى وأجمل وأفتك : العيون المتكسرة فى استرخاء وأحلام واستسلام ، أم العيون المنادية فى تحد وعنف ورغبة ، أم العيون اللامعة الخاطفة فى خبث ومكر ، أم العيون الساذجة المانحة فى دعة وصمت ؟

وما كنت محدثاً لبقاً ، ولا ممهداً للهاوية التى تجذبنى فاطمة إليها . كنت أشبه بالصينى الذى فرغ من تدخين مخدره ، واستلقى يحلم ويسبح مع الأجسام السابحة فى دنيا أحلامه ونشوته .

وأدركت فاطمة بغريزتها حالتى ، فراحت تضحك وتسرف فى الضحك .

لم أكن ثائراً ، بل لقد هدأت تلك الفورة الجسدية الصارخة

وانقضى مساؤنا وعاد الزوج من سمره . ولست أدرى أى صورة كان عليها وجهى فلم أره فى مرآة ، ولـكن زوج فاطمة راعه أمرى وأخافه شحوب وجهى فأحاطنى بحنانه ، وأخذ يسألنى عن صحتى ، فطمأنته فى تمتمة سريعة غامضة حاسمة وانسللت إلى حجرتى .

واستلقيت أحلم وأتخيل ، ثم انفجرت العاصفة . . . جن جسمى ، وجن عقلى .

ولم أطق الفراش فوثبت منه ، ولم أطق حجرتى فغادرتها ، وأخذت أحوم فى وله حول باب فاطمة ، وألهبتنى سياط لا ترحم ، فغادرت المنزل وأخذت اجول حول النافذة التى تنبعث منها انفاس فاطمة .

ثم أخـذت أعدو فى القرية منطلقاً إلى الحقول . أحسست بالغريزة أننى فى حاجة إلى نهك جسمى وتهدئة ثورتى .

وانتبهت على صوت المؤذن يدعو النفوس الحائرة إلى ربها فى فجر يومها الجديد ، فتسللت فى بطء إلى مسجد القرية .

طرق زوج فاطمة باب حجرتى ، ثم ارتد عنها لم يشأ أن يوقظنى . لقد سره أننى فى سبات عميق ، والنوم عنده علامة العافية .

والتصقت بالفراش وكرهت أن أغادره ، بل لقد اعتزمت أن أقضى به نهارى .

وما كان هذا ليرضى فاطمة ، وما تريده المرأة تريده الحياة ! أيقظتنى فاطمة فنهرتها للمرة الأولى فى حياتى ، فابتسمت ولمع البشر فى وجهها وخطف بصرها فى تيه وعزة . إنها تريدنى غاضبا . هكذا تقول فقد آلمها استسلامى وأدبى !

وألحت فاطمة ، وأصررت على البقاء ، فجلست على طرف الفراش ، وقالت :

— كيف كان نومك بالأمس ؟

— كان نوماً سعيدا .

فاستضحكت قائلة :

— إذن فمن الذى كان يحوم حول باب حجرتى ، ومن الذى كان يدور حول نافذتى ؟

وثبت من الفراش وثبة مجنونة ، وحملقت فيها فى ذعر ورعب صارخاً :

— من ! ...

وضحكت فاطمه ... وبكيت ...

طه عبد الباقى سرور .

من هنا وهناك

هـ . ج . ولز

مات هـ . ج . ولز فى الثالث عشر من الشهر الماضى عن تسعة وسبعين عاما . وكان فى الاشهر الأخيرة يشكو من تفاقم مرضه القديم وهو الديابيطس أى البول السكرى . وقد لازمه هذا المرض أكثر من ثلاثين سنة . وكان يعزوه إلى حادث وقع له وهو يلعب مع زميل حين شطحت ساق هذا الزميل فأصابت ولز فى إحدى كليتيه وعطلتها . وكان هذا منذ أكثر من خمسين سنة . ويرجع ولز بذاكرته إلى هذا الحادث لان الطبيب الذى عالجه من إصابة كليته كان قد قال له إنه سيمرض فى المستقبل بالبول السكرى . ويبدو أنه كان لهذه الكلمة وقع فى نفسه حتى إنه كان لا يفتأ يذكرها . وعند ما صدقت نبوءة هذا الطبيب ألف ولز جمعية من المرضى السكريين أمثاله لبحث أسباب هذا المرض وعلاجه . وكان هو من أبرز أعضائها . ولا شك أن العناية العلمية التى كان يعيش بها ولز ويعالج بها مرضه هى التى أبلغته إلى قراب الثمانين على الرغم من هذا المرض الوبيل .

وقدمضى على ولز نحو خمسين سنة وهو يؤلف وقد استهوى بقصصه قلوب العامة والخاصة كما أنه كان يرشد الطبقات المثقفة بمؤلفاته الاجتماعية ويوجههم نحو الآراء الجديدة التى يؤمن بها الكثيرون من الساسة والاقتصاديين والاجتماعيين والسيكلوجيين فى جميع أقطار العالم . وأثر ولز ليس كبيراً فى القارة الأوربية حيث تبنى الطبقات المفكرة مستقبلها على الحركات الانفجارية والثورات الانقلابية . أما فى بريطانيا والأمم الاسكنداوية وهولندا وأمريكا الشمالية ، حيث تبنى الأمم مستقبلها على التطور والتدرج فان أثر ولز كبير جداً .

وقد ولد ولز فى القرن التاسع عشر . ولكنه ، بخلاف كثير من الكتاب الانجليز ، قطع الحبل السرى الذى كان يصل بينه وبين وليده القرن العشرين . بل هو ثار عليه فى عقوق وإنكار ، ودعا إلى نفض مؤسساته . ونفض عن عقله وقلبه غبار العصر الفكتورى . وعبارة « العصر الفكتورى » من العبارات المألوفة فى بريطانيا وأمريكا . ذلك أن الانجليز فى عهد الملكة فكتوريا التى تولت الحكم أكثر من ستين سنة كانوا ينبسطون على هذا الكوكب فى توسع جغرافى وتجارى ويزدادون رفاهية ومالا وسلطاناً . وكان الشعور العام بين الجمهور أن الارتقاء سنة اجتماعية وأن شعب الله المختار هو الانجليز الذين يستعمرون الدنيا ويملأونها خيرات وبركات ، وأن نظام الامبراطورية هو فضل ونعمة ينعم بهما الانجليز على سائر البشر الذين ينشرون بينهم الحضارة — بل الحضارة المسيحية — ويقشعون عنهم الجهل والخرافات ويعممون بينهم الحق والعدالة . وكان هذا العصر ، للنجاح المادى الذى يسود البلاد ، يلتزم العرف والعادات الاجتماعية ويعد الخارجين عليها ناقصين فى الكياسة أو متبطرين على نعم الحضارة . وكانوا من هذا الرضى على أنفسهم وعلى مؤسساتهم يكادون يعلمون العالم : أنه مادام لكل أمة ملكة مثل الملكة فكتوريا ، وديانة مثل الديانة المسيحية ، وتجارة حرة ، فان كل شىء يسير على

أحسن ما يرام وتنقلب الدنيا إلى جنات يعيش فيها الأسود فى صفاء مع الغزلان .

ولكن على الرغم من هذا النجاح المادى ، وهذا الرضا العام بين الطبقات الثرية ، كان هناك نفثت فى الأسس . فكان التعطل والفاقة والمرض كما كانت القسوة والفتك بل الخطف والنهب يفشو فى أنحاء المستعمرات كما يفشو فى أزقة لندن ومنشستر ، فى المصانع التى كان يعمل فيها الأطفال ، بل فى البيوت التى كانت تعمل فيها الأرامل اللائى كن يعملن فى النهار ويسهرن فى الليل فى كسب قوتهن بالأجر الضنين، مما عبرت عنه قصيدة «أغنية القميص» التى شرح فيها مؤلفها كيف تتعذب هؤلاء الصانعات وكيف تتهرأ أصابعهن من الابر كى يحصلن لا على العيش المنتظم بل على ما يمسك الرمق يوما بعد يوم .

فى هذا الوسط ، وسط العصر الفكتورى ، حيث المجد والتلألؤ فى الظاهر ، والعفن والفساد فى الباطن ، ولد ولز وبرنارد شو وأمثالهما من الثائرين . وكان ولز يعيش مع أمه الخادمة فى بيت من بيوت الأغنياء . وكان أبوه مدربا قليل الكسب فى لعبة التنس أو الجولف . وقضى ولز طفولته ، كما كان الشأن بين العائلات الفقيرة فى « بدروم». فلما أتم دروسه الابتدائية عمل فى أحد المخازن التجارية الصغيرة ثم اشتغل بالتعليم ودأب فى الدرس حتى حصل على شهادة بكالوريوس فى العلوم . وقد أخبرنى الدكتور هيوم الذى كان مديرا لمصلحة الطبيعيات فى مصر أنه كان يزامله فى تلك الدراسة ، وأنه كان يعرف فيه فى ذلك الوقت الجد والذكاء مع الفقر والحاجة .

وأول ما ألف ولز من الكتب هو كتاب فى تشريح الحيوان استعمل مدة طويلة بين الطلبة الذين يدرسون البيولوجية أى علم الحياة . ومن هنا نرى أن تربية ولز علمية وأنه لم يدرس الأدب . والواقع أنه جعل العلم يغزو الأدب . فانه بدأ حياته الأدبية بأن استأنف حركة جول ڤيرن فى الخيال العلمى بأن ألف طائفة من القصص وجدت رواجاً عظيما مثل « حرب العوالم » و « طعام الآلهة » ونحوهما .

ونستطيع أن نقول إن ولز فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر شرع يرى رؤيا العلم فى التقدم البشرى الوشيك . كما أنه أيضاً استطاع أن يرى العفن والفساد فى مؤسسات العصر الفكتورى . ولكن بدلا من أن يعالج هذا والفساد بالثورة الماركسية كما هو الشأن فى مفكرى القارة الاوربية ، وجد هو العلاج فى الطريقة الانجليزية العريقة ، طريقة التدرج والتطور باستخدام العلم . وهو إذا كان قد بدأ قصصه بالخيال العلمى المسرف على طريقة جول ڤيرن ، فانه انتهى بأسلوب رصين فى التفكير العلمى لمعالجة مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولذلك كثيراً ما هجر القصة إلى المقالة . ثم توسع فى المقالات حتى صارت كتبا فى دراسة الحضارة وعيوبها . حتى إذا كانت الحرب الكبرى الأولى شرع يتجه بقوة اتجاهاً علمياً ويقول بضرورة الحكومة الواحدة للعالم كله . وقد تطورت هذه الفكرة عنده ، ولكنها منذ ربع قرن وهى بذرية محورية فى جميع تفكيره

وأول تجاربه فى هذا الميدان هو « خلاصة التاريخ » الذى ألفه باعتبار أن هذا العالم أمة واحدة قد جاهدت وحاولت فى جهادها ، ولا تزال تحاول ، تحقيق الحضارة المثلى . ولأنه قصد إلى هذا الهدف ، فانه كاد يجعل التاريخ فناً إذ هو يستعرض حتى إنه يستصغر شأن إسكندر الأكبر ونابليون الأول ، كأنه يرى فيهما صورة غليوم إمبراطور ألمانيا الذى أشعل ، فى الزعم العام ، الحرب الكبرى

الأولى . ولكنا مع هذا الاستغراض نجد نبلا حين نراه يعرض لموكب الحضارة كأنه موكب بشرى وليس إنجليزيا أو ألمانيا أو فرنسيا . كما أننا نحس إحساسه ونجد عاطفته التاريخية تهز قلوبنا كما هزت قلبه حين يصف هذا العالم بأنه « قريتنا الكبرى » .

ومنذ الحرب الأولى إلى الآن وهو فى هذا الكفاح الثقافى يحمل على الوطنية كأنها رذيلة ويوضح لنا أن ربط العالم اقتصاديا يجب أن يربطه سياسياً وثقافياً . ويضرب لنا المثل بمقارنة بين القارة الأوربية التى تحفل ببابل من اللغات والأمم المتنازعة المتقاتلة وبين الولايات المتحدة الأمريكية التى يعيش سكانها أمة واحدة بلغة واحدة . ثم يعزو هذا الفرق لى أن السكك الحديدية قد ربطت الولايات المتحدة فصارت شبكتها التى تربط مواصلاتها سبباً لاتحادها ، هذا الاتحاد الذى حرمت منه أوربا لان السكك الحديدية لم تدركها قبل أن تستقل أممها وتنفصل أقطارها . ثم يستخرج المغزى فيقول إن الطائرات والبواخر والسكك الحديدية والراديفون والتلغراف والبريد الجوى والصحف التى تحملها الطائرات ، كل هذه تربط كوكبنا الأرضى ، كما لو كنا فى قرية صغيرة . ولم يعد هناك مجال لأن يتجزأ هذا العالم دولا ودويلات يعيش كل منها فى سياسة قروية ومهارشة حزبية دون النظر للمصلحة العالمية الكبرى .

وقبل أن يكون ولز عالمياً كان اشتراكيا . ولكنه بسبب تلك الحزازات الحرفية التى تنشأ بين الكتاب والأدباء ، أنكر اشتراكية ماركس وطعن فيه ، واختصم بذلك جمهور الاشتراكيين الأوربيين الذين يعدونه مصلحاً معتدلا يرتق ويرقع . إنه بهذه المثابة ، أى بالرتق والترقيع ، يؤخر الثورة ويفسد الوجدان الطبقى بين العمال . والحق أن ويلز من ناحية المزاج الاشتراكى أقرب إلى حزب العمال الانجليزى الحاضر بل إلى حزب الأحرار منه إلى الأحزاب الاشتراكية الأوربية .

ومن السنين الأخيرة انبسطت له آفاق جديدة فى تفكيره العالمى . فدعا إلى إيجاد موسوعة كبرى تؤلف للبشر وليس لأمة معينة ، بحيث تبقى هذه الموسوعة مؤسسة عالمية لها كتابها الدائمون ومترجموها وسكرتيروها ومكتباتها ومطبعتها ، وبحيث تشترك فيها جميع الأمم ، وتترجم إلى جميع اللغات ، وتطبع على طريقة الورق السائب حتى يستطاع تحريرها وتغيير أوراقها عاماً بعد عام بل شهراً بعد شهر وهى بالبيت عند قرائها .

وفى حياة ولز مأساة هى تطوره الدينى . فقبل نحو ثلاثين سنة ألف نحو أربعة أو خمسة مؤلفات يدعو فيها بروح المرسل المتحمس إلى الايمان بالله . ولكنه بعد ذلك انقلب إلى تعطيل جامح حتى إن آخر مؤلفاته كان كتاباً فى نقد البابوية . ألحقه بآخر فى نقد التوراة . وكلمة « النقد » هنا ملطفة . لأننا لو وضعنا فى مكانها كلمة « نقض » لكنا أقرب إلى الغرض الذى قصد إليه . وقد أحزن هذا التحول كثيراً من الأحبار الذين كانوا فى بداية القرن يستشهدون بأقواله ويقتبسون منها كى يبرهنوا على أن عظماء المفكرين هم على الدوام من المؤمنين .

س . موسى

إلى المجهول

فى الظلام الحالك حيث يختفى كل شىء . . .
بين العواصف الشديدة والرياح الغاضبة
أسلك وحدى طريقا طويلة . . . إلى المجهول . . .

إنها طريق شائكة ، محفوفة بالأخطار
ولكن الحنين المنبعث فى قلبى إلى المجهول
يثير همتى ويضاعف نشاطى ويشد قواى
فأسرع فى سيرى هازئاً بالعواصف والرياح
غير عابئ بالأشواك تدمى قدمى . . .

ومن أعماق الظلام يشرق على نور ساطع
فأرى وجهاً مشرقاً تكتنفه هالة من نور
أثبت فيه عينى وأطيل فيه التحديق
فأرتعش منه وأضطرب اضطراباً شديداً
ويخفق قلبى خفقات قوية متزاحمة . .

ومن العواصف الهائجة اسمع صوتاً خافتاً
ولكنه ناعم ، له جرس رقيق يثير الأشجان
ويملأ صداه أذنى وقلبى المضطرب
وكأنه يدعونى ويلح على بالوقوف
لأترك طريقى وأتجه نحو الوجه المنير . . .

وأشعر بقوة خفية تشدنى بعنف
وكأن يداً خفية ناعمة تلامس يدى
لتقودنى إلى مشرق النور ومبعث الصوت . . .
إن جسمى يرتجف لهذا الاحساس الغريب
ولكن اليد تشدنى بقوة وعنف لا يقاوم . . .

وجه منير وصوت عذب ويد جبارة
تدعونى بل تدفعنى فى طريق جديدة
ألمح زهوراً وورودا فرشت عليها
سماؤها صافية تتألق فيها النجوم
وجوها هادئ جميل لا يعكره شئ . . .

واقف متردداً دهشاً ، مضطربا
وأحاول أن أخطو وأنجو من الظلام
لكن صوتا جبارا ينبثق من أعماق نفسى
ارتعدت منه وارتجفت أضلعى لقوته
صرخ فى بقساوة . . . فى طريقك إلى المجهول . . .

فأمسح دمعتين تحدرتا على خدى
وأغمض عينى لئلا أرى ذلك الوجه
وأطبق يدى على أذنى كيلا أسمع الصوت
وأتحسس يدى لأنجو من اليد الجبارة
وأندفع فى طريق ، على الشوك ، وفى الظلام . . .

عيناى مغمضتان ورغم ذلك أرى وجها
وأذناى مسدودتان ومع ذلك أسمع صوتاً
ويدى طليقة ولكنى اشعر بقوة تشدها
أما قلبى ! فانه ليتقطع حزناً وهلعاً
ومع ذلك أندفع بقوة فى طريق المظلم . . .

يغمرنى ظلام مخيف ، وتلفحنى ريح عاتية
يدمى الشوك قدمى ، وأتعثر فى سيرى
يهزنى الألم ، وتفيض دموعى بغزارة
ولكنى أتابع السير لأن ذلك الصوت الجبار
لا يزال يصرخ بى : فى طريقك إلى المجهول . . .

[دمشق] شحاده الخورى

رسالة

« ... قرأت ، كعادتى ، ما تفضلتم به على قراء العربية فى عدد أغسطس الأخير من مجلة «الكاتب المصرى» عن «الأدب بين الاتصال والانفصال» فكنت معجباً ، كعادتى أيضاً ، بهذا الأسلوب الرقراق الشفاف الذى يتناول مشاكل الفكر والحياة مترفقاً هادئاً ، فيوسع منها المضايق ، ويمهد العقبات ، ويجلو الغياهب ، وإذا الحياة على يديه جنة تشيع فيها الأنوار وتعبق الرياحين ، حتى ينقلب المرء بها ، عند نهاية المطاف ، إلى حالة من الوجود ، يتنفس فيها ملء رئتيه ناعماً مطمئناً . . .

« ولكن لى حول ذلك الموضوع ملاحظة أحس أن إغفالها لا يرضيك ، بل يغضبك ، بل تجد فيه ضرباً من المصانعة ، ما زلت

يحمل عليها وعلى مصطنعيها ، فى كل فصل من فصولك النقدية التى تمور بحب الحقيقة والدعوة إلى خدمتها إن فى « حديث الاربعاء » وإن فى غيره .

« أما هذه الملاحظة فهى أن « وضع » المشكلة التى عرضت لها فى حديثك الشيق عن اتصال الأدب بالحياة الواقعة وانفصاله عنها ، جاء مغلوطاً . لأن صلة الأدب بالحياة قضية مفروغ منها ، فهى من الوضوح والبساطة بحيث لا تحتاج إلى نقاش وتقرير . فالأديب كائن حى يتأثر كغيره من الكائنات الحية بما يعتمل فى كيانه من جهة ، وبما يجرى فى محيطه من جهة أخرى ، وكل ميزته أن يعبر - مضطراً أغلب الأحيان - عن تأثراته بطريقة من الطرق !

« وحقيقة المسألة كما أحسب ، هى هذه الظاهرة فى طبيعة الأدباء - لا فى الأدب - التى وصفتها عند ذكر أبى العلاء بكلمة « وحشية » . فان أكثر الذين حفظ التاريخ أسماءهم من الأدباء والمفكرين ينزعون إلى العزلة ، ويتبرمون بالناس ، ويتحامون ولوج الحياة العملية وشؤونها المباشرة ، ويلقون متعتهم الكبرى فى التأمل الصامت . وقد لخص هذه الطبيعة شاعر قديم بقوله :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

« ومن شأن هذه الطبيعة التى تنتظم الكثرة الساحقة من رجال الفكر والأدب أن تخلق الريب فى نفوس الجمهور وتمنعه من تفهم ما يلقى إليه من المعانى والأفكار ، فيأخذها على أنها محض خيال أو نتيجة شذوذ ، ويتجاوزها إلى ما اعتاد من حياته الخاصة وموحياتها الهزيلة . وهكذا تتسع الشقة بين الأدباء والحياة الواقعة وتزداد توتراً يوماً عن يوم ! هذا ما حدث لأفلاطون فى فجر التاريخ العقلى ، وهذا ما حدث لجان جاك روسو ، وهذا ما حدث للمعرى ، بل هذا ما يحدث اليوم لكل شاعر وأديب ومفكر .

« وكان المفكرون من قبل والأدباء ، يناضلون ويحرصون على رفع الجماهير إلى مستواهم الفكرى دون أن تستنزلهم الشهوات إلى مستوى الجماهير ، وكانوا يلقون فى هذا السبيل من عنت الحكام وجور الأيام قاصمات الظهور . ولكن المرحلة الراهنة من تطور الانسانية أغرت معظم أدبائها بالمظاهر فوقفوا عن النضال ، وحسبوا أن فى الصحافة والجوائز والمناصب تقديراً صحيحا ، وأن فى تأليف الكتب ونشر المقالات صيغة النضال المثلى . . . وهذا يعنى أنهم نزلوا عن رسالتهم ، وانتقضوا على تاريخهم ؛ فليس ثمة من سقراط يجوب الشوارع ويحتك بالعامة يهديها ، ولا من أريحى يقوم اعوجاج السلطان بحد السيف إذا اقتضى الأمر ، ولا من معرى يحتمل الأذى وينافح عن الحق ويبحث عن الحقيقة !

« فأديب اليوم بين أمرين أحلاهما مر : إما أن ينخرط فى الحياة الواقعة ويفند رسالته ، وإما أن يعتزل فلا يستطيع تأديتها .

« هذه هى المشكلة الحقيقية التى تهز عالم الأدباء اليوم . هذا هو وجهها الصحيح ، وهذا ما أرجو أن تعالجوه فى المستقبل . »

[لبنان] عبد اللطيف شراره

شهريات

شهرية العلم

ثعبان البحر

عاش القدماء فى جو الأساطير ، وكان هذا هو العلم وقت ذاك ، إلى أن جاءت البحوث العلمية الحديثة ، فطهرت بعضها من الشوائب وقضت على البعض الآخر ، وخلفتها بعد ذلك للأدب . ولما كان العلم كريما لا يهاجم ، فقد أبقى على أسطورة ثعبان البحر ، التى شغلت أذهان المفكرين وما زالت محل عنايتهم ، حتى تنتهى بحوثهم الحديثة منها . ولقد لعب الخيال دوراً كبيرا مع ثعبان البحر ، فكثرت حوله خرافات لا يستسيغها عقل ولا يهضمها منطق ؛ فقد روى بعضهم أنه رأى ثعبانا من هذه الزواحف طوله مائة قدم وله رأس فى حجم البرميل . ومما يقيم دليلا على عدم صدق هذه الرواية أن ثعبان البحر على هذا النحو من المبالغة فى الطول لم يعثر عليه حتى الآن ؛ لأن الزواحف البحرية العظيمة قد انقرضت منذ أمد بعيد لم يشهده إنسان .

ومن العجيب ان هذه الخرافات ما زالت تحتل مكانا لائقا فى أدمغة البحارة ، ولم يتعرض لها العلم بشىء من التكذيب ما دام البحث وراء هذا الثعبان جاريا . ونستطيع أن نقرر أن روايات هؤلاء البحارة نشأت من رؤيتهم بعض الأسماك الطويلة التى تظهر عادة فوق سطح الماء مثل السمكة المجدافية والشريطية . ونظراً لندرة هذه الأسماك فقد اعتبرت من أسماك القاع رغم بهاء ألوانها ؛ فقد عنى الشعراء بوصفها ونعتوها بلؤلؤة البحر . ويبلغ طول هذه الأسماك ستة أمتار ، وهى تشبه الشريط ولها القدرة على تخزين الهواء فى عضلاتها وعظامها كما أن جلدها قابل للتمدد . وعند ظهورها على سطح الماء لا يبين منها إلا رأسها وجزء من زعنفة الذنب ، فهى فى هذه الحالة أشبه ما تكون بالثعابين ، وقلما تقع فى الشباك سليمة ؛ لأن جسمها الطويل الرفيع يهشم بعضه عند ما يمسك الصياد السمكة ، وذلك لتصلبها نتيجة لتمدد الجسم بما فيه من هواء . وتستطيع هذه السمكة الخروج إلى البر والمكث فيه بضع ساعات .

والواقع أن ثعبان البحر موجود فيه ، وأن ما عثر عليه حتى الآن لا يزيد طوله على أربعة أمتار . وهذه الثعابين توجد عادة فى جماعات كبيرة ، وقد تسير فى خط مستقيم ؛ حتى إذا ما رأتها البحارة حسبتها ثعبانا واحداً له هذا الطول الذى زعموه . ولهذه الثعابين رئات كبيرة فيملؤها الثعبان بالهواء ويسد أنفه وينام على سطح الماء وقتا طويلا ، حتى إذا أحس مفاجأة أفرغ الهواء من رئتيه وثقل جسمه وهبط إلى القاع . وهو يستطيع المكث طويلا تحت الماء ؛ لأنه يتنفس الهواء الذائب فيه بواسطة الشبكة الدموية الموجودة فى اللثة . ومما لا شك فيه أن هذه الثعابين كانت برية ، ويدلنا على ذلك وجود الصفائح البطنية فى بعض الأنواع التى لا تزال تصعد إلى اليابس وتزحف عليه .

وتعود إلى البحر بريشته فهو ما يزال يعمل فى هذه الزواحف الخطرة ، فضمرت منها الصفائح البطنية ، وانمحت فى أنواع كثيرة من هذه الثعابين ، وتفرطح منها الذنب وأصبح كالزعنفة ليساعدها على العوم ، حتى أصبحت لا تستطيع العيش على اليابس فتموت بعد مدة ليست بالقصيرة إذا خرجت منه ، كما هو الحال فى الحوت أو القيطس. وكثيرا مايقذف البحر بعد هياجه بآلاف من هذه المخلوقات السامة إلى الشاطئ ، فتموت هذه الثعابين وترتاح أحياء البحر من شرورها . وقد يساعدها الحظ فيأتيها الموج ، ويأخذها مرة أخرى إلى البحر بعد أن يتعذر عليها الزحف فوق الرمال . . .

وتلد هذه الثعابين صغارها فى الماء . ولهذه الصغار القدرة على العيش بمفردها ، ولو أن الأم تعتنى بها فترة من الزمن وتحميها . وهذه الثعابين ليلية أى أنها تندس فى الشقوق نهارا حتى إذا ما غربت الشمس خرجت تبعث الرعب بين ساكنى البحر وعماره . وهى كغيرها من الثعابين البرية كالناشر والبخاخ تقتل الفريسة بسمها وتبتلعها من رأسها ، وبذلك تستطيع أن تأمن أشواك الزعانف . وسم هذه الثعابين قاتل كذلك للانسان ، فقد حدث أن بحارة إحدى السفن أمسكوا واحدا منها وراحوا يلهون به ، فلدغ أحدهم فى سبابته فلم يهتم بهذا الحادث لأنه سمع من أحد الوطنيين فى بوغاز ملقا أن تلك الثعابين لا تضر أحدا وأنها ليست سامة ، وبعد نصف ساعة على الحادث تناول البحار فطوره وغير ملابسه وصعد على ظهر السفينة يمرح ويمزح ولم يشعر بأى تغيير على صحته . وبعد ساعتين سقط مغشياً عليه وضعف نبضه واتسعت حدقتاه وتصبب جسمه عرقا باردا ، وبدا وجهه كأنما حل به خوف ، وأصيبت القصبة الهوائية بشلل تعذر معه التنفس إلى حد كبير ، وتورم مكان الجرح وما جاوره ، وعم الورم الذراع حتى الرقبة وتلون الوجه بلون أرجوانى قاتم . وحاول طبيب الباخرة محاولات عدة مخفقة فى إعطائه أدوية ، ولكن المريض استطاع أن يتناول شيئاً منها بعد حمام ساخن ، ثم لفظ هذه الأدوية على شكل سائل داكن لزج . وبعد عشرين دقيقة اعترت جسمه هزات عنيفة ، وعم الاحتقان البطن كله ، وأصبح التنفس شاقا ، وأرغى الفم وفقد المريض وعيه تماما ، وقضى نحبه ولم يمض على الحادث أربع ساعات .

حسين فرج زين الدين

شهرية السياسة الدولية

مؤتمر الصلح

أهم حادث وقع فى ميدان السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى إنما هو انعقاد مؤتمر الصلح فى التاسع والعشرين من شهر يوليه لسنة ١٩٤٦ . ولقد كان هذا الانعقاد مقرراً بمن يحضره من الاحدى والعشرين دولة ، فى اجتماع للاقطاب الثلاثة فى موسكو ، وكانت مهمته النظر فيما سيعرض عليه وزراء الخارجية الأربعة من مشروعات معاهدات الصلح مع « الأعداء » ، فيبدى فى اجتماعه التمهيدى ملاحظاته ، ثم تبلغ هذه الملاحظات إلى مجلس أولئك الوزراء ، ثم تستأنف دعوته للتوقيع على المعاهدات .

وكان المتفاهم عليه أن الدول المدعوة إليه لن تشترك كلها فى بحث جميع مشروعات المعاهدات ، ولكنها ستوزع على هذه المشروعات بنسبة إعلانها الحرب وقيام حالتها بالفعل مع الدولة التى ستوصل المعاهدة إلى إقرار السلام معها .

ولم تنته بعد أبحاث معاهدات الصلح مع النمسا ومع ألمانيا ، واذن فالمعروض على المؤتمر فى اجتماعه الأول انما هو البحث فى شأن مشروعات معاهدات الصلح مع ايتاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندة .

ولم تكن الدعوة الموجهة لحضوره إلا إلى الدول التى حكم « الاقطاب الثلاثة » أو « الدول الأربع » — بريتانيا العظمى ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى وفرنسا — بأنهن قد قاموا بواجب مادى واسع المدى فى الحرب ضد الأعداء . فتقدمت دول أخرى قالت إنها قد قامت بهذا المدى وطلبت أن تحضر المؤتمر ، وهى ألبانيا ومصر والمكسيك وكوبا . وقد انتهت مناقشات طويلة إلى قبولهن جميعاً لا كأعضاء فى المؤتمر يتناقشن فى قراراته ويصوتن على صدورها ، ولكن كمقبولات تتقدم كل واحدة منهن بالادلاء بملاحظاتها فى الموضوعات التى تتصل بمصلحتها القوية .

وقبل أن يتناقش المؤتمر فى مشروعات المعاهدات ، وأول هذه المشروعات هو مشروع معاهدة الصلح مع ايتاليا ، تناول بالبحث النصاب الذى سيتم عليه صدور القرار من المؤتمر : هل يكون هو نصاب الثلثين أو هو نصاب الكثرة المطلقة ، الأربعة عشر صوتا فى الحالة الأولى ، والأحد عشر فى الحالة الثانية ؟ وكان مجلس وزراء الخارجية الأربعة قد قرر بالاجماع نصاب الثلثين ، ولكن جاء المؤتمر يعارض هذا النصاب بنصاب الكثرة المطلقة . وأحست روسيا أن هذا التيار الجديد ضدها ، وكانت تحسب أن معها سبعة أصوات غير صوتها فلا يمكن أن يعقد نصاب الثلثين إلا بواحد من هذه الأصوات المكونة للكتلة السوفيتية . وحمل مندوب أستراليا على نصاب الثلثين ، وبعد مناقشات اشتدت فيها التعبيرات وافق المؤتمر على اقتراح بالتوفيق بين الاتجاهين : « أن يعرض على مجلس وزراء الخارجية القرارات الصادرة من الثلثين والقرارات الصادرة من الكثرة المطلقة العادية لينظر فى نوعيهما معا . »

ولكن المناقشة التى جرت حول هذا الاجراء التمهيدى قد كشفت ما بين الجهتين الانجلوسكسونية والسوفيتية من خلاف .

ولعل الناحية الانجلوسكسونية كانت قد بيتت هذا الموقف ؛ لانها نصحت لمستر بيفن وزير خارجية بريتانيا العظمى ألا يحضر ذلك القسم الأول الذى سيناقش فيه المؤتمر فى هذا الاجراء . وقد شاءت انجلترا أن تضع الخلاف صارخا بين الدولة الأميريكية والاتحاد السوفيتى ، فناطح مستر بيرنز وزير خارجية الولايات المتحدة مستر مولوتوف وزير الخارجية السوفيتية ، ودعت أستراليا نفسها لمناصرة أميريكا ، ولم تتدخل انجلترا إلا عند الضرورة القصوى . ولو كان مستر بيفن حاضرا ، وهو لا يمتلك أعصابه إذا وقف أمامه الرفيقان مولوتوف وفيشنسكى ، لكان موقف انجلترا هو الذى يكون فى الصف الأول من المعارضة للاتحاد السوفيتى .

ويلوح أن السياسة الانجليزية العليا تريد أن تترك الولايات المتحدة تخاصم روسيا، وتتدخل انجلترا فى الوقت المناسب للتوفيق ، وذلك للاستفادة من الجانبين .

وعلى أى حال فقد تجلى هذا الدور الاجرائى الأول عن تضامن الأسرة الأنجلوسكسونية فى الحظيرة الدولية .

القضية الفلسطينية

وقد تميز هذا التضامن فى القضية الفلسطينية على الرغم من خلاف على السطح ليس غير . فمنذ عرفت انجلترا خلال تصريحات صدرت من الحزبين الجمهورى والديموقراطى الأميريكيين أن اليهود شأنا عظيما فى الانتخابات الأميريكية حاولت استقلال هذه الظاهرة بدل أن تدعها تضغط على السياسة الانجليزية فى فلسطين . فوجهت بريتانيا العظمى اهتمام الولايات المتحدة إلى الاشتراك فى اللجان التى تؤلف للتحقيق وللتوصية بخصوص النظام الجديد فى فلسطين، وتركتها تعنى بالناحية الاقتصادية ، استدراجا لها فى الناحية العسكرية ، وهى تميل إلى جعل فلسطين ، بعد أن داهمتها ملابسات مصر والعراق ومواقف سوريا ولبنان ، منطقة استراتيجية لها فى الشرق الأدنى . وقد انتهت فى توصيات لجان الخبراء إلى تقسيم فلسطين إلى أربع مناطق : يهودية وعربية ، وقدسية ، ونجفية . والمفهوم من اليهودية أنها تكون دولة يهودية فى الاتحاد الفلسطينى، ومن العربية أن تكون الدولة العربية فيه ، والقدسية أن «تكون المركز الانتدابى» البريتانى ، وأن تكون النجفية هى المنطقة الاستراتيجية ، وستوضع فيها جميع الثكنات ، وتوضع فيها جميع المطارات . وهى واقعة بين مصر وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية والعراق ذاته ، وقريبة جداً من سوريا ولبنان . وستكون هى كذلك على مقربة من أنابيب البترول المخترقة شرق الأردن وفلسطين والتى ستعبر قريباً من الحجاز إلى البحر المتوسط ، وإذن فأنابيب الانجليز وأنابيب الأميريكان ، وأولئك وهؤلاء مشتركون فى أكثر من شركة استثمار آبار البترول فى هذا الشرق الأوسط ، وأغلب الظن أن الرئيس روزفلت كان قد وعد الملك عبد العزيز آل سعود بعدم إدخال تغيير على نظام فلسطين قبل أن يستشير العرب . وها هى ذى اجتماعات بلودان فى أوائل هذا الصيف قد انتهت إلى أن طلبت الدول العربية الدخول فى مفاوضات مع انجلترا لهذا التغيير ، فجاءتها الدعوة إلى هذه المفاوضات . وقد سبقتها تصريحات وزير بريتانى مسئول أمام مجلس العموم أنها ستقوم

على أساس تقسيم فلسطين . وسيذهب ممثلو العالم العربى إلى لندن قريباً للاستشارة consult بعد أن كان وارداً فى الكتاب الأبيض الرسمى الصادر من انجلترا فى سنة ١٩٣٩ أن التغيير لن يكون إلا بموافقة العرب consent. واغلب الظن أنهم لن يوافقوا على التقسيم .

ولكن قد تمت إجراءات استشارتهم ، وإذن فسيكون تغيير النظام الفلسطينى على قاعدة التقسيم التحالفى . وهذا الذى سيكون إنما هو بتضامن الانجليز والأمريكان فى الشرق الاوسط ، وهو جزء من تضامن الدولتين البادى فى مؤتمر الصلح .

إيران

وكذلك يمتد شىء من « الالتهاب » بين السكسونية والسوفيتية فى جنوب إيران . فقد قامت إضرابات فى معامل الزيت الانجليزية ــ أو الانجلوسكسونية ــ فى جنوب إيران . فرأت إنجلترا أن هذه الاضرابات تدخل فيها اعتبارات سياسية آتية من جانب أنصار روسيا فى إيران وهم حزب تودة الذى قام بما قام من أعمال فى أذربيجان الايرانية . فأرسلت مدرعات إلى الخليج الفارسى أوقفتها خارج المياه المحلية ، وبعثت بجنود هنود من الهند إلى البصرة ، وهددت بانزال هذه الجنود إلى الأراضى الايرانية ، وبعثت حكومة طهران إلى حكومة لندن بالاحتجاج .

ومسألة تلك المنطقة الموجودة فيها معامل الزيت الانجليزى كانت لها تطورات طريفة . ذلك أن تلك المنطقة كانت تابعة للدولة العلية ، وأهلها من العرب ، وكانوا تابعين من قبل لولاية من ولايات العراق ، وكانت إنجلترا تعرف أن فيها آبار زيت يمكن استثمارها ، وكانت تركيا ترفض إعطاء امتياز البحث عن آبار الزيت فى أقاليمها إلى أجانب ، فدارت المداورات الانجليزية بين الآستانة وطهران ، وجعلت بعض الانجليز يقيمون فى بعض المناطق الجنوبية والشمالية فى إيران . وعقدت اجتماعاً رباعياً بين إنجلترا وروسيا وإيران وتركيا ، وهى فى ذلك الوقت ، نحو سنة ١٩١٠ ، تتفاهم مع روسيا على تحديد مناطق النفوذ فى إيران فتترك لروسيا الشمال وتختص بالجنوب . وانتهى الاجتماع الرباعى إلى تعديل بعض التخوم بين الدولتين الايرانية والعثمانية ضمت بمقتضاه المنطقة القائمة فيها الآن آبار الزيت الانجليزى فى جنوب إيران إلى إيران بالذات . ونالت إنجلترا ، أو شركتها الانجليزية ، امتياز البترول فى تلك المنطقة الايرانية الجديدة ، وقام العمل فيها على أكتاف السكان العرب .

وتريد إنجلترا فى هذه الأيام أن تحفز العرب من أهل هذه المنطقة ، وهم سكانها الأصليون ، إلى أن يطالبوا بالالتحاق بالعراق ، أو على الأقل بالاستقلال الذاتى على غرار ما كان أهل أذربيجان يطالبون به من شهور ، وإذن تحظى هى وحدها بالانفراد فى إدارة المنطقة مباشرة وبواسطة العراق إذا شاءت . . . وهذه هى قصة جنوب إيران ونزول قوات هندية فى البصرة . . . وسنرى ما سيطرأ عليها من تطورات .

المضايق

ويلوح فى الأفق إشكال المضايق بين روسيا وتركيا ، بل بين روسيا وإنجلترا . وينظم أحوال المضايق من الجهة الدولية اتفاق مونترو الذى عقد فى سنة ١٩٣٦ لمدة خمس سنوات تجدد من تلقاء نفسها إذا لم تطلب غير ذلك إحدى الموقعات على هذا الاتفاق عليها قبل انتهاء فترة الخمس السنوات . وكانت هذه المسألة قد أثيرت بين اجتماعات من الأقطاب الثلاثة ، فتم التفاهم فى بوتسدام على أن كلا من الدول الثلاث العظمى تتقدم إلى تركيا بمذكرة خاصة بمطالبها . وقد تقدمت الثلاث الدول بمطالبها فى الموعد المحدد قبل انتهاء هذه الخمس السنوات الثانية منذ أيام . والمفهوم أن المذكرة الروسية راغبة فى أن يكون الاشراف على الملاحة بين البحرين المتوسط والأسود ، مقصوراً على الدول التى لها شواطئ على البحر الأسود ، وهى روسيا ورومانيا وبلغاريا وتركيا . وكذلك طالبت بمنحها قواعد بحرية وجوية وبرية على الدردنيل بمجموع مساحتها نحو ٩٠٠ فدان ، وتخويلها حق إنشاء مطار ، مشترطة ألا يكون عدد القوات أو السفن الروسية فى تلك القواعد محدوداً ، على أن تؤيد روسيا فى مقابل ذلك استقلال تركيا ، وتضمن لها حقها فى الدفاع المشترك عن المضايق.

ومعنى هذا إبعاد انجلترا واليونان ويوجوسلافيا وفرنسا واليابان اللاتى هن موقعات على معاهدة مونترو .

ويغلب على الظن أن روسيا تتقدم بمثل هذه المقترحات التى تعرف أنها غير مقبولة من تركيا ، مقابل ما لانجلترا فى قناة السويس من مركز ممتاز فى حدود سنة ١٩٣٦ . وهى ستطالب بمقتضى تلك المقترحات بامتيازات فى مواضع أخرى من العالم ، ولا سيما فى البحر المتوسط بعد أن وقفت انجلترا وأميريكا موقف المعارضة من اقتراحها الخاص بطرابلس وبجزر الدوديكانيز .

محمود عزمى

شهرية الفن

تصاوير أطفال

ماذا عليَّ إن قلت لك إنى أصبحت اقصد إلى معارض الفن فى مصر . ولا سيما المعرض السنوى أيام الربيع ، وأنا كاره مكره . أما أنى مكره فلأنى لا بد لى ، من جهة المبدأ ، أن أتابع القرائح وأساير المنازع ؛ وأما أنى كاره فلأنى لا أجد فى تلك المعارض شيئاً يأخذنى أو ينبئنى بأن مصوراً نبغ وأن فناناً جمع لمحات لمخيلته وشق مسالك لريشته . وليس فى تلك المعارض ما يخرج عن المستوى السائد ، وهو مستوى متثاقل . أجل ! إنك لتصيب معرفة بأصول الرسم ، وبصراً ببسط الألوان ، ودقة فى محاكاة الواقع . ولكنك لا يهتز شعورك لمعنى دفين ، ولا يسرح خيالك مع رؤيا من الرؤى الشوارد ، ولا يدهش عقلك إزاء طريقة من طرائف الأسلوب . حتى المبرزون من المصورين — ولا يزيدون على أربعة أو خمسة — تراهم اليوم كأنهم ثابتون حيث ابتدأوا ، والثبوت فى الفن من هرب القريحة وجمود الشخصية .

إن صناعة التصوير عندنا فى أول نشأتها ، وليس لها تقليد ترجع إليه أو تعول عليه . ومن هنا ضعفها . وهنالك سبب آخر أبعد خطراً وأشد فعلا ، وإن لم يعالج شأنه ظل التصوير عندنا فاتراً او ساقطاً . وهذا السبب يتلخص فى طغيان « القواعد » على « القرائح » أى فى غلبة الأصول الموضوعة للرسم والتصوير على لطائف الاحساس ولوامع المخيلة تعقبهما وثبات الريشة على الورقة أو اللوح .

هـذا الطغيان وتلك الغلبة لم أجدهما فى معرض مستطرف حقاً ، هو معرض تلاميذ المدارس الأولية وتلميذاتها فى الاسكندرية وهو المعرض الأول من نوعه ، دام من اليوم العشرين إلى الثلاثين لشهر يونيه من هـذه السنة .

ساقنى إلى هـذا المعرض الصديق المصور البارع محمود بك سعيد ، ولولا اطمئنانى إلى ذوقه ما ذهبت ؛ فقد كانت نفسى تحدثنى أنى سأشاهد تطبيقات لـ « علم الرسم » فشدما دهشت حين تصفحت التصاوير وفرزتها ! ذهبت إلى المعرض مرة وثانية وثالثة لأستمتع بالطرافة والطراءة . فقد أصبت تمثيلات قد أفلتت من قيود الأصول المحكمة وتخييلات نجت من الأوضاع المضبوطة . وجـدت نفسى بين يدى الغريزة الطافرة والخاطر المبتكر ؛ وإنما هـذا باعث الفن وتلك مادته (أنظر شكل ١ ، ٢ ، ٣) (١)

سيثور بعض القراء ، وبخاصة من له إقبال على التصوير أو به انعطاف إلى الفن ، فيقول : ألم تر إلى هذه الأخطاء البديهية فى التخطيط والتجسيم ! أو لم تفطن للجهل بمبادئ « المناظرة » ! ثم كيف أعجبتك هـذه الوسوسات والتعتهات extravagances وهذه التلفيقات والمتناكرات incohérences ؟ إنما أولئك صبية يعبثون ويمخرقون .

كلا ! ماهم بالعابثين ولا بالمخرقين . هم يرقمون على الورق ما يدور لهم من اللوائح

---

(١) صورها بالفوتوغرافية الاستاذ على رضا . وقد اقتنى الصورة الثانية محمود بك سعيد ، والصورة الثالثة السيد زهار ، والصورة الأولى صاحب المقال .

والأفكار ، ولا تضييق من جهة الخط لذى يجب أن يكون مستويا ، والنقل الذى ينبغى له أن يكون أمينا ، والأسلوب الذى لا يقوم إلا إذا أحكم ، والصبغ الذى لا يحسن إلا إذا فتن . هم على بداهتهم وسذاجتهم primitifs . ومن هنا ظرافة تفكيرهم وطرافة تعبيرهم ، ومن هنا ، قبل كل شىء ، تلك الشخصية النقية التى كأنها تقفز من مطاوى الصورة . وهل ننسى أن من هذه الصفات ما أنال التصاوير الاسلامية العربية شهرتها ؟ وهى التصاوير المنسوبة إلى مدرسة بغداد ، والتى بها تتحلى مخطوطات من مقامات الحريرى وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الأغانى وغيرها ، مبثوثة هنا وهناك فى المتاحف والخزانات الوطنية .



شكل ١ : زيارة
فى معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية فى الاسكندرية (١٩٤٦)

هل أخبر المعترض أن أعلاما من التصوير الغربى الحديث جعلوا همهم الرجوع إلى البداهة والسذاجة ؟ حسبى أن أذكر ثلاثة لا يجهلهم أحد ممن له اطلاع على مناحى التصوير ؛ أذكر هنرى ماتيس Henri Matisse الفرنسى ، وراؤل دوفى Raoul Dufy الفرنسى ، ومارك شاجال Marc Chagall الروسى اليهودى : أما ماتيس (أنظر شكل ٤) فقد عدل عن التعاليم الجافة l'académisme وركض يبحث عن الفطرة يستردها حتى نجا مما هو متسق وبلغ ما هو بسيط ، فاستطاع أن يهمل الطوارئ والاضافات ليقبض على الجوهر الخفى والمعنى الخالص . وأما دوفى فنبذ المهارة إيثاراً لطريقة الجهلة بقواعد الرسم ، حتى إنه كان يخطط بيده اليسرى ، وكان لا يعبأ بمطابقة المواقع ؛ إذ كان يقول : « ما الطبيعة سوى افتراض » . وأما شاجال (أنظر شكل ٥) فهو المنطلق من الدنيا التى تضرب فى جنباتها إلى عالم موهوم كله رؤى فيها الغريب وفيها الشاذ ، لا يحبسها العقل فلا يدركها ، ولكن يتفهمها الاحساس الفياض .

هؤلاء الثلاثة وأمثالهم يلتقون بالأطفال على وجه العموم فى ميدان البساطة الفطرية وإهمال الواقع والشرود مع الخاطر (وازن رقم ٢ برقم ٤ ورقم ٣ برقم ٥) .

بقى أن أقول كلمة فى مذهب هذه التصاوير ، فلتكن مختصرة حتى أعود إليها فى بحث طويل : لا أشك بعد التأمل والتبصر أن هؤلاء الأطفال عمدوا من طريق الوراثة وبفضل البديهة إلى الأسلوب الشرقى فى التمثيل . وهذا الأسلوب نشأ منذ القرون المسيحية الأولى فى سورية والعراق وفلسطين ، ومنها امتد إلى آسيا الوسطى من جهة وإلى مصر من جهة أخرى حيث زحم المذهب الهلينى . وأول مظهر

لهذا الأسلوب تلك التصاوير التى كانت تعلو جدران الكنائس فى فلسطين والعراق وصحراء لوبيا ، ومثل التزاويق التى تضمها أناجيل ومزامير مخطوطة فى الديارات العراقية والشامية والمصرية . وقوام هذا الأسلوب — فى الجملة — التعبير القصصى narratif الذى يعنيه ما فى النفس من مجاهدات dramatique ثم التأليف الذى لا يبالى بالمطابقة والتشاكل assymétrique .

وبعد فلا يسعنا إلا أن نشكر للذين قاموا بهذا المعرض اللطيف تلك المتعة التى هيأوها لنا ، وأن نهنئ التلاميذ والتلميذات ونهنئ معلميهم . وإنى لأرجو من هؤلاء ألا يذهبوا بطراءة أولئك الصبية ، وألا يحدوا من قرائحهم ، ويبطئوا من خواطرهم ، وهم يلقنونهم الأصول والقواعد . بل يحسن بهم ان يتركوا للبديهة ، سواء كانت واعية أو غافية ، منافذها ومسالكها بل مقافزها ، حتى يخرج إلينا بعد حين أصحاب فن حى طريف مستمد من تقاليد بلدية . ولن نبالى إذن هل هو سار على نظام المرئيات موافق لتفاصيلها ، وهل هو محكم السبك متشاكل الأجزاء . فليس من هم الفن الصحيح محاكاة الواقع ولا تنسيق الحياة . ومن ذا الذى يستطيع أن ينسق الحياة وكلها اضطراب ! وأما الواقع فمظهر يحف به الشك .

بشر فارس

ملاحظة

تجد الأشكال ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥
فى الورقتين المصقولتين فى هذا العدد

شهرية المسرح

مسرحيات جان أنوى

لم يكن جان أنوى مجهولا قبل الحرب ، ولكنه لم يكن يستمتع بالتقدير الذى تظهره له كثرة الشعب الفرنسى ، كما أنه لم يكن يشغل المكانة الرفيعة التى يشغلها الآن بين كتاب الملعب الفرنسى . فما مصدر هذا الفوز الذى أتيح له الآن ؟ مصدره أولا أنه شغل الفراغ الذى أحدثته وفاة جان چيرودو الذى يؤثر فيه أحيانا بظرفه وخفته وإن لم ينتسب هو فى صراحة إلى مذهبه . وثانياً لأن قصته الأخيرة « أنتيجون » قد جاءت فى الوقت الذى كانت فرنسا تخضع فيه لمحنتها القاسية إذ كان الصراع بين هذه الفتـاة من أميرات ثيبا وبين خالها الطاغية كريون مذكرا للباريسيين بما كان بينهم وبين العدو المحتل لمدينتهم من صراع اثناء ظفره المؤقت .

وقد عرضت فى أول الشتاء الماضى على الباريسيين قصتان مختلفتان لجان أنوى . فبينما كان ملعب لا تيلييه يدعو إلى شهود الحفلات الأخيرة لتمثيل « أنتيجون » كان ملعب كوميديا الشانزيليزيه يدعو إلى شهود تمثيل « النافرة » للمرة المتممة للثلثمائة . وكان المقرر أن يفتتح مؤتمر الصلح فى الخامس عشر من شهر يونيو الماضى فى باريس ، فأعد الفرنسيون لهذه المناسبة ضروبا من الحفلات كان من بينها أن استأنف الملعب الصغير فى ميدان دنكور تمثيل مسرحية « أنتيجون » . وقد شهد أهل القاهرة هـذه « المأساة » فى الفصل التمثيلى الأخير ، عرضتها عليهم فرقة تمثيلية فرنسية فيما عرضت من المسرحيات التى تحدثت عنها هذه المجلة (١) .

وليس من البعيـد أن يشهد القاهريون فى الفصـل المقبل ملهاة لجان أنوى ، إن تحقق ما يقال من أن فرقة تمثيلية فرنسية ستزور مصر فى الشتاء .

وقد نشرت دار كالمان ـ ليفى أخيراً القصص التمثيلية لجان أنوى فى مجلدين : جمع أحـدهما « المسرحيـات السوداء » وهى : « الهرمين » (١٩٣١) ، و « النافرة » (١٩٣٤) ، « والمسافر بغير متاع » (١٩٣٦) و « أوريديس » (١٩٤١) ؛ وجمع ثانيهما « المسرحيات الوردية » وهى « مرقص السراق » (١٩٣١) التى يسميها الكاتب « ملهاة راقصة » و « موعد سان ليس » (١٩٣٧) و « وليوكاديا » (١٩٣٩) . فأنت ترى أن الكاتب قد عنى بالتمثيل منـذ منذ وقت طويل وأنه كاتب خصب ؛ فاننا إن أضفنا إلى هذه القصص قصة « أنيتجون » كان إنتاجه قد منح الملاعب ثمانى قصص فى خمسة عشر عاما .

وقبل أن نعرض لدرس هذا الانتاج الضخم يحسن أن نلاحظ أن جان أنوى قد أتيحت له الممثلة البارعة التى تترجم عنه فى توفيق عظيم وهى مونيل ڤالنتان زوجه . وهى التى ابتكرت شخص أنتيجون ومثلت دور تيريز فى قصة « النافرة » . ونلاحظ أخيراً أن الكاتب يهيئ الآن ملهاة جديدة عنوانها « روميو وجانيت » وقد أعلن أن لا صلة بين هذه القصة وبين قصة شكسبير .

---

(١) بالكاتب المصرى عدد ٥ (فبراير ١٩٤٦) و ع د ٦ (مارس ١٩٤٦) .

وستعرض هـذه القصة فى ملعب لاتيليبه حيث عرضت قصة « أنتيجون » وسيخرجها المخرج الشاب أندريه برساك تلميذ جاك كوپو.

وليس يكفى لتعليل ما أتيح لهذا الكاتب من نجاح ما قلناه من أنه ورث چيرودو فى نجاح متفاوت ، وأن « أنتيجون » قد ظفرت بفوز عظيم لأنها وافقت الواقع من حال الفرنسيين . بل هناك علة ثالثة لهذا الفوز وهى توضح آثار الكاتب كلها توضيحاً كافيا . فمسرحيات جان أنوى مرآة صادقة دقيقة للحياة اليومية كما يحياها ويشعر بها عدد ضخم من أوساط الفرنسيين المعاصرين ، أو بعبارة أدق كما كان الفرنسيون يحيونها منـذ عشر سنين . فقد غيرت الحرب من أطوار الفرنسيين شيئا كثيراً ، فالأشخاص الذين يعرضهم علينا فى أكثر الاحيان من الطبقة المتواضعة ومن الذين يمارسون حرفا شاحبة منهم الموسيقيون الذين ينتقلون من مصيف إلى مصيف ؛ ومنهم الشبان الذين يتكلفون كثيراً من الجهد فى مغامرات غير ذات خطر ومنهم فى غير تحفظ « النشالون » الذين يجوبون الطرقات . وبراعة الكاتب تأتى من أنه يعرض هؤلاء الأشخاص على المسرح عرضاً حسناً ، ثم ينشئ الصلة بينهم وبين الطبقات التى مازال الناس يسمونها الطبقات العالية : فهنا دوقة شاذة تقدمت بها السن ، وهنا أمير شاب قد أيأسته الحياة ، وهنا أحيانا فتى من أبناء البيوتات الطيبة وإن كانت مثرية . وهى تحرص أشد الحرص على التقاليد والأوهام ، ومرة أخرى رجل خطير من رجال المال ، ومرة أخيرة رجل من رجال الفن الذين ظفروا بالثروة وعلو المكان . ينشئ الكاتب صلات بين هذه الطبقات المتباينة ، طبقات البائسين الذين لمحوا النعمة من بعيد ، وقد كانوا أخذوا بطرف يسير من التعليم ، فهم يحسون بشاعة البؤس ويتجرعون مرارة الشقاء ، وهم يعلمون أن الفقر مذل للنفوس ، ولكنهم يجدون على ذلك شيئا من الكبرياء يأبى عليهم أن يخرجوا من أطوارهم هذه الوضيعة ، وطبقات أصحاب الترف المغرق فى القحة الذى يظهر كأنه طبيعى لاتكلف فيه والذى يحمله أصحابه كما يحملون أنوفهم وما يكسو رؤوسهم من الشعر ، ينشئ الكاتب صلات بين أولئك وهؤلاء ؛ ومن هذه الصلات يستخرج المأساة . فأولئك وهؤلاء قبل كل شئ يبذلون جهوداً مشتركة لالغاء المسافة بينهم بحيث يفهم بعضهم بعضا ويلبس بعضهم جلود بعض . ثم تأتى بعد ذلك الاستحالة الطبيعية التى تمنع من تحقيق هذه المحاولة وتبين لهم جميعاً أن ليس من سبيل إلى أن يتفاهموا ولا إلى أن يمحى مابينهم من الفروق . ومن هنا يأتى التشاؤم الأساسى فى هذا الفن الذى يلائم عصره الذى ينشأ فيه . وقدكتبت هذه المسرحيات أو أكثرها بين الحربين ، فصورت حياة جيل من الناس لم تقسم له السعادة . وجان أنوى يرى السعادة شيئاً مستحيلا بل شيئاً ليس من المصلحة ارتقابه حتى تصيح أبرع بطلاته فى قصة « النافرة » بهـذه الجملة : « إنكم لتؤذوننى جميعاً بسعادتكم هـذه التى تسرفون فى ترديدها . كأن ليس فى الأرض شئ آخر يبتغى غير السعادة . »

وهذا النوع من التشاؤم يتصل فى الوقت نفسه بالحياة الخلقية والاجتماعية ، وهو يزحم آثار الكاتب حتى يوشك ألا يترك فيها موضعا للشعر وجمال الفن . ومن أجل هـذا لا يكاد الناقد يظفر بشئ إن أراد أن يمتحن من قريب أسلوبه الكتابى أو مذهبه التمثيلى . فما أسرع مايلاحظ أن الأسلوب مهمل . فالكاتب لا يزيد أن ينقل إلى المسرح لغة الحديث اليومى من ألفاظ دارجه ، وجمل عامة ، وعبارات مألوفة متداولة . أما الفن الدقيق فلا وجود له . فللكاتب حظ من مهارة فى

شكل ٢ : من الحياة المنزلية من معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية فى الاسكندرية (١٩٤٦)

شكل ٣ : رقص من معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية فى الاسكندرية (١٩٤٦)

أنظر مقال
بشر فارس
فى
شهرية الفن»
ن هذا العدد



شكل ٤ : المرأة ذات الوشاح الأسود من ريشة هنرى ماتيس (١٩١٨)

شكل ٥ : الحظيرة من ريشة مارك شاجال (١٩٢٦)

للملاءمة بين فصول القصة . ليس فى مسرحياته مناظر مختلفة وإنما ينهض الأشخاص بأدوارهم فى اطراد منذ تبدأ القصة إلى أن تنتهى . وهو على ذلك لا يأتى بشئ جديد . وأداته للعرض بسيطة جداً فى أكثر الأحيان : غرفة استقبال فى قصر ريفى ، مقصف فى محطة من المحطات ، زاوية فى حديقة من الحدائق . لا تأنق ولا ابتكار فى الأزياء ولا فى الأضواء ولا فى زينة الممثلين . وليست العقدة فى مسرحياته عسيرة ولا مختلطة . ومن أجل هذا لا يجد المتفرج مشقة فى حلها قبل أن يرخى الستار .

فهذا الكاتب أقل تفوقا من جان جيرودو ومن جان كوكتو بحيث نستطيع أن نقول إن جان الثالث لم يستطع أن يرد الابتسامة إلى الملعب كما فعل الأول ولا أن يجدد للمسرح فن العرض والاخراج كما فعل الثانى ، وإنما أنتج آثاراً قيمة ستظل شاهدة بهذا العصر المضطرب الحزين الذى أخذت فرنسا تخرج منه فى هذه الأيام .

مؤنس طه حسين

شهرية السينما

انطباعات من السينما المصرية

أخذت صناعة السينما فى مصر أثناء السنتين الأخيرتين تتسع اتساعاً أدهش الذين يهتمون بشؤونها لعلمهم بأن وسائل تلك الصناعة محدودة جداً. فالأستوديوهات قليلة، والممثلون قليلون أيضاً، والمخرجون الفنيون شئ نادر فى مصر. ورغم هذه الصعوبات وجدنا الشركات السينمائية تظهر الواحدة تلو الأخرى: فكل ممثل فى مصر له شركته السينمائية وكل مخرج له أيضاً شركته الخاصة. وقد رأينا الأفلام تملأ دور العرض حتى فرضت الحكومة على أصحاب الدور الأجنبية أن يعرضوا الأفلام المصرية وقتاً منظماً معلوماً. وقد يكون هذا الاتساع دليلا على ازدهار صناعة الأفلام. وقد يكون دليلا على ازدهار فن التمثيل أيضاً. إلا أننا لاحظنا أنه لا يقوم على إتقان ولا على جودة، كما لاحظنا أن الدافع إلى تكوين الشركات لم يكن إعلاء شأن الفن التمثيلى، وإنما هو الاكتساب من هذه التجارة المربحة. وقد نجم عن التنافس بين الشركات أن كثر إنتاج الأفلام كثرة لا تسمح للمؤلف ولا للمخرج ولا للممثل أن يتقن كل منهم فنه. فجاءت الروايات السينمائية ضعيفة قصة وإخراجاً وتمثيلا.

والمؤلف السينمائى فى مصر لا يفكر فى الابتكار والتجديد. وكيف يستطيع ذلك وهو يعلم أن الأدب الغربى غنى بالقصص، وأن الجمهور المصرى ليست له دراية تامة بهذا الأدب. فاذا أغار المؤلف على قصة غربية فلن يدرى بهذا إلا القليلون. وقد يكون فى الاقتباس من الأدب الغربى فائدة مزدوجة: فهو يلهى الجمهور ويثقفه، وهو يربح المؤلف ويثقفه أيضاً؛ ولكن إغارة مؤلفينا على القصص الغربية عدوان ينافى الحق والخلق أولا، ثم هو بعد ذلك يضر أكثر مما ينفع؛ لأنه يعطى الجمهور من الأدب الغربى صوراً مشوهة، وهو يشغل المؤلف عن إتقان فنه مع حاجته الشديدة إلى هذا الاتقان فالمؤلف يرى أن العبث بالفن والأدب ليس بشئ ذى خطر من جهة، وأنه — من جهة اخرى — أيسر من إجهاد العقل والخيال والقلم لانشاء قصة مبتكرة طريفة ترفع من شأنه ومن شأن فنه ومن شأن جمهوره.

ولست أدرى إلى متى يدوم هذا العبث، ومتى يشعر هؤلاء المؤلفون بأن للفن والجمهور حقوقاً يجب أن تحترم وكرامة يجب أن ترعى. أليس من الحق عليهم أن ينظروا إلى السينما على أنها وسيلة إلى الترفيه ولكنها فى الوقت نفسه أداة للتثقيف وإصلاح الذوق؟ وسبيل ذلك ألا ينزل الفن إلى ذوق الجماهير، وإنما يرفع ذوق الجماهير إلى حيث هو أو يلقاه على الاقل فى منتصف الطريق. ألم يأن لمؤلفينا أن يكفوا عن وضع أمثال هذه القصص: «ممنوع الحب»، «دموع الحب»، «الحب الاول»، «ليلى بنت مدارس»، «ليلى بنت الفقراء»، «ليلى بنت الريف»، «ليلى فى الظلام»، «الماضى المجهول»، «عودة القافلة» إلى غير ذلك من القصص الضعيفة التى ترمى إلى معالجة مشكلاتنا الاجتماعية فتخطئ السبيل إلى ذلك؟ فالمؤلف لا يترك للمشاهد أن يستنبط من الحوادث نفسها مغزى القصة، وإنما يلقى

عليه العظات بواسطة إحدى شخصياته . والعظات لا تجدى حينما تلقى فى شبه درس أو محاضرة فى الأخلاق ، وإنما تنفر منها النفوس ، وتضيق بها الأذهان .

وليس الحوار بأحسن حظاً من القصة . فالمشاهد يقاسى منه مثلما يقاسى منها . هذا إذا استثنينا الفيلم الوحيد الناجح فى هذا الموسم وهو « لعبة الست » للأستاذ نجيب الريحانى . أما الأفلام الأخرى فتجد فى المحادثات التى تدور بين شخصياتها من التكلف ما يسلمك إلى الملل . هذا عدا المواقف الكثيرة التى يبتعد فيها الحوار عن القصة نفسها ويسمعك المؤلف كثيراً من البديهيات التى يعتقد أنها فلسفية عميقة وهى أبعد ما تكون عن العمق والفلسفة .

ونصيب المخرج من الخطأ والتقصير يعادل نصيب المؤلف إن لم يزد عليه ، وخاصة إذا لاحظنا أنه يقوم بالمهمة الرئيسية فى الفيلم من اختيار الممثلين وإرشادهم إلى اختيار المناظر الخارجية والداخلية والاشراف على الاضاءة والتصوير . فهو يمثل حقا العنصر الأساسى فى إنتاج الفيلم، ولكنه كزميله المؤلف يعبث بالجمهور وبالفن . فلا تجد الذوق فى اختيار الأثاث ولا تلمس التنسيق فى وضعه ، وإنما تزدحم الغرف بهذا الأثاث ، فتبدو كأنها أبهاء عرض أو قاعات مزاد . وهو يضع مثلا مكتب باشكاتب الدائرة فى بهو الفيلا الانيق كما حدث فى « الماضى المجهول » مع أن فى هذا البهو نفسه من الأثاث ما يملأ ثلاث غرف . أما المناظر فالمخرج أحياناً لا يختار منها ما يلائم الموقف الذى يمثل . ففى فيلم « غرام الشيوخ » منظر فى فندق كان يجب أن يبدو أنيقاً جميلا، إذ أن نزلاء الفندق كانوا يرتدون ملابس السهرة لتناول العشاء . ولكن بدا المنظر زريا قبيحاً ؛ لأن الأستاذ محمد عبد الجواد مخرج الفيلم لم يختر ما يلائم الموقف الذى كان يصوره : من بهو أنيق فاخر أو درج من المرمر الأبيض أو ثريا من البلور البراق . . . إلى أمثال هذه الأشياء التى تضفى على المنظر لوناً من الأناقة والجمال .

وقد ينصرف المخرج أحياناً عن العناية بتفاصيل دقيقة قلما يلحظها المشاهد ، ولكن لها قيمتها الفنية . ففى « غرام الشيوخ » مثلا ترى فتاة تعمل راقصة فى حانة وطنية ، وهى فتاة لا تجد نقوداً تشترى بها دواء لأمها المريضة ومع ذلك كانت تلبس أساور من الذهب الوهاج . وفى « عودة القافلة » يستخدم المخرج مصباحاً كهربائياً متواضعاً فى منظرين مختلفين : أولا فى حجرة مدير شركة تأمينات وثانياً على مكتب محام ثرى . ويتمادى الاهمال من المتاع إلى ملابس الممثلين . ففى « عودة القافلة » فتاة ترتدى اللباس الخاص بركوب الخيل مع أن هذا اللباس لا يلائم ممثلة الدور مطلقاً . وحسبنا أن نذكر أنه أظهر ما هى عليه من بدانة لا تؤهلها لتمثيل مثل هذه الأدوار . وهذه الهفوات إن دلت على شىء ، فانما تدل على أن المخرج المصرى لم يتقن إلى الآن المهمة التى تقع على عاتقه عند ما يقوم باخراج فيلم سينمائى .

وثمة ظاهرة عجيبة فى الأفلام المصرية لم نرها فى الأفلام الأمريكية أو الأوربية ، وهى أنه لا يكاد يوجد فيلم مصرى يخلو من الرقص والغناء . فكأن الفتاة المصرية — مهما كانت طبقتها الاجتماعية — لا هم لها إلا أن ترقص فتسرف فى الرقص ، وإلا أن تغنى فتسرف فى الغناء ؛ فهى تغنى فى حجرتها ، وهى تغنى فى الحفلات العامة ، وهى تغنى فى الشارع إن شئت . وقد تكون هذه المناظر مما يناسب سياق الفيلم ويلائم حوادثه ولكننا نجدها فى كثير من الأفلام قلقة الموضع ، نابية الموقع . وذلك مثل ما حدث فى « عودة القافلة » حيث يقدم لنا المخرج

مرتين منظرا راقصاً لا شأن له بحوادث القصة ولا مكان له فى سياقها . إننا لا نريد إقحام الغناء والرقص فى أفلامنا المصرية على هذا النحو الشائع ، ولكننا نريد أن تخصص لها أفلام غنائية راقصة على نحو ما تفعل الشركات السينمائية فى أوربا وأمريكا .

أما الممثلون الذين يعملون فى الأفلام المصرية فهم يمثلون ثلاث طوائف لا ارتباط بينها . فمن الطائفة الأولى المطربون الذين لا عهد لهم بالتمثيل ولا دراية لهم به ، ولكن المخرجين يؤثرون أن يستغلوا شهرتهم فى الغناء ليروجوا بذلك أفلامهم . ومن المحقق أن اشتراك مطرب مثل الأستاذ محمد عبد الوهاب أو مطربة مثل الآنسة أم كلثوم فى فيلم من الأفلام كفيل لهذا الفيلم بالنجاح . ولكن هل يكفل له ذلك النجاح الفنى ؟ كلا ؛ لأن هذين المطربين ليس لهما من المواهب الفنية الطبيعية ما يساعدهما على إتقان فن التمثيل وإن كانا قد اشتركا فى أفلام عدة .

ومن الطائفة الثانية الممثلون الذين مارسوا التمثيل المسرحى سنوات طويلة ، ثم آثروا السينما على المسرح لأسباب بعضها فنى ، وكثير منها مادى . وبعض هؤلاء لم يفرق بين التمثيل المسرحى والتمثيل السينمائى فجعل يمثل فى السينما على النحو الذى يمثل به على المسرح ، وبين التمثيلين فرق فى طريقة الأداء ؛ وبعضهم فطن إلى ذلك ، فنجح فى السينما كما نجح فى المسرح ؛ ومن هؤلاء نذكر نجيب الريحانى ، وبشاره واكيم ، وإن كان الأول لم يمثل إلا أفلاماً قليلة نالت من الاعجاب ما تناله مسرحياته التى يمثل فيها بنجاح منقطع النظير .

وأما الطائفة الثالثة فمنها « الوجوه الجديدة » . واختيار هذه الوجوه لم يتم على الطريقة المثلى ، والنهج الصحيح ؛ لأن المخرجين آثروا فى اختيارهم وسامة الطلعة ، وأناقة المظهر على المواهب الذاتية ، وهى غير قليلة فى مصر . ولو تم الاختيار على هذا الأساس لظفرت السينما فى مصر بكثير من ذوى المواهب التى ترفع من شأن الفن السينمائى .

ومهما يكن من شئ ، فان السينما المصرية قد خطت إلى الأمام بعض الخطوات ، بفضل مجهودات فريق من المشتغلين بها ، وإن لم تكن هذه المجهودات موفقة كل التوفيق . ومن المؤكد أن السينما المصرية لو وجدت النقد النزيه الموجه الصالح ، لظفرت من الاتقان والنجاح بما لم يظفر به المسرح حتى الآن ؛ لأن العزم متوافر فى هذا المضمار ، ولأن مجال عرض الأفلام المصرية متسع جداً ، وخاصة فى الأقطار الشرقية . فليس على المشتغلين بالسينما إلا أن يراعوا الدقة فى اختيار القصة التى تصلح للتمثيل وأن يعولوا فى ذلك على النجاح الفنى أكثر مما يعولون على الكسب المادى ؛ وأن يعهدوا بالاخراج والتمثيل إلى ذوى المواهب والكفاءات من المخرجين والممثلين ، وأن يسندوا كل شأن من شئون السينما مهما صغر إلى من يجيده ويتقنه .

وما دامت مصر تزعم أنها تتبوأ المكانة الأولى بين البلاد العربية فى نواحى الثقافة والفن ، فليس من الخير أن نعرض باهمالنا سمعتنا الفنية للنقد والتجريح . ولنذكر دائماً أن علينا واجباً هو أن نحافظ على مكانتنا الرفيعة مهما كلفنا ذلك من بذل وتضحية .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة

للشيخ نجم الدين الغزى

إن كتب « الرجال » مما تفخر به الخزانة العربية. وليس هاهنا موضع سرد لأمهات تلك الكتب . والحق أن المئة العاشرة لم تكن تظفر من الكتب المطبوعة بسفر خاص بها جامع لرجالها ، فليس « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » لعبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسى ، المطبوع فى بغداد سنة ١٩٣٤ بالكتاب المستوعب ، وليس الجزء الثامن من « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » المطبوع فى مصر سنة ١٩٣٢ لابن العماد بالمرجع الأوفى . إن القرن العاشر لم تزل به حاجة إلى سفر مثل كتاب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للسخاوى ، أو « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى ، وكلا الكتابين مطبوع فى مصر .

واليوم يخرج الأستاذ جبرائيل سليمان جبور — أحد أساتذة الدائرة العربية فى جامعة بيروت الأميركية — كتاب « الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة » لصاحبه نجم الدين الغزى . ولد سنة ٩٧٧ ، ومات سنة ١٠٦١ ، وقد اشتغل بالتدريس والتأليف .

والكتاب فى ثلاثة أجزاء . ظهر منه الجزء الأول فى مختتم السنة الماضية ، وهو يدور على تراجم الأعيان المتوفين من مستهل سنة ٩٠١ إلى آخر سنة ٩٣٣ ، وسيتلوه الآخران إن شاء الله . وفى الجزء الثالث ستطبع الفهارس والمسارد على أصنافها .

وقد اعتمد ناشر الكتاب نسختين ، إحداهما فى بيروت والأخرى فى دمشق . وهنالك نسخة ثالثة فى الجامع الأزهر بمصر لم يتمكن الأستاذ الناشر من الرجوع إليها . وهذا الجزء خارج خروجاً حسناً من جهة الدقة العلمية . ولسنا إلى النظر فى ذلك نقصد بهذه الكلمة ، ولكن نحب أن نخبر القارئ بما فى سطور الكتاب فيطلع على مجرى الحياة فى ذلك العصر .

إن المترجمين فى هذا الجزء يغلب عليهم أمران : الأول الاشتغال بدراسة الفقه ، والثانى الانقطاع إلى العبادة . والفقهاء بين مدرسين ومؤلفين للحواشى والتعليقات ، والأولياء بين متصوفة و « مجذوبين » و « مكاشفين » . ولهؤلاء غرائب كرامات وخوارق مواجدات . والمؤلف يرويها مطمئناً إليها داعما لها . من ذلك ما كان يحدث من جانب محمد الضيروطى (ص ٨٤ و ٨٥) « كان يتطور ويختفى عن العيون وربما كان يتكلم مع جماعة فيختفى عنهم وربما كانوا وحدهم فوجدوه بينهم وأشار مرة إلى سفينة فيها لصوص فتسمرت ثم أشار إليها فانطلقت . وله من المؤلفات شرح المنهاج للنووى وكتاب القاموس فى الفقه وغير ذلك . » ومن ذلك أيضاً « سويدان المجذوب » (ص ٢١٣) « وكان من أولياء الله تعالى . . . وكان يتطور ، فربما وجد فى صورة سبع وفيل وفى صورة فقير وأمير ، وكانوا يرونه مرة بمكة ومرة بمصر . »

والكتاب مشحون بأخبار هؤلاء الصالحين المتعبدين المستغرقين . ومن فوائده أيضاً أنه يدل لنا صورة من أسلوب الانشاء فى ذلك العصر ، وهو فى الجملة ركيك قد داخلته ألفاظ عامية وأعجمية . وفى الكتاب إلى جنب هذا موضوعات تمس الحياة الاجتماعية ، من ذلك تعاطى بعضهم « الحشيش والكيف » (ص ٣٠٦) ومنشأ شرب القهوة على يد أبى بكر الشاذلى العيدروسى وما صار إليه العلماء من اختلافات فى ذلك (ص ١١٤) ثم أحوال المتصوفة والمتجردين ، وهى مبثوثة فى مطاوى الكتاب . وإلى جانب ذلك كله فوائد تاريخية مثل قصة أحمد باشا الطاغية فى مصر (ص ١٥٦ — ١٥٩) .

وبعد ، فالرأى أن ميزة هذا الكتاب فى تصويره لجانب من الحياة العقلية والاجتماعية فى عصره ، لا فى سرده لرجال ليسوا فى مقام الأولين من الرجال .

بشر فارس

نزهة النفوس ومضحك العبوس[1]

عرضنا فى مقال سابق لهذا الديوان النفيس، وتحدثنا عما فيه من شعر هزلى يذهب مذهب الدعابة والفكاهة . ولكننا لم نتحدث عن جانب آخر فى هذا الديوان ، وهو جانب هزلى أيضاً ، غير أن ابن سودون لم يكتبه شعراً ، بل كتبه نثراً ؛ فقد عقد فى ديوانه للنثر بابين : أما أولهما فباب الحكايات الملافيق ، وأما الثانى فباب التحف العجيبة والطرف الغريبة . والبابان جميعاً كتبا باللغة المصرية الدارجة ، وهما من هذه الناحية لهما أهمية خاصة ؛ فان من يقرؤهما لا يحس بوناً بعيداً بين لغتنا الدارجة الحديثة ولغة ابن سودون فى القرن التاسع الهجرى . ولسنا بصدد الحديث عن هذه الناحية ، فهى لا تهمنا الآن ، إنما يهمنا أن نستعرض الأدوار المضحكة التى مثلها صاحبنا فى ديوانه ، وهى أدوار تقوم على المجون والهزل ، مستمداً ذلك من المفارقات المنطقية ، وهى مفارقات تعتمد قبل كل شىء على فنون من التباله وإظهار الغفلة ، فما نلبث حين نلم بالديوان أن نضحك ، ونغرب فى الضحك ؛ لأن ابن سودون يحسن كيف يتغابى ، وهو غباء ينتهى بنا إلى إهمال عقولنا ، فنضحك لا سخرية ولا استخفافاً ، ولا كما يقول بعض الأوربيين عقوبة له لأنه خالف منطقنا ، وأصبحنا نحس كأنه آلة جامدة ، بل لعلنا نضحك ؛ لأننا نريد أن نكافئه إذ استطاع أن يخرجنا قليلا من عالمنا . ومن منا يذهب إلى ممثل هزلى ليعاقبه بضحكه على شذوذه ؟ إننا نذهب للسر ولنتمتع حقبة من الزمن بالانتقال قليلا من عالمنا إلى عالمه الذى تنعدم فيه — إلى حد ما — قيمنا المنطقية ؛ لتحل محلها قيم أخرى لا تستمد من منطقنا المألوف ، وإنما تستمد من منطق آخر ، إن صح هذا التعبير ، وهو منطق يقوم على التباين والشذوذ ودفع الأفكار من أعلى الشواهق ، وقد انتكست ، فأصبح أسفلها أعلاها فلا اتساق ولا انتظام ، وإنما تشويش واضطراب . واستمع إلى هذه النادرة التى يرويها ابن سودون فى باب الحكايات الملافيق :

(١) الكاتب المصرى عدد ١٠ (يوليو ١٩٤٦) .

« قال ابن غيدشة الزلاياني : كنت — وأنا صغير — بليداً لا أصيب فى مقال ، ولا أفهم ما يقال ، فلما نزل بى المشيب زوجتنى أمى بامرأة كانت أبعد منى ذهنا ، إلا أنها أكبر منى سناً ، وما مضت مدة طويلة حتى ولدت ، والتمست منى طعاماً حاراً ، فتناولت الصحفة مكشوفة ، ورجعت إلى المنزل آخذ المكبة (غطاء الصحفة) ونسيت الصحفة ، فلما كنت فى السوق تذكرت ذلك ، فرجعت وأخذت الصحفة ونسيت المكبة ، وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى ، ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس ، فقلت : لا أشترى لها فى هذه الليلة شيئاً ، ودعها تموت جوعاً ، ثم رجعت إليها ، وإذا هى تئن وإذا ولدها يستغيث جوعاً ، فتفكرت كيف أربيه وتحيرت فى ذلك ، ثم خطر ببالى أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب ، ثم يأتى ويقذفه فى فم ابنه ، وتكون حياته بذلك ، فقلت : لا والله : لا أكون أعجز من الحمام ، ولا أدع ولدى يذوق كاس الحمام . ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز ، فجعلته فى فمى ، ونفخته فى فمه فرادى وأزواجا ، أفواجاً أفواجاً ، حتى امتلأ جوفه ، وصار فمه لا يسع شيئاً ، وصار يتناثر من أشداقه ، فسررت بذلك وقلت لعله قد استراح ، ثم نظرت إليه ، وإذا به هو قد مات ، فحمدته على ذلك ، وقلت يا بنى : أما إنه قد انحط سعد أمك ، وسعدك قد ارتفع ؛ لأنها ماتت جوعا وأنت مت من الشبع ، وتركتهما ميتين ، ومضيت آتيهما بالكفن والحنوط ، ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل ، وها أنا فى طلبه إلى يومنا هذا . »

أرأيت كيف يستخرج ابن سودون منا الضحك بفكاهته ، وما يتقن وصفه من بلاهة صاحبه الزلاياني وغفلته . وانظر إليه كيف جعله ينسى المكبة ويأخذ الصحفة ، ثم ما زال بعد ذلك كلما أخذ واحدة منهما نسى الأخرى فى تباله غريب ، وإنه لتباله يدفعنا إلى أن ننسى منطقنا ، فاذا بنا نضحك لأننا استرحنا قليلا من هذا المنطق الذى يتعبنا فى حياتنا ، وأخذنا نضرب مع ابن سودون فى عالمه الجديد . أتظن أننا بضحكنا نحتقره أو نزرى عليه ، أو نحس برغبة فى انتقام منه ، أو أننا نريد — كما يقول بعض النفسيين — أن نعاقبه فضحكنا تنفيس أو تعبير عن ذلك ؟ إن هذا فى الواقع يعد فى الخيال والتصور . ومالنا ولهذه المعانى السيئة ؟ لقد كنا نستطيع أن نؤمن بذلك لو أننا نحس بشىء من الموجدة على ابن سودون ، ولكننا لا نحس بذلك ، بل نحس إزاءه بعطف ، بل بشىء من المودة ، فاننا نتمنى أن لو كان معنا الآن لنرى كيف يستغل حاضرنا فى دعاباته وفكاهاته . وانظر إلى ما يخلعه على الزلاياني من تباله ، إذ جعله يطعم وليده الجوز واللوز حتى قضى عليه قائلا إنه مات شبعاً فى حين ماتت أمه جوعاً . ثم يذهب به لإحضار كفنين لهما جميعاً ! ولكن صاحبه سرعان ما ينسى البيت ، وتخونه ذاكرته فيفقد كل دليل يدل عليه . وكل ذلك يضحكنا لا لأننا نريد أن نعاقب ابن سودون كما يزعم بعض النفسيين ، ولا لأننا نريد أن نكافئه كما نزعم نحن ، ولكن لأن مثل هـذا الحديث يصيبنا بضرب من عدم الاتزان ، فنشعر بانبساط ومن ثم نشعر بسرور فنضحك . وليس كل عدم اتزان يفضى إلى ضحك ، فاننا نألم أيضاً حين تصادفنا حادثة لنفس السبب إذ نفقد اتزاننا . وإذن ففقدان الاتزان يؤدى إما إلى ضحك وإما إلى بكاء . ومصدر هـذا التناقض أننا حين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانقباض النفسى نألم ونحزن وقد نبكى ، وحين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانبساط النفسى نسر ونفرح وقد نضحك . ومعنى ذلك أن الضحك مسألة فردية تخضع

لشعور الفرد نفسه بضرب من الراحة ، لامسألة اجتماعية تخضع للمجتمع وأنه يريد أن ينزل عقاباً أو ثواباً بالأشخاص الفكهين . ونحن لا نريد أن نفسد فكاهة ابن سودون بمثل هذا الحديث الجاف ، فلنرجع إليه وإلى أدواره الهزلية ، ولنترك علماء النفس يفلسفون الضحك كما يريدون .

والحق أن ابن سودون كان جعبة فكاهة ، فأينما قلبت طرك اندفعت تضحك ضحكا عاليا ، ونحن نسوق للقارئ إحدى نوادره فى باب التحف العجيبة والطرف الغريبة ، وهى كتاب كتبه على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبيه فى مصر وهو يمضى على هذا النحو :

« قال هوتقة بن بطاطة بن كجيج : أرسل فنين بن أبى المدارس إلى أهله كتاباً من الصعيد يقول فى عنوانه : يصل — إن شاء الله تعالى — إلى دربنا المحروس الذى ضبتو سنط ولقية ، ويسلم ليد البيت ، مطالعة الوالد ، وفى داخله السلام عليكم عدد ما فى نخيل البلد من أوراق ، وعدد أمواج البحر إن تكدر أو راق ، سلام كثير لا يسعه طبق ولا طبقين ولا أطباق ، أطول من مقود زرافة ، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاث أطواق ، من كل بدو سبب ... والذى أعرفكم به إن كنتو لسع بالحيا أنى أرسلت لكم صحبة القاصد على جوز وز فقس الصيف من ديك الوزة ، وأيضاً خروف أبلق وخروف بلا بلاق ، ويا سبحان الله ! تبقوا تتكلموا جزاف : أرسلتم تطلبوا حبل تنشروا عليه الغسيل ، وقلتوا لنا على طوله ، وما قلتوا على عرضه ! وارسلتم تطلبوا كشك ، وأنا إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة ، وإن طبخته ما يوصل لكم حتى يبرد . . . وطلبتوا تالات والفلاحين ما زرعوا إلا قرع طويل ، فيكون ذلك فى خاطركم . من حقه بلغنى أن امرأتى حبلة ، فلا تخلوها تولد حتى أجى ، وإن ولدت قبل ذلك لا يكون إلا صبى . . . وجرت لى حكاية ، وذلك أنى غسلت قميصى ونشرته فى السطوح ، فقام بالأمر المقدور . ضربه الهوا ، فوقع من فوق لتحت ، وارتجفت بسلامتى رجفة . . . وعرفت أن ما هى بشارة خير ، وأنها تدل على موت أمى وأبويه والحمد لله كانوا فدايه ! وأنى صليت وصمت لله تعالى إللى ما كنت فى قميصى ، ولو كنت فيه كنت انكسرت ، فقلت : حوالينا ولا علينا ! ولكن من الرجفة وجعتنى عينى اللى تبق ناحية المشد وقت أخرج من دارنا . والذى نعلم به الوالد زوج الوالدة أنى دخلت يوم البستان أنا والخولى فرأيت فيه نخل شى طويل ، وشى قصير ، وشى ما يشبه شى ، فقلت له دى إيه قال بلح ، قلت ودى قال نبق ، قلت ودى قال جميز ، قلت ودى قال مشمش ، قلت ودى قال توت ، ورأيت يا أبويه نخلة فيها كل ورقة قدر الصحفة ، فقلت له ودى إيه فقال لى موز ، فعجبنى قوى ، وقلت له الموز يطلع فى البستان ، فقال لى أيوه ، فقلت له والجبن المقلى يطلع فين ، قال : يطلع فى طاجن الجبان . وانت تعرف إن بيتنا على دكان الجبان ، وأنا كل يوم أجى وأطل من الطاقة وعمرى ما رأيت فى الدكان نخيل جبن مقلى ، وكابرت الخولى وراهنتو من دجاجتى الرقادة لنعجتو الحبلة ، فالوالد يبصر لنا إن كان الخولى غلبنى . والذى أعرفكم به كان أنى لما طلعت البلد ولقيت الصابون غالى بعت فرسى البيضة ، واشتريت لى حمارة سودة حتى لا تتوسخ . وبس كلام ، فانى لو كتبت الذى فى خاطرى كله كان الكتاب يجى من هون لفين . بعد السلام على أهل الحارة ، كل واحد وحده ، كتير كتير ، بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراويح من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى الأوسط سنة تاريخه ، وبالأمارة مطرت المطرة ، وأهل البلد كلهم يعرفوا ، إن شاء الله . »

وواضح أن ابن سودون كتب هـذا الخطاب باللغة الدارجة لعصره، وهى لا تختلف كثيراً عن لغتنا الدارجة الآن. وقد جاء فيه بلازمة معروفة لأهل الصعيد إذ أبدل الهاء فى لسه «عينا» فقال لسع، وأيضا فنحن نجد فيه بعض لوازم أهل الشام ككلمة «من هون». وكأنما كان المصريون فى عصر ابن سودون مثلنا الآن يضحكون من بعض اللوازم فى لهجة إخواننا أهل الشام، ومن أجل ذلك يستظهر ابن سودون هـذه اللوازم فى بعض هزله. ولكن ليس هـذا هو ما يضحكنا فى ديوان ابن سودون ولا فى هذا الكتاب الذى أرسله فنين إلى أبيه، إنما يضحكنا ما يعمد إليه من تباله، وها هوذا يحاول بكل ما يستطيع أن يجعل صاحبه مثلا أعلى للبله والمغفلين؛ فقد بدأ كتابه بهذا العنوان: «يصل — إن شاء الله — إلى دربنا المحروس الذى ضبتو سنط ولقية»؛ وهذا هو كل ما استطاع فنين أن يجعله عنواناً لكتابه، فقد عرف بالدرب الذى أرسله إليه، وهو درب ضبة بابه سنط ولقية، ونستمر فى قراءة الخطاب، فاذا هو يستشكل على أبيه، إذ أرسل يطلب منه حبل غسيل، وقد اكتفى بأن يذكر له طوله، ولم يذكر له عرضه! وكذلك أرسل فى طلب كشك، ولم يقل له كيف يرسله، وهل يرسله مطبوخا أو غير مطبوخ، وأيضاً فانه سأله بعض قلل، وكأنه لا يعرف أن الفلاحين لا يزرعون قللا، وإنما يزرعون قرعاً طويلا. وهذه كلها استشكالات تفسر تفسيراً واضحاً عقل فنين وما يسمه من بله وغفلة، وهو يمضى على هـذا المنوال فيحمد الله أن وقع ثوبه من فوق بعض السطوح ولم يكن فيه، وإنه ليسترسل فى غفلته فاذا هو يتخذ من ذلك دليلا على موت أبيه وأمه! ويستمر فيذكر أنه ارتجف بسبب حادثة ثوبه رجفة رمدت بسببها عينه، ويريد أن يقول اليمنى أو اليسرى فلا يسعفه بلهه، فيقول إنها العين التى تكون بازاء ناحية المشد حين خروجه من بيته، ولا نصل إلى هـذا الموضع من الكتاب حتى تستهوينا هـذه النغلة فى فنين فنتابعه وإذا هو يقص أنه دخل بستانا ورأى فيه أشجاراً من أنواع شتى، وقد ذهل حين رأى هذه الأنواع وأداه ذهوله أن يسأل الخولى أين يطلع الجبن المقلى، كأنه تصور الجبن المقلى فاكهة مثل المشمش والموز. وسرعان ماعرف الخولى فيه هذا الذهول، بل قل هذه الغفلة وذلك البله فتندر عليه قائلا: إن الجبن المقلى يطلع فى دكان الجبان، وذهب فنين ينظر فى طاقة تطل على دكان الجبان ليرى نخيل الجبن الذى حدثه به الخولى، فلم يجد شيئاً فذهب يراهنه من دجاجته لنعجته. وإن ابن سودون ليستمر فاذا صاحبه يذهب إلى السوق فيجد الصابون مرتفعاً سعره، حينئذ تسول له بلاهته أن يبيع فرسه ويشترى مكانها أتانا سوداء حتى لا تتسخ. وأخيراً يؤرخ خطابه هذا التاريخ المشوش؛ إذ يؤرخه بيوم عاشوراء السابع والثلاثين من جمادى الأوسط. فانظر إلى هذا الخلط فى التاريخ، وكل ذلك أراد به ابن سودون أن يصور تصويراً دقيقاً حال بعض أهل الريف فى عصره، وما هم عليه من غفلة، فاختار فنيناً هـذا ليبلغ من هزله كل ما يريد. وكما يتندر ابن سودون على أصحاب الريف من أهل الصعيد فى عهده نجده كذلك يتندر على الفقهاء وغيرهم من علماء عصره الذين كانوا يعنون بالمناقشات اللفظية وما يتصل بها من كثرة اعتراضاتهم وبيانهم لما تفترق فيه الأشياء وتجتمع، وإنهم ليبالغون فى ذلك حتى ليصلون بين أشياء متباعدة لا تخطر على بال أحد. وقد ذهب ابن سودون يتفكه ويتندر على هذا الصنيع فى كثير من جوانب طرفه وتحفه، فتارة يأتى بمثل نحو قول العامة: أبو قردان زرع فدان ملوخيا

وباذنجان ، ويشرحه شرحاً مفصلا على طريقة علماء اللغة ، فهو يتكلم عن ألفاظه ويخرجها من الوجهة الاشتقاقيـة تخريجاً كله هزل ودعابة ، وتارة اخرى نراه يقف ليوجه مسألة دقيقة ، ونحن نذكر مثالا لذلك هو حديثه عن الفرق بين المركب والفرس لينجلى لك هذا الجانب المضحك فى ديوانه :

« إن من عرف العلم بتحقيقه ، وانعجنت فكرته بدقيقه ، علم أن بين المركب والفرس فرائق من كم وسن ، الفرق الأول أن المركب أثقل من الفرس بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ولو حملوا المركب على فرس ما قدرت الفرس تحملها ... الفرق الثانى أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت رأسها عند رأس المركب لا يصل ذنبها إلى ذنب المركب ، وأيضا فان المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وإيش ما خطر له بخلاف الفرس . وأيضا فان المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر فظهر الفرس ما هى كده . وأيضا فلفظ فرس ف ر س ولفظ مركب م ر ك ب ، فمركب أزيد بحرف والزائد أكبر من الناقص . الفرق الثالث أن الفرس لها سمع وبصر ، تسمع من صاحبها إيش ما قاله لها ، وتبصر كيف تحط رجلها ، والمركب ما هى كده . الفرق الرابع أن الفرس لها أربع قوائم تندار بهم إن خطر لها من هون لهون ، والمركب ما هى كده . ولا يرد على هذا الصندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوايم ، ولا يندار ؛ لأن الكلام فيما يركب ، والسرير وإن كان يركب ، إلا أنه لا يركب للسفر ، والكلام فيما يركب للسفر . الفرق الخامس أن بطن المركب معوقة فى الميه وبطن الفرس مسيبة ، إلى غير ذلك من الافراق . »

وهذه الفكاهة لا تجد صداها فى نفس القارىء إلا إذا كان قد اطلع على حذلقة أصحاب الشروح والحواشى وعرف اعتراضاتهم وكثرة ما يورده المحشى على الشارح ! وما نظن أحدا بلغ من التندر على علماء العصور الوسطى وانشغالهم بالمناقشات اللفظية ما بلغه ابن سودون ، فقد ذهب يحاكيهم فى بعض حكاياته الفكاهية ينقل طرقهم ومصطلحاتهم ، وقد هيأ له ذلك أنه كان إماما ببعض المساجد وكان على حظ واسع من علوم القوم وفنونهم . وانظر إليه وقد استفتاه بعضهم عن الدجاجة هل هى من البيضة أو البيضة من الدجاجة ، فأفتاه على هذا النحو الذى نرويه برمته عنه إذ قال :

« لا نقل عندى فى هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر أن الدجاجة كانت أولا ثم باضت وحصل التناسل ، ومما يؤيده الحدوتة المشهورة ، وهى أحدتك حدوتة ، بالزيت ملتوتة ، كان ما كان ، فى قديم الزمان ، أولاد حمدان ، يطلبوا نانا ، والنانا فى التنور ، والتنور يريدلو حطب ، والحطب فى الجبل ، والجبل يريدلو فاس ، والفاس عند الحداد ، والحداد يريدلو بيضة ، والبيضة فى الدجاجة ، والدجاجة تريدها لقط ، واللقط فى الحظيرة ، والحظيرة تريد لها مفتاح ، والمفتاح عند رباح ، مايجى من الساعة لشق الصباح . فقال والبيضة فى الدجاجة ، ولم يقل الدجاجة فى البيضة ، ولا يختص هذا بالدجاجة بل الوزة كذلك أيضا . وإنما كتبت الحكاية هنا لعزتها . »

وواضح أنه يستخدم مصطلحات الفقهاء فى فتاواهم من مثل لا نقل عندى فى هذه المسالة ، والأمران محتملان ، والأظهر ، ولا يختص . وقد ذكر الاصطلاح المشهور فى لغتنا الدارجة عن من يحكون الحكايات إذ قال : أحدتك حدوتة بالزيت ملتوتة ، وقال أيضا : كان ما كان فى قديم الزمان .

أما الحكاية نفسها فلها صور كثيرة تشبهها فى عاميتنا الحديثة . وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون فى عصره كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه : الريفيين وغير الريفيين . ولم ينس أن يلهج بحديث لأحدب بغدادى حكى فيه لغته ولهجته فى صورة هزلية بديعة ، وكذلك تمثل بشعر على طريقة بعض الأعاجم الذين كانوا يزورون مصر فى العصور الوسطى وقد حشد فى شعره بعض ألفاظهم كى يتقن دعابته . والحق أن ابن سودون كان فكها من الطراز الأول ، وقد لا نغلو إذا قلنا إنه أهم فكاهى ظهر بمصر قبل عصرها الحديث . وقد كان يتخذ منهجا واضحا فى فكاهته وهو منهج كان يعتمد على المفارقات المنطقية من جهة ، كما كان يعتمد على كل ما يمكن من غفلة وبلاهة من جهة أخرى ، ولم يكن يحتال لذلك بأشياء خيالية، بل كان يعمد إلى واقع حياته ومجتمعه ، فيتخذ منهما ما يريد من هزله . والطريف أنه كان يجد فيهما دائما مادة غزيرة لفكاهته ودعابته ؛ إذ كان يعرف كيف ينقل أقرب الأنباء والموضوعات منه إلى أدوار هزلية مضحكة فاذا هى وقد تبدلت وجوهها وأصبح كل ما يتصل بها ينشر الضحك والفكاهة . وكان يسوق ذلك فى طريقة خاصة ؛ إذ كان ما يزال يخرج من عبث إلى عبث ، ومن مألوف إلى مألوف ، ومن غريب إلى غريب ، ومن بله وغفلة إلى بله وغفلة ، حتى ليضطرب توازننا ، ونحس كأننا قد خرجنا من عالمنا إلى عالم اخر هو عالم ابن سودون ، وهو عالم تضطرب فيه الأشياء والأفكار اضطرابا مضحكا على نحو ما نجد عند ممثلى عصرنا الهزليين فى أدوارهم الفكهة وصورهم المضحكة .

شوقى ضيف

من وراء البحار

ألمانيا ومستقبلها السياسي والاقتصادي

ما هو مستقبل ألمانيا بعد الهزيمة ؟ وماذا يكون نظامها ؟ لقد نشرت مجلة الأمور الخارجية الأمريكية (فى عدد يوليه) مقالين هامين مفصلين فى ذلك لا نستطيع إلا تلخيصهما وأولهما بقلم مسيو بيدو رئيس وزراء فرنسا .

ويرى مسيو بيدو أن مشاكل العالم بعد أن أنهكته الحرب مثل الكرة المتشابكة الخيوط ، فلا يكفى أن يمسك المرء بطرف هذه الخيوط حتى يمكن تسويتها ؛ فهى مليئة بالعقد وأكبر عقدة هى ألمانيا .

قد يقال إن هذا الاعتقاد قائم على عقدة نفسية لدى فرنسا . ولقد كانت ألمانيا حتى الأمس مربى للحروب ، وهى اليوم حفرة عميقة لا يرى قرارها ، فهى فى الواقع أولى مشاكل العالم ، وإذا كان الفرنسيون يعمدون إلى تنبيه العالم إلى هذه المشكلة ، فليس ذلك لأنهم يقفون موقفهم العاطفى المعروف من العدو التقليدى . فنظرية الفرنسيين ليست قائمة على التعطش إلى الفتح ولا على الرغبة فى الأخذ بالثأر . والبرهان على هذا القول ان الحكومة المؤقتة للجمهورية رفضت سياسة الضم . وقد نقول فى التدليل على ذلك أن رئيس المجلس الوطنى للمفاوضة زار مستشفى مدينة باريس فى أثناء معركة تحريرها ليحيي الجرحى الألمان لأنهم كانوا حينئذ بين المهزومين . وفرنسا تعنى عناية كبيرة بالعدالة ، ولا تخلط بينها و بين الانتقام .

فالمسألة الألمانية فى نظر فرنسا هى مسألة سلامتها قبل كل شىء . وفى هذا المعرض لا يستطيع أحد أن ينكر أن فرنسا من الوجهة الجغرافية والسياسية هى المركز العصبى لأوربا ، وأنها حين تمس ينشأ عن ذلك اهتزاز شديد . ولقد ثبتت صحة هذا القول بعد حربين عالميتين ، وكان يشعر بذلك سياسى بعيد النظر مثل تيودور روزفلت الذى قال قبل هاتين الحربين عند الأزمة المراكشية : « لو اجتاحت الجيوش الألمانية فرنسا لما استطاع الأمريكيون أن يسكتوا » .

ففى مجال السلامة الاجتماعية توجد خطوط تجب مراقبتها مراقبة دقيقة ، ويجب الاعتراف بأن البلاد الواقعة على هذه الخطوط قد استطاعت أن تكون آراء ثابته عن الضمانات الواجبة لسلامتها ، فاذا رأينا فرنسا تصرح أن سلامتها ، أو بالحرى سلامة العالم ، تتطلب بعض الاجراءات ، فيجب على الأقل أن تفحص مقترحاتها بروح العطف ؛ فهذه المقترحات هى نتيجة تفكير طويل ، وهى مقترحات دائمة وليست هى آراء رجل واحد أو مناورات حزب من الأحزاب ، بل هى مطمح أمة ودولة .

لقد أعلنت الجمعية التأسيسية الوطنية فى ١٧ يناير سنة ١٩٤٦ أن سلامة أوربا والعالم ، تتطلبان حرمان ألمانيا نهائياً من وسائل الحرب التى تمثلها الموارد والخامات فى منطقة الرين ووستفاليا ، وأن تحرم مقاطعات الرين من ان تكون فيما بعد منطقة مرور ، ومخزنا وقاعدة للغزو .

ويجب أن تعاد إلى فرنسا المناجم التى نقلت بموجب معاهدة فرساى . وأن تكون هذه المنطقة تابعة فى نظامها الجمركى والنقدى لفرنسا ، بحيث تكون متممة للنظام الاقتصادى الفرنسى .

أما منطقة الرور وهى الكنز الأوربى العظيم الذى يحتوى على مناجم الفحم والمصانع التابعة له، وهى التى يعمل فيها فى الأوقات العادية خمسة ملايين من العمال، فان الحكومة الفرنسية ترى لمصلحة الانسانية أن تعتبر وحدة سياسية مستقلة عن ألمانيا، وتوضع تحت نظام دولى من الوجهتين السياسية والاقتصادية.

هذا هو رأى الجمعية التأسيسية. وقد يضاف إليه فيما يختص بأراضى الرين، أن توضع قوات حربية كافية دائما فى الأراضى الألمانية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الرين، وربما توضع كذلك على رءوس بعض الجسور فى الضفة اليمنى. ويجب أن تكون أراضى الراين من الوجهة السياسية غير تابعة لألمانيا ولا لفرنسا، وأن تكون حرة فى تدبير أمورها على ألا يسمح لها بأن تتسلح، وعلى أن تكون تحت رقابة حربية يشترك فيها الحلفاء.

هذا الرأى الفرنسى قد عرفته الدول وأخطرت به فى مناسبات عدة، ولم تقبل الدول حتى الآن هذا الرأى ولم ترفضه، ولكن قد يكون من المستحسن البحث فى أسباب ما يرى من تردد فى قبول هذا الرأى. وهذه الأسباب تتعدى أحياناً دائرة المسألة الألمانية إلى مسألة الحالة العامة فى العالم، وهذا مما يؤيد القول بأن المشكلة الألمانية، هى فى آن واحد عقدة ومفتاح للمشاكل العالمية.

فمن الآراء التى تبدى رأى يتأثر بجانب إنسانى، هو: هل يفرض على ألمانيا صلح «شديد»؟ ومثل هذا الرأى جديد فى سياسة الدول؛ فهى فى مؤتمر يالتا، الذى لم تمثل فيه فرنسا، قد قضت بفصل كوينجسبرج وشتتين وفرانكفورت وبرسلاو، وهى من أقدم المدن البروسية، عن جسم الدولة الألمانية.

ومع ذلك فهل يكون من الشدة منع المعتدى الذى لا يرعوى عن تكرار اعتدائه؟ وهل يعتبر من التساهل والملاينة نقل جماعات كبيرة من السكان، وهو الذى حدث بعد اقتطاع أراضى ألمانيا الشرقية؟ إن مثل هذا لن يحدث فى ظل النظام الذى تقترحه فرنسا من فصل الرور سياسياً؛ إذ أن النظام الدولى المقترح سيحتفظ بمستوى عال لمعيشة السكان.

إن فرنسا لا تريد أن تعامل ألمانيا بشريعة العين بالعين، ولكن ليس من الضرورى أن نكون رفيقين بالألمان، وليس معنى ذلك أن ننزل بهم العقاب الدائم، فللألمان صفات وميزات، وهم أصحاب جد، ونظام وابتكار، ولكن مما يؤسف له أنهم يميلون إلى استعمال هذه الصفات بطريقة خطرة. ولا يجب أن ننسى أنه لم يكن يرتفع بينهم صوت احتجاجاً على مساوىء نظام هتلر، ولم يرفض جندى ألمانى واحد أن يطيع الأوامر الصادرة إليه بارتكاب الفظائع.

والآن بعد هزيمة النازية ماذا يحدث فى ألمانيا؟ وماذا نرى فى تلك البلاد المحتلة الكئيبة؟

يروى أحد المراقبين أن أول ما نراه فى تلك البلاد هو الاهتمام الكبير بوسائل المعيشة اهتماماً يسيطر على العلاقة بين المنتصرين والمهزومين. ثم إن الألمان لا يهتمون بوجه عام لمحاكمات نورنبرج، ثم يصرح الألمان لمن يتحدثون إليهم أن تلك البلاد الواقعة بين ممل ونهر نيسن، لا تنتج أنواع المأكولات وحدها، بل قد أنتجت من قبل عباقرة مثل كنت وبويهم وانجيلوس سيليوس وأيشندورف الذين يمثلون أنبل صفات الذهن الألمانى؛ وبين الأحياء من أعضاء الفهرماخت، من لم يقلعوا عن الأوهام، حتى إنهم لينتظرون حدوث مغامرة جديدة قد تشبه المعجزة. ويوجد فى كل مكان ما أسماه أحد الألمان مبدأ الطاعة؛ لئلا يقول مبدأ الزعامة!

وقد وصف كريستريا درلند، الخبير السويدى فى الأمور الألمانية، حال فتية هتلر

عندما يعودون إلى وطنهم ، فذكر أنهم ينظرون فى يأس إلى الخراب المحيط بهم ، ثم يضعون أيديهم فى جيوبهم ، ويلقون نظرات مغناها ظاهر ، على مركبات الجنود المحتلة وهى تمر أمامهم فى الشوارع . وهم يحبون أن يذكروا حوادث الحرب والأوقات التى أمضوها فى البلاد المحتلة ، ويفوهون بألذع الفكاهات عن الديمقراطية الحديثة ؛ فالأجانب الذين عاشوا ببرلين قبل الاستيلاء عليها وبعده ، يعتقدون أن أنصار النازى اليوم أكثر من ذى قبل .

هذه المشاهدات سبب آخر يضاف إلى الأسباب التى تقضى بمساعدة ألمانيا فى محنتها ، والخروج بها من المآزق إلى الديمقراطية الصحيحة ، وهى كذلك سبب فى ألا نستسلم للأوهام .

لقد سئل أحد الألمان فى الحرب السابقة : ماذا يعمل الألمان لو خسروا الحرب ؟ فأجاب : فى هذه الحال سننظم العطف . فيجب أن نعمل على ألا يعود الألمان إلى تنظيم العطف مرة اخرى ، فنرى جوبلز يخرج رأسه من حفرته ليقول لنا : ومع ذلك فقد انتصرنا نحن أيضاً !

فالمسألة إذن ليست إخضاع ألمانيا وإتعاسها بل هى العمل على نهضتها دون أن يؤدى ذلك إلى كارثة للعالم والسلم .

لقد انتقد المشروع الفرنسى ؛ لأنه لا يؤدى إلى إيجاد إدارة مركزية فى ألمانيا فى أقرب وقت ، وإذا لم تنظم ألمانيا وهى تشغل وسط أوربا ، فان ذلك يكون مصدر خطر على أوربا . وفى إدارة ألمانيا واحتلالها عبء ثقيل على الحلفاء ، فيتعين الخلاص منه بأسرع ما يمكن .

على أن النظرية الفرنسية لم يقصد بها بقاء ألمانيا غير منظمة ، فهذه الحفرة السوداء العظيمة ، لا يمكن أن تظل باقية إلى الأبد فى وسط أوربا ، بل يجب أن نقرر كيف نسدها وأن يتم الاتفاق على مشروع لانشاء ألمانيا سياسياً من جديد ، وأى رجال يقومون بهذا العمل ؟

على أنه من المستحيل أن ترضى فرنسا بقيام سلطة ألمانية على أبوابها ، بينما أبعدت الحدود فى الشرق إلى المسافة التى يقتضيها الحذر ، لذلك ترغب الحكومة الفرنسية فى تحديد الحدود الألمانية الغربية فى الوقت الذى تقام فيه إدارة ألمانية ، وإلا نشأ عن ذلك موقف غريب : هو أن فصل المقاطعات الشرقية عن ألمانيا مما يؤدى إلى تحويل مركز النقل فيها نحو الغرب ، ويزيد من ضغط ألمانيا على فرنسا .

يقال إن القنبلة الذرية ، ستقضى على الحدود . فلا يمكن فرنسا أن تضمن سلامتها باحتلال نحو ثلاثين ميلا من أراضى الرين واكتساح كوقاء من وراء حدودها . فلماذا لا يقال مثل ذلك عن الحدود فى الجبهة الأخرى ؟

ثم يقال إن مركز قيادة الجنرال كلاى فى برلين قد قام بعملية حسابية فوجد أن اقتطاع الرور من ألمانيا كلف دافع الضرائب الامريكى مائتى مليون دولار فى السنة . ولكن هل يفضل دافع الضرائب هذا أن يدفع أربعمائة ألف مليون دولار بعد سنوات فى حرب جديدة كما فعل فى هذه الحرب ؟

إن فرنسا تقترح أن يحال بين ألمانيا وبين أن تجعل من الرور مصنعاً للسلاح على أن يقام فى تلك الجهة نظام إقتصادى يجعل من السهل تبادل السلع مع الشرق والغرب ومنها ألمانيا ، وإذا استعمل الرور وقتاً ما لسد جزء من حاجات ألمانيا فى ذلك الكفاية لكى لا تصبح ألمانيا عبئاً على الامم المتحدة وسينتهى الامر بايجاد توازن إقتصادى بين الرور والمانيا من جهة والعالم الخارجى من جهة أخرى .

لقد قام ممثلو مجلس الرقابة للدول المحتلة ببرلين بعمل تقدير للميزان التجارى لألمانيا فى سنة ١٩٤٩، فقدر الانجليز أن هذا الميزان سيكون متعادلا على حين قدر الأمريكان والفرنسيون والروس أنه ستكون هنالك زيادة فى صالح ألمانيا.

ويستطيع إقليم الرور إذا صار دولياً أن يؤدى مساعدة ذات وجهين لألمانيا أحدهما تجارى والآخر متعلق بالميزانية.

فالرور أولا يستطيع أن يبيع ألمانيا الفحم والصلب ومنتجات المعادن والمنسوجات، ويشترى منها أطعمة وحديداً وأخشاباً للمناجم وغزلا صناعياً، وفى هذه الحالة يكون الميزان التجارى على الأرجح فى صالح الرور، وحينئذ يكون على بلاد الرور أن تضع تحت تصرف ألمانيا جزءاً من المبالغ التى اكتسبت من جهات أخرى. وإذا ظهر عجز ألمانيا فى ميزانها مع الرور فيمكن لاقليم الرور أن يرسل إلى ألمانيا ما يسد حاجتها بلا ثمن؛ كى يكون الميزان متعادلا ويكون بيع الدولة الألمانية منتجات الرور للمستهلك الألمانى، وهى التى حصلت عليها مجاناً، مما يزيد موارد الميزانية الألمانية. ومن الممكن أن تتحمل الرور الديون الألمانية الخارجية.

فالمقترحات الفرنسية إذن لا تهمل الجانب الاقتصادى، وتعنى بمستقبل ألمانيا المنهزمة.

ولو أن الحلفاء لا هم لهم إلا العناية بالاقتصاد الألمانى وحده، دون أى اعتبار آخر، لكان عليهم أن ينشئوا ألمانيا العظمى كما تصورها هتلر. أما القول بأن نهضة ألمانيا كدولة حربية أمر مستحيل، فهو قول لا يتفق مع الواقع كما يعرف الفرنسيون جيداً. وإن جميع المعاهدات لضمان السلامة فى الماضى كان الغرض منها اتقاء الخطر الألمانى الذى هو مسألة حقيقية لدى جيران ألمانيا وليس مجرد أمر نظرى. وإن غريزة الأمم لتدل على أن أثبت اتحاد فى السلم هو القائم على حقائق الحرب التى جمعت بينها.

هل فشلت سياسة أمريكا فى ألمانيا؟

أما المقال الثانى فهو بقلم الأستاذ إدوارد ميسون، وهو يستعرض أولا المبادئ الأساسية لاتفاق بوتسدام فيقول إن هذه المبادئ تقضى بما يأتى:

(١) تعتبر ألمانيا فى غرب خط الأودر ونيسن وحدة اقتصادية، وتسير المناطق المختلفة على سياسة اقتصادية واحدة، وتوزع السلع الضرورية توزيعاً عادلا، وتنشأ وكالات اقتصادية مركزية لادارة النقل والمالية والتجارة الخارجية والمواصلات والصناعة.

(٢) تجمع التعويضات بنقل المصانع والآلات من ألمانيا ووضع اليد على ما تمتلكه فى الخارج. وتوفى مطالب روسيا السوفيتية وبولونيا بنقل ما يوجد منها فى الشرق مع الاشتراك فى جزء من الغرب. أما مطالب الحلفاء الغربيين فتوفى بوضع يدهم على ما فى المناطق الثلاث الغربية.

(٣) يخفض الانتاج الألمانى بنقل بعض هذه المصانع وتدمير بعضها بحيث لا يزيد الانتاج عما يكفى لجعل مستوى المعيشة فى ألمانيا معادلا لمتوسط ما عليه الحال فى البلاد الأوربية الأخرى غير انجلترا وروسيا.

إن قرار تقسيم ألمانيا إلى مناطق للحصول على تعويضات يتناقض مع الرغبة فى جعل ألمانيا وحدة اقتصادية. ثم إن مؤتمر

بوتسدام لم يبين إذا كانت مطالب التعويضات تسدد من آلات المصانع أو من المعاملات التجارية الألمانية . وقد تقرر فى ذاك المؤتمر أن يكون للولايات المتحدة الأولية بالنسبة للمال الناشئ عن المعاملات التجارية الألمانية على سبيل التعويض ، ولكن لم يتقرر شيء بالنسبة للدول الأخرى .

ثم إنه بعد القضاء على ألمانيا كدولة صناعية كبرى ، هل تعود الدول فتساعدها على النهضة الصناعية ؟ إن الحلفاء لم يتفقوا على ذلك ولا يظن أنهم يتفقون ؛ فسلك روسيا فى منطقتها لا يدل على أنها ترضى باقالة ألمانيا تدريجياً من عثرتها .

وفى هذه الأثناء قررت اللجنة المركزية للحلفاء ببرلين فى مارس من هذه السنة ، تبعا لقرارات بوتسدام ، مستوى ما يسمح لألمانيا باخراجه من الصناعات الثقيلة ، فمنع بالطبيعة صنع الآلات الحربية ، أما بعض المواد التى تمت إلى المواد الحربية بسبب مثل صناعة المطاط والأمونيا والبترول الصناعى والألومنيوم فقد سمح بها مؤقتا للاستهلاك الداخلى ، إلى أن تستطيع توريدها ، ثم سمح لها ببعض صناعات الصلب والحديد والمواد الكيمائية والآلات الصناعية والهندسية على نطاق ضيق ، أما الصناعات الخفيفة الأخرى وصناعات البناء فقد تركت ألمانيا فيها حرة .

وكانت المفاوضات فى هذا الموضوع صعبة وطويلة يريد حليف التساهل فى نوع من الصناعات ، فيأبى الآخر إلا التشدد .

فهل يمكن بعد تدمير المصانع ونقلها أن يصل إنتاج ألمانيا إلى الحد الذى يجعل معيشة سكانها فى المستوى الذى قرره مؤتمر بوتسدام ؟ وهل تستطيع ألمانيا أن ترسل إلى الخارج من صادرات صناعتها ما يعوض الواردات ؟ لو بقيت ألمانيا وحدة اقتصادية ولم توضع العراقيل فى سبيلها لما أثر نقل المصانع وتدميرها فى اقتصادها فى الوقت الحاضر . إن الصعوبات التى تعترض ألمانيا فى هذا الوقت ناشئة عن حاجتها إلى الطعام ، وهذا متوقف على محصولها ، على أن ألمانيا قد سمح لها بانتاج المخصبات التى تصنعها دائما ، ثم إن النقص فى الآلات الزراعية لا يؤثر فيها كذلك ، ولذلك ينتظر أن يتحسن حال الطعام فيها بعد محصول سنة ١٩٤٦ . أجل إن صعوبات التبادل بين المناطق ، والقضاء على الزراعات الواسعة فى الشرق قد يضر بمركزها الزراعى ، ولكن هذه الأمور غير قائمة على سياسة بوتسدام .

كذلك البرنامج الذى وضع للانقاص من قوة ألمانيا الصناعية لا يؤثر فى إنتاجها فى المستقبل القريب ولا يقف فى سبيل عودة الرخاء إلى ألمانيا بعد ١٥ أو ٢٠ سنة . فوسائل الاقتصاد الحديث تمكن الدول سريعا من عودة الرخاء إليها ، إذا لم توضع العراقيل فى سبيله لأغراض سياسية . ولن يشعر الألمان بعبء القرارات التى اتخذت فى بوتسدام إلا عند وصولهم إلى فترة متوسطة .

أما نقل الآلات والمصانع من ألمانيا فهو سيقلل من إنتاج ألمانيا ولكنه لا يزيد الانتاج كثيرا فى الجهات الأخرى من أوربا ، ولا ريب فى أن ألمانيا ستصاب بضرر كبير فى إنتاجها ، ولكن يجب ألا نبالغ فى هذا الأمر ، فانا لنعلم أن ألمانيا زادت آلاتها زيادة كبيرة حتى فاقت الولايات المتحدة فى ذلك ، ولكن هذا العمل كان فى أيام الحرب وأيام الاستعداد لها ، وهذا مالا تحتاج إليه فى السلم ، ثم إن أكثر مصانعها الضخمة غير اقتصادى ، فهو موزع لأغراض حربية كما ترى فى مصانع هرمان جورنج للصلب . فليس فى نقل هذه الآلات ضياع كبير من وجهة الكفاية ، ولكن يجب أن نلاحظ أن نقل الآلات والمصانع مع عدم إمكان استعمالها

فى مكان آخر ، مما يضر بالقارة الأوربية جميعها ولا ريب فى أن لهذا العمل تأثيرا حقيقيا على ألمانيا ، وهو يدل على أن الحلفاء فضلوا جمع التعويضات من المصانع والآلات بدلا من الانتاج الألمانى ، كما كان الحلفاء مدفوعين إلى هذا القرار لارضاء روسيا السوفيتيه كى توافق على الاشتراك فى سياسة بوتسدام التى تقضى بادارة ألمانيا على أنها وحدة اقتصادية . ومن الطبيعى أن روسيا السوفيتية تعتبر بقاء الصناعات الألمانية الكبرى فى الشرق مهددا لسلامتها . وإذا لم ينفذ برنامج نقل المصانع ، فان ذلك يؤدى إلى تقسيم ألمانيا ، وضم القسم الشرقى منها فيما وراء نهر الألب إلى منطقة السلامة الروسية .

ولقد نص اتفاق بوتسدام على الوسائل التى تؤدى إلى اتباع سياسة اقتصادية موحدة فى المناطق المختلفة ، بتوزيع السلع بين المناطق توزيعاً عادلا ، وإنشاء وكالات اقتصادية مركزية ، ولكن هذه النصوص لم تنفذ انتظارا لتعيين الحدود الغربية لألمانيا ؛ ففرنسا تأبى إنشاء إدارة مركزية اقتصادية قبل أن يبت فى مصير الرور وأراضى الرين . ويقال إن روسيا السوفيتية تحاول تأجيل إنشاء هذه الادارة المركزية حتى يتم نقل المصانع والآلات التى تعطى لها على سبيل للتعويض .

وقد اتخذ النشاط الاقتصادى والسياسى فى المناطق اتجاها متباينا ، ففى المنطقة الروسية عمل على أن تكون الصناعات الباقية ملكا للدولة ، وأصرت السلطات على تكوين جبهة متحدة من الأحزاب ونقابات العمال ، وفى المنطقة البريطانية جعلت مناجم الفحم ملكا للدولة ، وأخذت السلطات تقاوم الحركات الثورية ، وشجعت إنشاء حزب اشتراكى ديمقراطى . وأظهر الأمريكيون فى منطقتهم همة فى القضاء على النظام النازى أكثر مما بذله الحلفاء الآخرون وأجروا انتخابات محلية . أما سياستهم الاقتصادية فسلبية .

وقد يكون السبب فى هذا التباين ناشئا عن النيات المتباينة للأمم المحتلة ، على أنه قد يكون أيضا نتيجة لظهور الميول التى تعتمد على القوة المحتلة ، ومهما يكن الأمر فان مثل هذه الخلافات لابد أن تؤدى إلى تقسيم ألمانيا ، إذا لم يتدارك الأمر .

ولقد صارت ألمانيا الآن عبئا على الدول المحتلة ، فعليهم تقع مسئولية إطعامها ، ولا يمكن التخلص من هذه الحال إلا إذا استطاعت ألمانيا أن تكون لها تجارة صادرات ، لسداد ما تحتاج إليه من واردات.

لقد كان سداد التعويضات فى الحرب العالمية الاولى قائما على القروض الأمريكية . ومن البديهى أن أمريكا فى هذه المرة حاولت نقل هذا العبء عن أكتافها ، فاذا لم تكن لألمانيا تجارة صادرات فان سداد ثمن الواردات يقع عبئه على الدول المحتلة ، أو بالحرى على لولايات المتحدة التى تقترض منها الدول ، أو على الأقل الدول الغربية — ما يكفى للقيام بتبعاتها فى ألمانيا . ووقوف ألمانيا على قدميها فى اقتصاد موحد اهم إذن من مسألة نقل المصانع والآلات . وكلما تأخر ذلك كلما زادت اعباء الولايات المتحدة . ويجب على الولايات المتحدة أن تعمل على تنفيذ الاتجاه الأساسى من سياسة بوتسدام ، وهو اعتبار ألمانيا وتنظيمها على أنها وحدة اقتصادية .

ظهر حديثاً

مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى Institutes de Justinien نقله إلى اللغة العربية حضرة صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا (دار الكاتب المصرى)

فى مثل هـذه الأيام من الصيف الماضى تحدث إلى حضرة صاحب المعالى الأستاذ عبد العزيز باشا فهمى فى التليفون يسألنى ألا أستطيع أن أعيره معجما لاتينيا وكتابا فى نحو اللغة اللاتينية . قلت : وماحاجتك إلى هذا العناء فى هذا القيظ المحرق ! قال متضاحكا : إنى معنى ببعض مسائل الفقـه وقد أنسيت ما حفظت من اللاتينية لبعد العهد بأيام الدرس . فان استطعت أن تعيرنى هـذين الكتابين شكرت لك هذا الفضل . وقد أعرت الأستاذ هذين الكتابين دهشا باقدامه على الغوص فى معاجم هذه اللغة القديمة ونحوها على حين كنت أنا أستكره نفسى استكراها على الغوص فى معاجم اللغة العربية وأدبها لشدة القيظ من جهة ، ولأن الحياة المصرية لاتعين على بحث أو درس من جهة أخرى .

ثم انقضت أشهر الصيف ولقيت الأستاذ فى بعض جلسات المجمع اللغوى ، فعلمت منه أنه نقل إلى العربية هذا الكتاب اللاتينى من كتب الفقه الرومانى ، وأنه يريد أن يتيح الانتفاع بما فيه من علم للذين يدرسون القانون فى كليتى الحقوق والذين يدرسون الفقه الاسلامى فى الأزهر الشريف وغيره من معاهد الدين .

ولست أصور دهشتى حين تلقيت من الأستاذ هذا النبأ ، ولست أصور إعجابى بهذه القوة التى لا تعرف ضعفا ، وبهذه العزيمة التى لا تعرف كلالا ، وبهذه المصابرة التى لاتعرف سأما .

لست أصور دهشتى ولا إعجابى ؛ فقد عودنى عبد العزيز فهمى ان يدفعنى إلى الدهش ويضطرنى إلى الاعجاب منذ عرفته حين كنت طالبا معمما ، وحين كان هو محاميا موفور القوة مستكمل النشاط . وما زلت أذكر إعجاب جيل الشباب به حين كان عضوا فى الجمعيـة التشريعية وحين انفق الليـل كاملا متوفراً على درس الميزانية . وما زلت أذكر بعد ذلك انقطاعه لوضع مشروع الدستور وعكوفه على العمل أياما وليالى متصلة فى غرفته بفنـدق من فنادق الاسكندرية فى صيف عام من الأعوام ، لا يلقى الناس إلا ساعة حين ينصرف النهار ويقبل الليل ، يتحدث إليهم ويسمع منهم لحظات ، ثم ينصرف عنهم ليمضوا هم فى أحاديثهم وفكاهاتهم وليستأنف هو عكوفه على وضع مشروع الدستور . وما زلت أذكر امتناعه على النوم ليدرس هذه القضية أو تلك حين كان رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم لمحكمة النقض ، بل ما زلت أذكر تعمقه لقصة الأدب الجاهلى وتحقيقه لما أثير حولها من خلاف حين كانت قصة الأدب الجاهلى ، وتعمقه لقصة الاسلام وأصول الحكم وتحقيقه لكل ماجاء فى هذا الكتاب ولما أثير حوله من خلاف ، ولموقف الدستور من هذا الكتاب وما اثير حوله من خلاف .

فالصورة المستقرة فى نفسى من عبد العزيز فهمى منذ عرفته أنه رجل جد مقدام ، لا يعرف تهاونا ولا ضعفا ولا فتورا ، ولا يستقبل

أمرا من الأمور إلا استقصاه ولا مشكلة من المشكلات إلا قتلها بحثا ، وأبغض شئ إليه الدرس السطحى ، وأثقل شئ عليه نصف العلم . فهو يحب العلم كاملا ما وسع الانسان أن يكمله . ولست أدرى أيحب المتنبى أم يزور عنه ، ولكنى أعلم أنه يشارك المتنبى فيما يرى من أن أقبح ما فى الرجل من عيب هو أن يكتفى بالنقص حين يستطيع الكمال .

من أجل هذا كله لم أدهش حين رأيت عبد العزيز فهمى يندفع فى غير أناة ولا مهل ولا رفق بنفسه فى درس قصة الكتابة العربية : ماقيل فيها منذ أقدم العصور إلى الآن ، لا يفوته من ذلك شئ ، ثم فى محاولة الحل لهذه المشكلة وفيما اقترح من إصلاح الكتابة ، ثم فى الدفاع عن رأيه والجهاد فى سبيله والرد على خصومه يستقصى ما يدور حول هذه القضية فى جميع أقطار الشرق العربى ، فيسجله ويحلله وينقضه لا يعرف فى ذلك هوادة ولا لينا . وقد عرض المجمع اللغوى لاصلاح النحو واختار عبد العزيز فهمى مقررا لهذا الاصلاح ، وإذا هو يغرق فى النحو العربى إلى أذنيه ، وإذا هو يستخرج من دقائقه ويكشف من أسراره ما ينوء بالعصبة أولى القوة من الذين أنفقوا حياتهم فى درس النحو واستقصاء مذاهب البصريين والكوفيين فيه ، حتى استقر فى نفوس زملائه أنه أعلمهم بالنحو وأنفذهم فى مشكلاته . كل ذلك والرجل لم يفرغ لعلوم اللغة العربية ولم يأخذ نفسه بالتخصص فيها ، وإنما ألم بها إلمامات قصارا كما يصنع الرجل المثقف الذى يحب أن يأخذ من كل شئ بطرف . ولكن عبد العزيز فهمى لا يحب أن يأخذ من كل شئ بطرف ، وإنما يؤثر الاستقصاء والتعمق وما يستتبعان من جهد على هذا العلم الناقص اليسير . فكيف به حين يعرض للفقه والقانون ، وهو قد أنفق صفوة حياته فى الفقه والقانون ؟

من أجل هذا تلقيت ما أنبأنى به من ترجمته هذا الكتاب إلى اللغة العربية بما تعودت أن ألقى به أنباءه كلها من الدهش والاعجاب ، ولكنى تلقيت هذا النبأ بشئ آخر غير الدهش والاعجاب ، بهذا الشوق الشديد إلى أن أنظر فى الترجمة وأقرأ نتيجة هذا الجهد العنيف .

وعبد العزيز فهمى متواضع دائما ، يرى أنه مقصر مهما يبذل من جهد ، ومهما يحتمل من مشقة ، ويرى دائما أن همته أبعد من صحته وان آماله ومثله العليا أعظم وأضخم من طاقته المحدودة . وهو من أجل ذلك راض عن نفسه وساخط عليها فى وقت واحد ، راض عن نفسه لأنه لا يحملها أو لأنها لا تحمله إلا على ما يرضى ضميره وعلى ما يقتنع بأن فيه الخير والنفع لمواطنيه ، قد يخطئ وقد يصيب ، ولكنه متوخ دائما للحق والخير والمصلحة كما يتوخى الرجل الكريم كل هذه الخصال . وساخط على نفسه لأنه يطالب إليها أو تطلب إليه فوق ما يطيق الانسان الضعيف مهما يكن حظه من القوة . فكيف إذا نيف على السبعين وقد اعتلت صحته وحملته السن اثقالها ؟

قلت إنه متواضع دائماً فلم يكد يرى دهشى وإعجابى حتى قال : هون عليك فانى لم أترجم هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية وإنما ترجمته من الفرنسية إلى العربية ، ثم قص على القصة التى تقرأها فى مقدمة الكتاب . ولكن الشيء المحقق الذى أشهد به مطمئنا هو أنه لم يؤمن للترجمة الفرنسية أو للتراجم الفرنسية التى اعتمد عليها إيماناً مطلقاً مطمئناً ، وإنما نقد واستقصى وراقب الترجمة واستقصى النصوص وقابل بين التراجم المختلفة ورجح بعضها على بعض ، ولولا ذلك لما استعار من المعجم اللاتينى وكتاب النحو اللاتينى . فالذين يقرءون هذا الكتاب يجب أن يطمئنوا

إلى أنهم لا يقرءون ترجمة ثانية عن ترجمة أولى، وإنما يقرءون كتاباً ترجم عن أصله اللاتيني، وكانت تراجمه الفرنسية هاديا للأستاذ ودليلا ولا سيما إذا لاحظنا أن المترجمين الفرنسيين من الفقهاء الممتازين الذين يهتدى برأيهم فيما يكون من تأويلهم للنصوص وتعليق عليها.

ولهذه الترجمة العربية لكتاب لاتيني في الفقه الروماني خطرها العظيم من نواحي مختلفة أشد الاختلاف. فنحن نعلم أن سلفنا قد نقلوا من اليونانية إلى العربية، ونقلوا من الفارسية والهندية إلى العربية أيضاً، ونقلوا كذلك من السريانية إلى العربية، ولكنا لا نعلم أنهم نقلوا في الشرق العربي على الأقل من اللاتينية إلى العربية، فاذا لم أكن مخطئاً فعبد العزيز فهمي هو أول من نقل من هذه اللغة إلى اللغة العربية في بلاد المشرق. وليس هذا بالشيء القليل وأحسبه شيئاً كثيرا جداً ولاسيما حين نقرأ الكتاب، ونرى أن بين هذا الفقه الروماني وبين كثير من فقهنا الاسلامي تقارباً وتشابها واتحاداً أحياناً، وأن هذا كله لا يمكن أن يكون نتيجة المصادفة وتوارد الخواطر. وهنا تنشأ المسألة الخطيرة الثانية كيف تأتى للمجتهدين من فقهائنا أن يظهروا على دقائق الفقه الروماني إذا كان هذا الفقه لم يترجم لهم كما ترجمت لهم فلسفة اليونان وثقافة الفرس والهند؟ وناحية خطيرة أخرى لهذه الترجمة هي أن طلاب القانون عندنا كانوا إلى الآن يدرسون ظاهراً من الفقه الروماني يسمعونه من أساتذتهم لا يستطيعون أن يرجعوا فيه إلى أصل معتمد. ويحزنني أن أقول إن الأساتذة أنفسهم لا يرجعون في هذا الفقه إلى أصوله الأولى، وإنما يرجعون إلى ما كتبه الفقهاء الأوربيون أو ترجموه، وهم يرجعون إلى ما كتبوا أكثر مما يرجعون إلى ما ترجموا. فالفقه الروماني الذي يصل إلى طلابنا في كلية الحقوق، إنما يصل إليهم شاحبا ممتقع اللون قد فقد كثيرا من خصائصه التي تمنحه القوة والخصب، لأنهم تلقوه عن اليد الثالثة أو عن اليد الرابعة لا عن اليد الثانية التي استقته من أصله اللاتيني. والمعروف أن أساتذة الفقه الروماني عندنا لا يحسنون اللاتينية، ولا يحفلون باتقانها، ولا يغرون تلاميذهم بدراستها، لا أكاد أستثني منهم إلا واحداً ترك مهنة التعليم. فهذه الترجمة ستتيح لطلابنا أن يقرءوا الفقه الروماني قراءة مباشرة، وأن يستخرجوه من معدنه ويستنبطوه من ينبوعه. ولا أشك في أن هذا سيفتح لهم آفاقاً لم تفتح لهم من قبل وسيغريهم بدراسات لم تكن تخطر لهم على بال.

وناحية أخرى لخطر هذه الترجمة، فطلابنا الأزهريون يتعمقون دراسة الفقه الاسلامي ولكنهم يدورون منه في غرفا مغلقة لا تنفذ إلا إلى المعروف من أصول الفقه الاسلامي. وهم سيقرءون هذا الكتاب وسيعلمون أن أمما أخرى قد تعمقت الفقه كما تعمقه المسلمون، وكان فيها مجتهدون يستعرضون المشكلات وينفذون منها وييسرون للناس ما تعرضه عليهم حياتهم اليومية من الأمور المعقدة. وكان هؤلاء المجتهدون يستقبلون هذه المشكلات كما كان المجتهدون المسلمون يستقبلونها، وكانوا يحلونها ويتصرفون فيها على أنحاء قريبة جداً من الأنحاء التي كان المجتهدون المسلمون يعمدون إليها. فسيلقى طلابنا الأزهريون على أنفسهم أسئلة وسيجدون في أنفسهم أجوبة لهذه الأسئلة، وسيعلمون أن العزلة لم تقسم لشعب متحضر وأن الأجيال على اختلافها وتباينها لا تعدم وسائل لتداول الحضارة وعناصرها مهما يكن بين هذه العناصر من التباعد والاختلاف، وسيطالب الأزهريون بمزيد من العلم وسيحرصون لا على أن يعرفوا فقه الرومان وحدهم، بل على أن يعرفوا فقه أمم أخرى قديمة وحديثة، وستفتح لهم آفاق

أوسع جدا وأبعد جداً من الآفاق التى فتحت لطلاب الحقوق فى الجامعتين .

وناحية أخرى تبين خطر هذه الترجمة وهى أن المترجم لم يكتف بالنقل الدقيق الأمين، وإنما كان فقيهاً وفقيهاً بأوسع معانى هذه الكلمة ، فقيها تعمق الفقه الاسلامى والفقه الحديث الأوروبى والشرقى ، وأراد فى كثير من المواضع أن يدل على الصلة بين الفقه الرومانى الذى يترجمه وبين هذه الألوان المختلفة من الفقه القديم والحديث .

فالذين سيقرءون هذا الكتاب لن يقرءوا ترجمة فحسب ولكنهم سيقرءون شروحا وتعليقات ، لعلها أن تكون أقوم من النص نفسه . وليس عبد العزيز فهمى مؤرخا لا للفقه الرومانى ولا للنظم الرومانية . ولعلى لا أخطئ إن قلت إنه لم يقرأ من كتب التاريخ الرومانى المفصل إلا ما يقرؤه المثقفون الذين يرتفعون بأنفسهم عن الجهل ، ولكن لعبد العزيز فهمى على هذا حدسا غريبا مدهشا حقا . فهو قد يلقى الكلمة اللاتينية أو الفكرة الرومانية قد اختلف الفقهاء الفرنسيون فى تفسيرها وتأويلها ، وإذا هو يفسرها ويؤولها على النحو الذى انتهى إليه فى هذه الأيام أشد المؤرخين والفقهاء تعمقا لفقه الرومان وتاريخهم . وهذا كثير جداً فى الكتاب ، ولكنى أضرب له مثلا بما فسر به عبد العزيز فهمى معنى الجنس ومعنى الولاء فقد كان الفقهاء الذين استعان بهم على ترجمته يختلفون فى هذين البابين ويذهبون فيهما مذاهب لا يلائم بعضها بعضا ؛ لأن حقائق التاريخ الرومانى لم تكن فى عصرهم قد ظفرت بالجلاء الذى أتيح لها منذ أواخر القرن الماضى . لم يكونوا قد ظهروا على نظريات فوستل دى كولانج ومن جاء بعده فى نظام « المدينة القديمة » وفى معنى الجنس والقبيلة ، ولم يكونوا قد قرءوا الفقه الرومانى الخاص والعام كما عرضه مومسن ونظراؤه بعد أن استكشفت النقوش اللاتينية واليونانية التى لا تحصى ، وبعد أن وضعت موضع الدرس والنقد والمقارنة .

ومن المحقق أن عبد العزيز فهمى لم يقرأ من هذا كله شيئا ؛ لأنه لم يفرغ للبحث النظرى ولم يخصص نفسه فى تاريخ الفقه . ولكنى حين رأيته يفسر الجنس كما فسره ويفصل أمور الولاء كما فصلها فى تعليقاته الكثيرة لم أشك فى أنه قد رجع إلى هذه المصادر التاريخية ورجع على الأقل إلى المعجم التاريخى العظيم *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines* de Daremberg et Saglio.

فلما سألته فى ذلك تبينت أنه لم يتكلف من هذا كله شيئا لأن صحته لم تتح له فيما يقول أن يؤدى لهذا البحث حقه . فاعجب إذن لهذا التوافق المدهش بين حدس عبد العزيز فهمى ونتائج البحث التاريخى الدقيق. أما أنا فلست أخفى عليك أنى أسفت أشد الأسف لأن هذا الرجل لم يتخصص فى درس التاريخ القديم ، ولكنى أسفت أيضا أشد الأسف ذات يوم لأن هذا الرجل لم يفرغ للتخصص فى اللغة العربية وعلومها . وعبد العزيز فهمى من الذين لا يكادون يعرضون لشئ حتى يشعروك بأنهم وقفوا حياتهم عليه وتفوقوا فيه تفوقاً رائعاً حقاً .

وناحية أخرى لخطر هذه الترجمة وهى أن الكتاب قد أصدره قيصر من قياصرة الروم فى القرن السادس للمسيح بعد أن كلف لجنة من الفقهاء البارعين إعداده وعرضه عليه وبعد أن قرأ ما أعدت هذه اللجنة ونقده وغير فيه فحذف منه وأضاف إليه ، وهو من هذه الناحية خلاصة للفقه الرومانى الذى اشتغل به أئمة الفقهاء الرومانيين أكثر من ألف عام خضعت فيها روما لنظام الملك وللنظام الجمهورى وللنظام الامبراطورى . وقد حرص

جوستنيان ، وحرص مترجموه من بعده ، وحرص المترجم المصرى على أن يبينوا فى إيجاز ما بين الأحكام التى اشتمل عليها هذا الكتاب وبين الأطوار المختلفة للتشريع الرومانى من صلة . فأصبح هذا الكتاب كتابا فى الفقه وفى تاريخ التشريع عند الرومان .

فالذين سيقرءون هذا الكتاب سيقرءون فقهاو تاريخا معا . وكان جوستنيان نفسه مشرعا محبا لتتبع القوانين وإصلاح ما يحتاج منها إلى الاصلاح . وهو يصدر بهذا الاصلاح مراسيم ومنشورات أشير إلى بعضها فى الكتاب وترجم بعضها ترجمة كاملة ألحقت بالكتاب . ثم لم يكتف عبد العزيز فهمى بنشر الكتاب وملحقه هذا ، بل أضاف اليه ملحقاً آخر ترجم فيه طائفة صالحة من القواعد العامة لأصول التشريع عند الرومان .

وقد أصدر جوستنيان هذا الكتاب رفقاً بطلاب الفقه والحقوق . وترجم عبد العزيز فهمى هذا الكتاب خدمة لطلاب الفقه والحقوق . وما أظن أن عبد العزيز فهمى يقبل منى شكرا أو شيئاً يشبه الشكر على هذا الجهد ، ولكنه يقبل منى فى غير شك إقتراحاً يسيراً جداً وهو أن يضيف إلى الكتاب حين يعيد طبعه ثبتا بما فيه من الأسماء والمصطلحات ، مع ما قد تحتاج إليه هذه الأسماء والمصطلحات من شرح وتفسير . ذلك أحرى أن تتم الفائدة ويعم النفع ، ولا سيما بالقياس إلى الذين ليس لهم إلا حظ متواضع من ثقافة فى الفقه والتاريخ .

وقد أراد عبد العزيز فهمى أن ينفق ما قد يغله هذا الكتاب من ربح فى تشجيع طلاب الحقوق بجامعة فؤاد الأول . وتفضل فكلفنى للقيام عنه بذلك . وهو لن يقبل من الطلاب على جهده وطيب نفسه إلا لونا واحدا من الشكر وهو قراءة هذا الكتاب فى عناية وتفهم . ولو أنى كنت مسموع الكلمة عند الأستاذ الأكبر وعند مديرى الجامعتين لألححت عليهم فى أن يكون هذا الكتاب مادة من مواد الدرس لطلاب الفقه والقانون على إختلافهم ، ومن يدرى لعلهم لا يحتاجون منى إلى هذا الالحاح . فهم أبصر بحاجة الطلاب إلى مثل هذا اللون من ألوان العلم .

طه حسين

القاهرة الجديدة قصة للأستاذ نجيب محفوظ (لجنة النشر للجامعيين — القاهرة)

قصة ، ومن يقرأ عنوانها تثب إلى رأسه معان كثيرة ولكن لا يخطر فى باله ألبتة أن يكون ذلك عنوان قصة ، وذلك بعض فن الأستاذ نجيب محفوظ ، والأستاذ نجيب محفوظ فنان مطبوع وقاص له خصائصه الفنية . وليست قصة «القاهرة الجديدة» أولى قصصه ولن تكون آخرها ؛ إن له عينا ترى ما لا تراه الأعين ، وله أذناً تسمع ونفسا وخاطراً ينفعل بكل ما يرى وما يسمع وما يحس ، ففى كل مشهد تقع عليه العين العابرة يجد الأستاذ محفوظ نواة قصة زاخرة بالحياة والفن !

ولكن لماذا اختار المؤلف لقصته هذا العنوان الموهم ؟ وهل قرأت له منذ قريب « خان الخليلى » ؟

لقد كان القدماء يعالجون الجغرافيا باعتبارها أرضاً وسماء ومناخاً وغلات وسكاناً من الناس أو من الحيوان ؛ ولكن عناوين بعض قصص الأستاذ محفوظ كأنما يعنى بها أن الجغرافيا

فى رأيه ، أو فى فنه ، هى جغرافيا الناس لا جغرافيا المكان ؛ فأنت تقرأ عنوان « القاهرة الجديدة » تلتمس أن تطالع حديثا عن الجغرافيا كما يعرفها القدماء ، فاذا بين يديك حديث آخر عن الجغرافيا كما يراها هذا الجغرافى الفنان : أرض الحادثة وسماء الفكر وجو الأعصاب ؛ وإذا رياح وعواصف ولكن مما يثور فى داخل النفس لا فى ظاهرة الحياة . . .

هى قصة إذن يصف بها « القاهرة الجديدة » على أسلوبه فى فهم جغرافيا الناس فى هذا الجيل من الشبان والشابات الذين يعيشون على ظهر هذه الأرض التى تسميها الجغرافيا القديمة « القاهرة » ، فى هذا « الجو » العاصف من الآراء والنزعات الجديدة التى تلف حياة الشبان والشابات ، بل الشيوخ والشيخات أيضا فى هذه الأيام !

ولكن ما هو موضوع القصة على التحديد ؟ هذا هو السؤال الذى أوثر ألا أجيب عنه الساعة ؛ لأدع لكل قارئ فرصة يلتمس فيها الجواب بنفسه بقراءة القصة ؛ وليس عبثا ما يضيع من وقت فى قراءة قصة من قصص نجيب محفوظ !

تمنيت لو خلت هذه التحفة الفنية البديعة من بعض الهنات فى أسلوب القول وفى الاعراب والبيان ، ولكنها هنات ضئيلة لا تبخس قيمة هذه التحفة التى تستحق التنويه والاعجاب !

دعوة الربيع بقلم الأستاذ فؤاد شاكر (دار إحياء الكتب العربية — القاهرة)

الأستاذ فؤاد شاكر أديب وشاعر يحاول فى هذا الكتاب لوناً طريفاً من « أدب الرحلات» وهو يصف فيه رحلته وطائفة معه من أعيان الحجاز وأهل الرأى فيها إلى نجد ، تلبية لدعوة كريمة من حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وفى ركبه الميمون فى ربيع سنة ١٣٦٠ (شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١) وكانت رحلة ميمونة اقترنت بغيث هاطل فى نجد والحجاز أتى بأطيب الثمرات وحقق معنى الربيع ، ومن ثمة كانت تسمية الرحلة .

ولم يلتزم المؤلف فيما يصف من رحلته ورحلة أصحابه ما كان يلتزمه من قبل كتاب الرحلات من الاقتصار على وصف الديار والآثار والناس ، فانه لأديب وشاعر ، وإنه فى هذه الرحلة لضيف ملك كريم له مآثر مذكورة فى كل مرحلة من مراحل السفر وكل منزلة من منازل الاقامة ، ومن ذلك كان كتاب هذه الرحلة شيئاً طريفاً بين كتب الرحلات ، فيه إلى جانب المشاهدات الطريفة فى الرحلة من الآثار والديار نفحات أدبية رائقة ، وفيه شعر ونثر ، وفيه محاورات وطرائف ، وفيه تحقيقات تاريخية وأدبية ولغوية جاءت عفو الساعة لمناسبتها ، ولكن فيها تدقيقاً وبحثاً وآراء لها تقدير واعتبار ، وفيه إلى ذلك تعريف بطائفة من أعيان الجيل فى نجد والحجاز قد يكون فيه غداً مادة بحث اجتماعى وتاريخى .

وقد صدر المؤلف كتابه بمقتطفات رائعة مختارة من أحاديث وأقوال جلالة الملك عبد العزيز آل سعود أيده الله ، وختمه بفصل فى الحديث عن أسرته وتاريخه وأعماله وبعض ما يؤثر عنه من خلال الخير وشمائل الأكرمين — وقدم له الأستاذ العقاد بمقدمة بليغة تحدث فيها حديثاً معجباً عن طبيعة التاريخ فى الأمة العربية .

وهو على الجملة كتاب يشتمل على فنون شتى ، ومن حق كل قارىء عربى يعنيه أن يتزود بجديد من العلم عن المملكة العربية السعودية الناهضة وعن نجد والحجاز موطن الشعر والحكمة — أن يلتمس زاده فى هذا الكتاب .

عاطفة الحب للدكتور محمد فتحى (مكتبة مصر ومطبعتها — القاهرة)

هذا كتاب شاب فى السادسة والعشرين من عمره ، وهذه الحقيقة هى أول سطر فى كتابه الذى بلغت صفحاته بضعا وثلاثين ومائتين كلها حديث عن الحب . أتراه حين يذكر تاريخ مولده فى أول سطر يكتبه ، ثم يتبعه ببضعة عشر سطراً فى الحديث من نفسه فى أول صفحة من الكتاب — يريد أن يدل بشبابه وصفاته ، ولكنه — فيما يبدو — ليس من أهل الادلال وإن يكن شابا ؛ فهل تراه يريد — فى حديث ضمنى — أن يقدم للقارئ المبررات التى حملته على بذل الجهد فى تأليف شتات هذا الكتاب ، بذكر شبابه وصفاته ، ومن حق الشباب أن يتحدث عن الحب ! أم لا هذا ولا ذاك ولكنه يريد فى أول صفحة من كتابه عن عاطفة الحب أن يعرض « صحيفة أحواله » على من يعنيه أن يعرضها عليه ولا يعنيه أن يعرضها على سواه ؟ أعنى : أكانت هذه الصحيفة التى يتحدث فيها عن نفسه مقصودة لقارئ واحد من بين مئات القراء ، أو آلاف القراء ، الذين يقدم إليهم كتابه ، فهى رسالة خاصة إلى « محبوب » فى كتاب عام يقدمه إلى من يحب ومن لا يحب ؟

وكانت الصفحة التالية هى الاهداء :

« إلى من أحب

« وإلى من لا أحب

« وإلى الفتيات والفتيان فى كل عصر

« إلى الملائكة لئلا تنقلب شياطين

« وإلى الشياطين عساها تهتدى . »

وهيهات !

ثم تتابع بعد ذلك صفحات الكتاب : بضعا وثلاثين ومائتى صفحة كلها حديث عن الحب !

هذا عناء لا يصبر عليه إلا عاشق ! فيا رحمة الله لمؤلفه وقارئه !

ولكنه كتاب أحسبه حقيقا بأن يقرأه الآلاف ، وأن يصبروا على قراءته ، بل أن يجدوا فى قراءته متاعاً ولذة ، وإن لم أجدلى أنا صبرا على قراءته ، ولم أجد فيما قرأت من صفحاته إلا آلاما شجية ؛ أما الآلاف الذين سيقرءونه ويصبرون على قراءته ويجدون فيما يقرءون أنسا وارتياحا ولذة فهم العشاق الذين لا يزالون فى اللجة ولم تقذفهم أمواج الحياة بعد إلى الساحل ، وأما أنا . . . ولكنى أوثر ألا أتحدث عن نفسى فى هذا الباب وقد قذفتنى الأمواج على الشاطئ جسداً طريحا ليس فى يديه من ماضيه إلا ذكريات وآلام شجية وحوله من أشلاء أمانيه ثلاثة أطفال بلا أم !

ماذا أقول عن هذا الكتاب غير هذا الذى وصفت من آثاره فى نفسى ؟

لست أملك قولا بعد ، إلا أن أنصح كل مؤمن بالحب أن يقرأه ، فسيجد فيه نوعاً من التربية الوجدانية ترتفع به إلى آفاق الانسانية العالية ، من باب الملذات أومن باب الآلام !

الميثاق القومي العربي (منشورات مجلة عالم الغد — بغداد)

هذا كتاب صغير، على قدر راحة الكف، لا يتجاوز بضع عشرة صفحة، ولكن فيه — على صغره — صورة واضحة للمعالم والسمات للنهضة العربية الحديثة وما يجيش في نفوس أهل العربية جميعاً على اختلاف مواطنهم المحلية ونوازعهم الفردية.

هو ميثاق اجتمعت لتحريره، أو لترجمته من لغة النفس إلى لغة الحديث، طائفة من شباب العراق أرادوا أن يجعلوه تعبيراً صريحاً عما يخالج نفس كل عربي من أماني تتصل بمعنى القومية العربية المشتركة، وتصويراً للوعي القومي الذي تمخضت عنه الأحداث الأخيرة في بلاد العرب، وإنهم ليأملون بنشره وإذاعته أن يتخذه كل عربي هدفاً وقبلة، وأن يتواثق على العمل لتحقيقه كل أبناء العروبة، ولذلك سموه ميثاقاً.

ولقد يقع في وهم بعض من لم يقرأ هذا الميثاق مكتفياً بالعنوان عما وراءه، أنه برنامج محلي أو طائفي، أو حزبي، لجماعة يريدون أن يحملوا غيرهم على متابعتهم فيه ومشايعتهم على الايمان به والعمل له. وما هو كذلك فيما أرى، ولعلي لا أعدو الحقيقة إن خرجت به عن مدلوله السياسي فسميته محاولة فنية موفقة لتصوير حقيقة ماثلة في نفس كل عربي فهو تعبير لا إنشاء؛ نعمل واضعيه هو عمل الفنان لا عمل السياسي.

ويقول الناشر في مقدمته إن منشئيه قد ساخوا ستة أشهر في تحبيره — على صغره — وهو قول يؤيده ما في عبارة الميثاق من الدقة والصدق وروح الاتزان، فكأنه في معانيه المحدودة الواضحة معاهدة سياسية قد صاغ حروفها أبرع المفاوضين وأوسعهم أفقاً، وأكثرهم إدراكا لشتى الاحتمالات وما تقتضيه من أسباب التحفظ والاحتياط وتحديد الألفاظ لمدلولاتها ومعانيها.

وإنها لمناسبة طيبة أن ينشر هذا الميثاق في هذا الوقت الذي يتحدث فيه العالم كله عن العرب وما يتنورونه من أهداف يأملون أن يبلغوها في المستقبل القريب؛ ليكون هذا الكتيب تعريفاً بالعرب في نهضتهم، وفي هذا الوقت الذي تحاول فيه جامعة الدول العربية أن يكون لها عمل إيجابي تتحقق به أماني العرب في الحرية والاستقلال بتحديد معنى القومية المشتركة؛ لتعرف «الجامعة» في ضوء هذا الميثاق أي سبيل تسلك لتثبت وجودها الايجابي وتحقق الأمل المعقود بها؛ وفي هذا الوقت الذي يخالج فيه نفس كل عربي شعور غامض بما عليه من تبعات وبما تفرض عليه عروبته من واجبات ينبغي أن يؤديها لأمته وإن لم يدرك ما هي على وجه اليقين والتحديد؛ ليعرف كل عربي هدفه ويرى في مرآة هذا الميثاق صورة نفسه وحدود واجبه.

ويتألف هذا الميثاق من خمس وعشرين مادة، تبدأ المواد الأولى منها بتحديد معنى العرب والوطن العربي، وتنتهي بالمادة الخامسة والعشرين وهي مادة «القسم» الذي يجب أن يقسمه كل عربي يؤمن بعروبته؛ وفيما بين المادة الأولى والأخيرة يتحدث الميثاق في جلاء ووضوح وتحدد عن المقومات العربية والقومية العربية وخصائص الحركة القومية والنظام السياسي والتشريع، والشئون الاقتصادية والمالية، والأهداف الاجتماعية.

ألا ما أحق كل قطر عربي أن تتألف فيه شعبة تعمل على التماس الأسباب لتحقيق

هذا الميثاق ! بل ما أحرى أن يكون فى كل حاضرة وبلد وقرية شعبة من هذه الشعب تتعاون كلها على العمل له وتثبيت معناه والتدرج به من مرحلة الفكرة إلى مرحلة العقيدة ، فلسنا نشك أن معانى هذا الميثاق فكرة قائمة فى كل نفس ، وليس ينقصها لكى تخرج إلى عالم الحقيقة إلا أن تكون إيماناً فى كل قلب !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

الاشتراكية حركة رجعية !

يسائل الأديب عبد الغنى شوق فى العدد الثانى والعشرين من مجلة « الغرى » التى تصدر فى النجف : « هل الاشتراكية حركة علمية ؟ » ثم يحاول الاجابة عن سؤاله ، فينفى أن تكون الاشتراكية حركة علمية تقدمية ويزعم أنها — على العكس — حركة رجعية ، فليست هى كما يزعم أهلها حركة مبنية على التطور التاريخى للماضى والظروف الاقتصادية الحاضرة ، فيقول : « إن التطور التاريخى يثبت أن الاشتراكية أبسط وسائل الامتلاك واحطها ، وأنها إذا كانت مطبقة فى العصور الموغلة فى القدم ، فلأن الأمم التى طبقتها لم تخرج فى ذلك الوقت من ظلمات الهمجية والبداوة إلى نور الثقافة والتحضر ، فقد كانت أرض كل قبيلة ومصايدها ومجارى مياهها مشتركة مابين أفرادها ... ويدلنا التطور التاريخى على أن نظام الملكية أخذ يتطور بنسبة ترقى الانسان فى مدارج التحضر وأن ذلك النظام تغير من اشتراكية القبيلة إلى اشتراكية الأسرة ... والتغير الأساسى الذى حصل فى نظام الملكية حدث عندما أخذ الانسان يزاول الزراعة . فالذين اهتدوا إلى الزراعة وأخذوا يعيشون من ثمرات مزارعهم لم يكونوا يشركون غيرهم فيها ، ومع هذا فان اشتراكية الأسرة بقيت ثابتة ... على أن شيوعية الأسرة لم تلبث أن محيت لدى الشعوب الآخذة بأسباب الحضارة ، وتخلصت الملكية من النظام الاشتراكى العائلى إلى نظام الملكية الفردية التى أصبح بموجبها كل فرد يمتلك بمفرده ثمار أتعابه ونشاطه وذكائه ، سواء أكان زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو مخترعاً ... وعلى هذا يمكننا أن نقول إن دعوة الاشتراكيين والشيوعيين إلى إرجاع نظام الملكية إلى ما كان عليه فى أحط أدوار التاريخ إنما هى دعوة رجعية دون شك وإن لقبوها بأنها تقدمية ! »

اسقنيها ذكرى !

فى العدد الثانى عشر من مجلة «عالم الغد» البغدادية قصيدة فريدة للشاعر سليمان احمد للعيسى ، نظمها لمناسبة ذكرى الثورة العربية الكبرى ، وضمنها خفقات قلبه النابض بأمانى العروبة وأحلامها ، يفتتحها بقوله :

هاتها ... تلك خمرة الأمجاد   أنا صاد ... وأنت ياشعر ... صاد
اسقنيها ذكرى تدور بى الد   نيا على نخبها ... وأندى رشادى !
وأرى الكون كله لمحات   من سنا عبقرية الأجداد !

ويقول فيها لمناسبة الجلاء عن سوريا :

أبلغ الشام وهى مائجة الأفـ راح نشوى من فجرها المتهادى
وأغانى الجلاء تلعب بالعو د كما تشتهى . . . وبالعواد
والسكارى مرنحون مع الألـ حان والغيد زغردات وداد
قل لها والقفار تفصلنى عنـ ها وأطيانها مقيم وغاد :
لم يحن بعد موعد العرس فيحا ء ولا جر عاطر الأبراد
ما أرى الشمل فى التئام على الكأ س ولا مجلس الهوى فى اتحاد
هل سألت النادى وسامره الغا رق فى العيد عن شهيد النادى
قل لصهيون : دون أحلامك السو داء عض الشجا ولسع القتاد
لا يغرنك الهدوء على الغا ب وتطمعك هجعة الآساد
إن سبعين ألف ألف حسام عربى الحدين بالمرصاد !

الشعر السياسى فى العراق

ويعالج الأديب صلاح الدين خالص موضوع « الشعر السياسى العراقى فى مطلع القرن العشرين » فى العدد الثانى والعشرين من مجلة « الرابطة » التى تصدر فى بغداد ، فيصف حال الدولة العثمانية — سيدة العراق فى أوائل هذا القرن — ويتحدث عن أثر السياسة العثمانية فى الشعر العراقى ، فيقول :

« أما شعراء العراق فى هذا القرن ، فنرى بعضهم ييأس من الاصلاح فى ظل الدولة العثمانية ويتجه اتجاهات مختلفة متباينة قد تدل على قصر نظر وقلة إدراك . . . وأعنى بذلك ما قاله الزهاوى فى قصيدة عنوانها ولاء الانكليز :

وجدت الانكليز ذوى احتشام أباة الضيم حفاظ الذمام !
إذا بهم احتمى المذعور يوما رأى منهم له أقوى محام !

« وهو رأى غريب فى بابه . . . وقد يكون للزهاوى فريق يؤيدونه فى رأيه ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه أن هذا لم يكن رأى الجميع ؛ فقد كان هناك فريق من الأدباء والشعراء فى مقدمتهم الرصافى يرون الدولة العثمانية دولتهم : فى عزها عزهم وفى خذلانها خذلانهم ، يتضح لنا ذلك من قوله يؤنب أهل مصر على الاحتفال بعرس كريمة الخديو فى الوقت الذى اندحر فيه الأتراك فى البلقان ، يقول :

« أيها المولمون فى مصر مهلا إن إيلامكم لنا إيلام !
أتغنيكم القيان بيوم قام فى مأتم به الاسلام ؟
أشماتاً بالمسلمين وقد دا رت عليهم بنحسها الأيام ؟
أم تريدون أن تكونوا كقوم أسكرتهم بين القبور مدام ! »

كنوز الفقراء !

وهذه مجلة جديدة من مجلات الشرق حقيقة بالتنويه ، أعنى مجلة « صوت المرأة » التى تصدر فى بيروت . وبين يدى اليوم منها عدد يوليو ، وقد كنت أتمنى أن يتاح لى أن أعرضها للقراء عرضاً مسهبا ليعرفوا أن فى العربية اليوم مجلة نسوية خليقة بأن توصف . . لولا ضيق هذا المجال ، فحسبى فى وصفها أن أقتبس لقرائى فقرات من هذا العدد الذى بين يدى .

فهذه مقالة للمرحوم عمر فاخورى بعنوان « كنوز الفقراء » يحكى فيها بأسلوبه النابض أسطورة لبنانية ذائعة ، ثم يقول :

« ليس خلق عالم على هامش عالمنا هذا ، أو تصور وجود غير هذا الوجود العادى ، وقفا على وحى الأنبياء وخيال الشعراء ، فان للعامة فى هذا الخلق والابداع اليد الطولى ؛ بل لعل الأنبياء والشعراء يستقون من هذه الينابيع التى لاتفتأ تفيض فى كل عصر ومصر ولا يغيض ماؤها ابدا : الآداب العامية ؛ فاذا كان فى الأمر بعض الشك ، فان الشعوب بالأقل تلتقى مع أنبيائها وشعرائها فى صعيد واحد ، لكفاية الحاجة الانسانية العامة الدائمة إلى الخوارق والأعاجيب ، أى إلى كل ماهو « فى خارج » هذا العالم ونواميسه وحقائقه المألوفة . وإن فى الآداب العامية ، أو « الفلكلور » كما يسميها الأفرنج لطرائف شائعة ممتعة غزيرة المعانى ، سواء الأقاصيص والأمثال أم الأساطير والعقائد . »

الحب فى الشعر العربى

وفى العدد نفسه من مجلة « صوت المرأة » مقال للآنسة مارى عجمى بهذا العنوان تتحدث فيه عن أدوار الحب وتطور معناه مع البشرية ، فتزعم أن الحب كان فى أول أطواره ماديا يقف عند حد التعبير الجنسى ، ثم انتقل مرحلة فصار بين المادية والروحية فهو يعنى تارة بوصف الجمال حيث كان ، وتارة بجمال العقل والخلق وطهارة النفس ، ثم انتقل مرحلة أخرى بعد هذه المرحلة حين أيقن الناس أن وحدة الجمال تجمع بين الخلق والخلق وأن الفصل بين العاطفتين عقم أو خروج عما رسمته الطبيعة للبشر . . . ثم راحت بعد هذا التمهيد تتحدث عن الحب بمعانيه الثلاثة فى الشعر العربى ، فتزعم أن العرب فى الجاهلية « الأولى » عرفوا الحب فى طوره الثالث ، وتستشهد لذلك بشعر للشنفرى الشاعر الفاتك ؛ أما شعراء الجاهلية « الثانية » فكانوا أكثر تشبيبا بجمال الوجه والجسم « وأنهم كانوا يفعلون ذلك محاكاة لليونان فى نحت التماثيل » ! فالنابغة الذبيانى حين يصف « المتجردة » امرأة النعمان ، وشاعر « اليتيمة » حين يصف صاحبته متسائلا : « هل بالطلول لسائل رد ؟ » والمنخل اليشكرى حين يتحدث عن قصته مع صاحبته فى « اليوم المطير » — كل أولئك فيما تزعم الكاتبة من شعراء الحب فى طوره الأول ، ومن المتأثرين باليونان فيما نحتوا من تماثيل !

وبعد أن تسوق الكاتبة طائفة من الأمثلة تقول :

« فما تقدم يتضح لنا أن شعراء الجاهلية الثانية لم يتجاوزوا طور الحب الاول . . . ولكن الشعر الاسلامى — على وفرة ماتضمنه من الوصف المادى — يتخلله الروحى . وأكثر الشعراء سموا هم شعراء البدو، وزعيمهم جميل بثينة . . . أما سائر الشعر الاموى الحضرى فمعظمه مادى ، ومثله الشعر فى الدولة العباسية . . . وفى أواخر العصر الاموى بدأت الدعابة فى الغزل ، وكثرت فى العصر العباسى حتى بلغت حد السفه والمجون ؛ قال أبو نواس :

« يا قمراً أبصرت فى مأتم ... يندب شجوا بين أتراب
لا زال موتاً دأب أحبابه ... ولا تزل رؤيته دابى ! »

لانقاذ الحضارة

وفى عدد أغسطس من مجلة « الأديب » البيروتية كلمة للأستاذ قدرى حافظ طوقان عنوانها « السبيل لانقاذ الحضارة » يقول فيها :

« إن الامم لا تصلح بالعلم وحده ، وإن التقدم فى الاختراع والاكتشاف لم ينج الانسانية مما حاق بها من مصائب وويلات ، بل الواقع أن هذا التقدم فى المادية زاد المشاكل تعقيداً وسلب العالم راحة البال وطمأنينة النفس ، وأثبتت الأوضاع أن التقدم العلمى وحده لم يستطع تثقيف الرغبات والنوازع الانسانية ، وهو يهدد بزوال ما بقى من معالم الحضارة وآثار الفكر والعقل . ويرى فريق من كبار المفكرين أن الانسان إذا استمر فى عجزه على إدماج العلم بأغراض الروح والخلق فستبقى قوى العلم فى اتجاهها نحو التدمير والهدم وتزيد المشاكل وتتضاعف المتاعب ، فلا يخرج من محنة إلا ويجابه محنة أشد وأنكى . »

المجاعة الأدبية !

وفى العدد نفسه من مجلة الأديب يناقش الأديب سهيل إدريس دعوى الأستاذ عبدالله المشنوق فى العدد الماضى من مجلة الأديب ، التى يزعم فيها أننا فى « قحط أدبى لم يسبق لنا أن شاهدنا له مثيلا فى ماضيات أيامنا . . . » لأن كبار أدبائنا — فيما يزعم — قد انصرفوا عن الأدب الرفيع إلى الصحافة ، وقد أشرنا إلى هذه الدعوى فى بعض مااقتبسناه من الحديث فى العدد الماضى عن الأدب والصحافة .

ويمنف الأستاذ سهيل إدريس فى مناقشته لدعوى الأستاذ المشنوق فيقول :

« إن الكاتب يبتدئ هنا كمؤرخ للأدب ، والمؤرخ عالم ينبغى أن تتوفر لديه الرصانة العلمية ، والدقة فى البحث ، واستيفاء الموضوع من كافة نواحيه ، والنزاهة والبعد عن التحيز . ونعتقد أن البحث العلمى الرزين حين يتناول جيلا من الأدباء وتياراً من الأدب يجب أن يستغرق أكثر من صفحة واحدة مهما كان غنيا بالآراء الصحيحة والنظرات الصائبة . »

ثم يمضى الأستاذ سهيل فى مناقشة دعوى الأستاذ المشنوق فقرة فقرة ، رفيقاً حيناً وقاسيا حينا آخر ، مستشهداً بأمثلته من إنتاج الأدباء المعاصرين فى نقض دعوى المجاعة الأدبية ، مدافعا عن أدبائنا الكبار الذين وصفهم الاستاذ المشنوق بما وصف مما نقلنا بعضه فى اقتباساتنا للشهر الماضى ، ثم يختتم مقاله بالوعد بمعالجة الموضوع « فى جو من الدراسة والتحليل والنقد إذا شاء الأستاذ المشنوق . . . » أتراه بهذا الختام يعد أو يتوعد ؟

من يدرى ؟ لعلها بوادر معركة !

الشباب الراجع !

وفى عدد أغسطس من مجلة « الفكر » السورية مختارات من نظم الشاعر حليم دموس ، منها بعنوان « الشباب الراجع » :

سلبت يا دهر منى اعز شىء لديا
سلبت منى شبابى وكان غضًّا نديا
لكنه حن شوقاً وفر منك إليّا
فانظر ، أسلت تراه يا دهر فى ولديّا !

فهرس المجلد الثالث

يونيو — سبتمبر ١٩٤٦

دراسات أدبية

دراسات فلسفية

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين .

(١) André Malraux, *Esquisse d'une psychologie du cinéma.*

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

قصص

شعر

من هنا وهناك

شهرية العلم

شهرية الاجتماع

شهرية السياسة الدولية [محمود عزمى]

شهرية الفن

شهرية المسرح

شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب

من وراء البحار

ظهر حديثاً

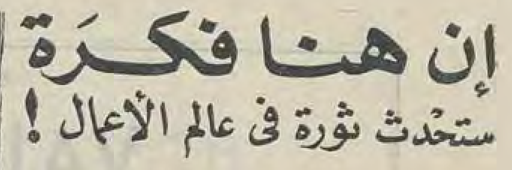
فى مجلات الشرق

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU SIXIÈME CAHIER



إن هنا فكرة
ستحدث ثورة فى عالم الأعمال !

بدأت الثورة فى غرفة فندق بمقاطعة نيويورك منذ أكثر من سبعين سنة ، كان مخترع الآلة الكاتبة يبحث عن منتج ؛ غير أنه كان من الخجل بحيث لا يحسن الدفاع عن فكرته بنفسه ، فأرسل اثنين من أصدقائه مع نموذج آلته الأولى ليكتسب تعضيد الصناع المشهورين لآلات الحياكة وآلات الزراعة رمنجتون وأولاده .

وجاء الأمل فى هذا التعضيد بسرعة وفى تحمس . وكفت ساعة قضوها فى تجارب ومناقشات لتخرج إلى حيز التحقيق صناعة الآلات الكاتبة . وفاه أحد موظفى شركة رمنجتون ، وكان أثقب نظراً من الآخرين ، بهذه الكلمات التنبؤية التى سرعان ما غدت حقيقة واقعة : « فكرة ستحدث ثورة فى عالم الأعمال » .

وفى كل السنين منذ ١٨٧٣ ، كانت آلة رمنجتون ، بفضل هذه الفكرة المبتكرة واتقان عجيب فى صنعها ، أشهر الآلات الكاتبة . وكانت التحسينات الكبيرة تصدر دائماً عن المعامل الهندسية لمنشئ هذه الصناعة .

هذا هو السبب فى الاقبال على شراء آلات رمنجتون أكثر من غيرها من الآلات الكاتبة .

وهذا هو السبب أيضاً فى أن آلة الغد الكاتبة حققت اليوم فى آلة رمنجتون راند الجديدة التى أثبتت جودتها باستعمالها فى ظروف الحرب العصيبة والتى بتحسيناتها الجديدة ، ملمس جديد أنعم وسرعة زائدة فى العمل ، توفر لك عملاً سريعاً لم تعرفه أبداً .

Remington Rand

رمنجتون راند

الأولى بين الآلات الكاتبة

الوكلاء الموزعون : **الكاتب المصرى** شركة مساهمة مصرية قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب

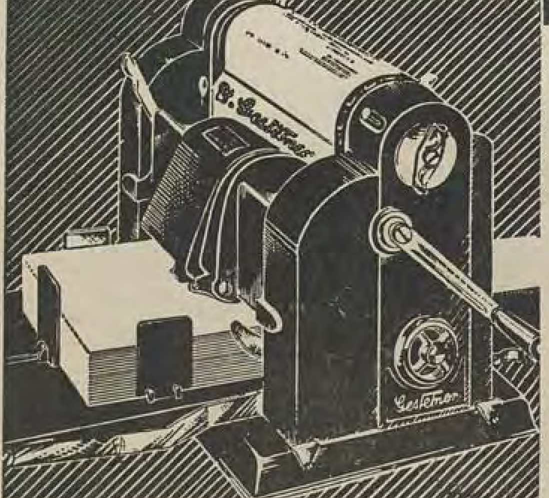
القاهرة الاسكندرية بورسعيد

المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع قنطرة الدكة

آلات نسخ الصور

جستتنر

فى الجمعية العمومية
لهيئة الأمم المتحدة
فى وستمنستر



والصورة تبين سير العمل فى قاعة جستتنر
فى يوم الافتتاح

Gestetner **جستتنر**

ضمان للثقة فى النوع
تحقق من هذا الاسم دائما



الوكلاء الموزعون : **الكاتب المصرى** شركة مساهمة مصرية - قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب
القاهرة الاسكندرية بورسعيد
المركز الرئيسى بالقاهرة - ٥ شارع قنطرة الدكة



مطبعة الكاتب المصرى